د. محمود عكام

لطائف قرآنية

معايشات فكرية ولغوية ووجدانية لآيات وكلمات من القرآن الكريم

أعدَّ الكتاب وعلَّق عليه

محمد أديب ياسرجي

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: لطائف قرآنية. معايشات فكريّة ولغويّة ووجدانية لآيات وكلمات من القرآن الكريم

المؤلف: الدكتور الشيخ محمود عكّام.

أعدَّ الكتاب وعلّق عليه: محمّد أديب ياسرجي.

تاريخ النشر: الطبعة الأولى، المحرّم ١٤٣٠/ كانون الثاني ٢٠٠٩.

التصنيف الموضوعي: علوم القرآن.

الموضوع: تفسير القرآن.

موافقة وزارة الإعلام: رقم ٩٧٩٦٩، تاريخ ٢٠٠٨/٢/٢٥.

تمّ التعاون في نشر هذا الكتاب بين:

سورية. حلب. تجميل الفرقان. شارع الشيخ محمد رفعت. أمام جامع السعد.
هاتف رباعي: ٢٠٩٨ ٠٠٩٦٣٢١
فاكس: ٢٦٣٤٣٢١ ٠٠٩٦٣٢١
جوال: ٩٩٦٤٦٤ ٠٠٩٦٣٩٤٤ ص.ب: ١٦٤٠٠
الموقع الالكتروني: www.hqw7.com
أول محرك بحث مختص بالقرآن والسنة وعلوم الدين الإسلامي: www.alawfa.com

للدراسات والترجمة والنشر
سورية. حلب. أقيول. أمام المطبوعات المدرسية.
هاتف: ٤٤٦٠٢٩٨ ٠٠٩٦٣٢١
فاكس: ٢١١٢٩٨٩ ٠٠٩٦٣٢١
جوال: ٩٥٢٦٠٩ ٠٠٩٦٣٩٤٤
ص.ب: ٨٢٦٠
البريد الالكتروني: fusselat@akkam.org

إصدارات الدار تعبّر عن وجهات نظر أصحابها واجتهاداتهم لا عن رأي الدار

لطائف قرآنية

معايشات فكرية ولغوية ووجدانية
لآيات وكلمات من القرآن الكريم

إهداء

إلى

القرآن

الكريم

عهد أن نبقى

الشفاء والدواء

ومنبع العرفان والهناء .

محمود

شكر وتقدير

كل الشكر لعالم القرآن الكريم حبًا ولكل العاملين فيه، وأخص بالذكر في الشكر القائم الأول أخي فضيلة الشيخ الطاهر عبد الهادي بدلة. داعيًا الرحمن الرحيم لجميعنا بالتوفيق والرعاية والعناية وأن نكون من أهل القرآن في الدنيا ومن الذين يستظلون بظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم، ذلك العجَبُ الهادي

دعوةٌ إلى إعادة اكتشافه مع لطائف قرآنية

تقديم معدّ الكتاب

لا يزال القرآن الكريم مُذ فجأَ الوحيُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلَّم بكلماته الأولى إلى يومنا هذا آخذاً بألباب العارفين به مُدهشاً لهم.

كما لا يزال مثيراً لحَيرة المناوئين، يتخبطون في آرائهم عنه وأقوالهم فيه خَبْطَ الملأ من قريش، الذين أتى القرآن على الغاية في وصفهم وتصوير تردُّدهم وحَيْرتهم أمامه؛ كما في قوله تعالى:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [1].

ويقابل هذا الموقفَ المضطرب مواقفُ أخرى أثبتَها القرآن الكريم، ومنها موقفُ الجنِّ الذي حكاه فأولاه سورةً كاملة سميِّت باسمهم، وقال فيها:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [2].

---

[1] الأنبياء: ٥. وتأمل كيف أتى القرآن بحرف "بل" ثلاث مرات، ليوحي إلى السامع باضطرابهم وقلقهم وترددهم، وأنهم لا يصدرون في أقوالهم عن منطق وفكر، وإنما هو قول مُبتَدأ، يلقونه كيفما اتفق؛ هرباً من إقامة الحجة عليهم.

[2] الجن: ١-٢.

لقد وصفت الجنُّ القرآن الكريم بصفتين اثنتين تصلحان عنواناً لمحورين هامَّين من محاور دراسته؛ فالقرآن عَجَبٌ من جهة، وهو يهدي إلى الرُّشد من جهة أخرى.

ويذهب ظنِّي إلى أنَّ محلَّ العجَب في القرآن ذاتُه، ومحلَّ الهدى أثرُه:

فالقرآن في ذاته عَجَبٌ للناظرين: عجَبٌ في بُنيته وتركيبه وانتظامه، وفي توافق وحداته ومفاهيمه وأساليبه وانسجامها؛ وحريٌّ بمناهج البحث وعلوم دراسة النصوص التي لا تنفكُّ تتطور كلَّ يوم أن تكون نتائجها مصداقاً لقول النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلَّم عن القرآن: (**ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلَق على كثرة الردِّ**) [٣]، بل يتجدَّد بتجدُّد أسئلة الباحثين فيه.

والقرآن في رسالته وأثره رُشْد للمهتدين: أي للإنسان الباحث عن صلاح في نفسه وإصلاح في عمله، وبعبارة أخرى: للإنسان الساعي إلى فَهْم السُّنن، "ونحن نقول عن شخص ما: هذا إنسانٌ راشد. إذا فَهِمَ السُّنن والعلاقات الاجتماعية والكونية فهماً متوازناً صحيحاً" [٤].

ولا شكَّ في أنَّ استخراج مواطن العجَب وسُبُلِ الهدى في القرآن يستلزم منَّا

---

[٣] أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب فضائل القرآن، باب أخبار في فضائل القرآن جملة. والدارمي في السنن: كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن.

[٤] انظر صفحة ١٠١ من هذا الكتاب. ويؤكد أهمية مفهوم "الرشد" في القرآن الكريم توالي التأكيد عليه في مواطن كثيرة من القرآن، ومنها ثلاثة مواطن أخرى في سورة الجن نفسها بعد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يهدي إلى الرُّشد﴾، وهي قوله على لسان الجنّ: ﴿وأنَّا لا ندري أشرٌّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رَشداً﴾ الجن:١٠، وقوله على لسانهم أيضاً: ﴿وأنَّا منَّا المسلمون ومنَّا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحرَّوا رَشداً﴾ الجن:١٤، ثم قوله على لسان رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: ﴿قل إنِّي لا أملك لكم ضراً ولا رَشداً﴾ الجن:٢١. فغاية الدين رشد: ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ البقرة:١٨٦.

عودةً إلى القرآن لنعيدَ اكتشافه، عبر تواصل مباشر ومعايشة حميمة بيننا وبينه، وذلك بتلاوته وقراءته وتدبُّره، وهي المصطلحات التي أجمل فيها أستاذنا الدكتور محمود عكام واجباتنا حيال القرآن الكريم.

١- أمَّا التلاوة: فتنصرف إلى العناية بضبط اللسان أولاً عند النطق بالقرآن، وما يتصل بذلك من علوم كالتجويد والقراءات، ثم هي تشمل كلَّ الأمور الخارجية المتصلة بالظاهرة القرآنية، كنقل القرآن وتدوينه، وما ولَّده حوله من آثار وأعمال.

٢- وأمَّا القراءة: فتُعنى بفهمه ودراسة مفاهيمه وأساليبه، وتشريعاته وأخباره، ولغته وبيانه، وكلِّ ما يتعلق ببُنيته الداخلية.

٣- وأمَّا التدبُّر: فهو يعني التثقُّف بالقرآن، بناء على أن الثقافة كما يعرِّفها أستاذنا المؤلف هي: تحويل المعطيات المعرفية إلى سلوك يصبُّ في هدف واضح بما يعزز إنسانيَّتي.

وما هذه اللطائف القرآنية التي نشرُف بتقديمها اليوم إلا واحدةٌ من القراءات المحتملة للقرآن، وهي حافلة بالكثير من العجب الذي يكتنف عليه القرآن الكريم، إلا أنَّها تسعى في غايتها إلى تدبُّر أمثل لهذا الكتاب المجيد، نستشفي به من أدوائنا التي اعترتنا بكلِّ سوء.

"فهذا القرآن شفاءٌ للناس من الأمراض التي تعتري قلوبهم وعقولهم ...، كالشكِّ أو الرَّيب أو التِّيه أو الضَّياع ...، وكالقلق والاضطراب والحُزن والكآبة.

فالقرآن يشفيك: أي يُصحُّك ويسوِّيك ويجعلك في حالة استعدادية فائقة.

والقرآن يرحمك أيضاً: أي يُبيِّن لك قواعد العطاء النافع من أجل أن تتبنَّاها

وأن تقوم بها؛ فالقرآن الكريم لم يأت من أجل أن يجعلك إنساناً سليماً فقط، ولكن جاء من أجل أن يجعلك سليماً في ذاتك، وأيضاً من أجل أن يجعلك نافعاً لغيرك خيِّراً" [٥].

لقد اختار أستاذنا المؤلف لهذه اللطائف أن يدعوها "مُعايشات" وفي هذا الاختيار رسالةٌ مفادها:

١- إنَّ هذا القرآن أرضٌ طيبة معطاء، وهي تعطي من خيرها كلَّ من يمرُّ عليها، إلا أنَّ عطاءها بمقدار ما يمنحها الإنسان من نفسه وعقله وفكره، فليس من مرَّ بالقرآن عابراً كمن صادقه، وليس من صادقه كمن عايشه، وليس من عايشه كمن عاش به حتى كان خلقه القرآن.

٢- نحن مدعوُّون من أجل أن نحفظ لمن بعدنا إنتاجاً يتمحور حول القرآن، تتجلَّى في هذا الإنتاج شخصيتنا، ويرى فيه الآخرون عصرَنا، لا عصر من سلفنا، والعصر كما يعرِّفه أستاذنا المؤلف هو: "الزمن الذي يَكنُفُك أنت أيها الإنسان بإنتاجك دون غيرك، ويحيط بك ويحوطك، وتُنسب إليه ويُنسب إليك... لقد أقسم الله عزَّ وجلَّ بالعصر، واختاره من بين الزمن والوقت والعمر لأنه يريد من الإنسان أن ينتج، ... فإذا أنتج وفعل أشياء جيدةً ونافعة له ولغيره فهو عصره، وإذا أفدنا الإنسانية في دنياها وأخراها فهذا عصرنا.

ولذلك أقول:

انتبه أيها الإنسان إلى إنتاجك في زمنك، لأن الله عزَّ وجلَّ يقسم بزمنك، وهو لا يقسم إلا بعظيم، فأنتجْ فيه وإلا فلن يستحق زمنك أن يُقسَم به،

---

[٥] انظر صفحة ١٦٣ من هذا الكتاب.

وعِشْ عصرك؛ وإذا لم تعشْه وأخذ الزمانَ غيرُك فالعصر عصرُه، أما أنت فخارج القسَم وخارج التعظيم وخارج العصر" [٦].

أخيراً:

هذه اللطائف بعضٌ من تفكيرٍ ووجدان وذوق وعرفان، أثمرتها معايشةٌ حميمة للقرآن الكريم، وترحالٌ دائم في أنحائه الرحبة، وحرْثٌ دائب في أرضه المعطاء الخيِّرة، وثَّق فيها أستاذنا المؤلف ما لاح له من معان وهو يقرأ آيةً أو يسمعها من فم قارئ، جاهداً في أن لا يخرجَ عن المعتمد في اللغة والمنطق والدلالات وسائر فنون علوم الآلة، ننشرها اليوم في كتاب ابتغاءَ أجر وفائدة ونُصح، بعد أن استمع إليها روَّاد جامع التوحيد الكبير بحلب عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع.

وقد فرض تحويل المسموع إلى مقروء أن يقوم معدُّ الكتاب باختصار بعض الأمثلة والتوضيحات التي يقتضيها الكلام الشفهي ويستغني عنها المكتوب.

كما اجتهد المعدُّ في أن يعلِّق على بعض الأفكار بما يعززها أو يتمِّمها، فنقل عن علماء اللغة والتفسير وغيرهم بعضاً من آرائهم ونظراتهم؛ وقد جاءت هذه المنقولات غفلاً من الإحالة إلى الجزء والصفحة، لأنَّ كثيراً منها أُخذ عن نسخ الكترونية للكتب، فأرجو القارئ الفاهم الكريم أن يتَّسع صدرُه لهذا.

ختاماً: رحمة الله وبركاته على عليٍّ كرَّم الله وجهه وهو القائل: "**واعلموا أنَّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشُّ والهادي الذي لا يضلُّ، والمحدِّثُ الذي**

---

[٦] انظر ص ٢٠ من هذا الكتاب.

لا يكذب، وما جالس هذا القرآنَ أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادةٍ في هدى، أو نُقصان في عمى. واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن مِنْ فاقة، ولا لأحد قبل القرآن مِن غنىً، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوه على لأوائكم، فإنَّ فيه شفاءً من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغَيُّ والضلال... ألا إن كلَّ حارث مبتلىً في حرْثه وعاقبة عمله غيرَ حَرَثة القرآن، فكونوا منْ حرثته وأتباعه، واستدلُّوه على ربِّكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آرائكم، واستغشُّوا فيه أهواءَكم" [٧].

ثمَّ الصَّلاة والسَّلام على الهادي بأمر الله، إمام الخير ورسول الرَّحمة، من بلَّغ القرآن بصدق، وبيَّنه بأمانة، واجتهد ناصحاً في هداية الأمَّة، وهو الذي يقول: **(إنَّ هذا القرآن مَأدُبة الله فاقبلوا منْ مأدبته ما استطعتم، إنَّ هذا القرآن حبلُ الله، والنورُ المبين، والشفاءُ النافع، عصمةٌ لمن تمسَّك به، ونجاةٌ لمن تبعه، لا يزيغ فيُستعتَب، ولا يعوجُّ فيقوَّم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلَقُ من كثرة الردِّ)** [٨].

فإليه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم منَّا أصدق الولاءِ بعد أعظمِ الثناءِ، والحمد لله ربِّ العالمين.

محمد أديب ياسرجي

---

[٧] رواه الزمخشري في "ربيع الأبرار ونصوص الأخيار". باب الأخلاق والعادات الحسنة والقبيحة.

[٨] أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب فضائل القرآن، باب أخبار في فضائل القرآن جملة. والدارمي في السنن: كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن.

لطائف قرآنية

معايشات فكرية ووجدانية ولغوية
لآيات وكلمات من القرآن الكريم

الدكتور محمود عكام

حمداً لله، وصلاةً وسلاماً على رسول الله، ورضىً عن الآل والأصحاب ومَنْ وَالَى واتَّبعَ بإحسان.

وبعد: فهذه مُعايشات وجدانية مع آيات قرآنية، أضعُها اليومَ بين يَدَي قرَّاء أعزَّاء بعد أن صُغْتُها نسائمَ وترانيمَ في آذان سامعينَ أحبَّاءَ في جامع التوحيد، حوَّلتُ المسموع المسجَّل إلى مكتوب مقروء رجاءَ تعميمِ فائدةٍ، وأملاً في نشر خير.

فخُذْ هذا يا قارئي، وعِشْ معي لحظاتِ تفكير ووجدانٍ وذوقٍ وعرفانٍ، وما أجملَ ذلك كلَّه إذا كان المحورَ القرآنُ، فهو حقاً – بل: وَأَيمُ الله – الكتابُ الذي لا تنتهي عجائبُه، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرَّدّ، ولا تشبعُ منه العلماء، وتستقيمُ به الألسُن، وتسعَدُ بالإمعان والإنعام فيه العيونُ والقلوب.

فاللهمَّ اجعله زادَنا المعرفي ودليلَنا المنهجيَّ في الدُّنيا، وسائقَنا الصَّدوقَ إلى الجنَّة في الآخرة.

وسترى يا أيُّها القارئ العزيز أنَّ الآياتِ القرآنيَّة ليست مِنْ سورة واحدة أو من جزء واحد، أو منَ القسم المكيِّ فقط أو المدنيّ فحَسْب، بل هي مختارات تجلَّت لطائفُها أمام عينيَّ وفكري وأنا أقرؤها في المصحف، أو أنظر إليها في لوحة، أو أسمعُها مِنْ فمِ إمام أو قارئ أو خطيب أو ... أو...؛ وثَقتُ ما قد لاحَ لي مِنْ معان، وجهدتُ في أن لا أخرجَ عن المعتمد في اللغة والمنطق والدلالات وسائر فنون علوم الآلة.

والمهمُّ في الأمر أنَّها بعضٌ من تفكيري ووجداني وذوقي وعرفاني، فإنْ أحسنتُ - وهذا مقصدي - فاللهُ هو المنعمُ المتفضِّل، وإن لم أكُنْ كذلك فاللهُ المأمولُ والمرجَّى في التجاوز عن السيِّئات والهَنَات، وهو حسْبي ووكيلي ومعتمدي وملاذي، وإليه مفزعي ومآلي وموئلي ومرجعي، فنِعْمَ الوكيل هو، ونِعْمَ النصير جنابُه العظيم جلَّ شأنه.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [1].

الدكتور الشيخ
محمود عكام
في حلب

حلب، ربيع الأول ١٤٢٩

---

[1] الممتحنة: ٥.

من لطائف سورة النصر

ثنائية النصر والفتح

موضوع اللطيفة لهذا اليوم قوله تعالى في سورة النَّصر:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [1].

السؤال الأول:

لماذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، ولم يقُل: (إن جاء نصرُ الله والفتح) ؟

بعبارة أخرى: ما الفرق بين (إذا) الشَّرطيّة و (إن) الشَّرطيّة ؟

على سبيل المثال، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [2]، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾.

يقول علماء اللغة: إذا استُخدمت (إذا) فهي تعني بأنَّ فِعلها، فعلَ الشرط الذي بعدها، مؤكَّدُ الوقوع.

---

[1] سورة النصر: مدنية، وترتيبها في المصحف /١١٠/.

[2] الحجرات: ٥.

فحينما أقول لك مثلاً: (إذا جئتك مساءً فعليك كذا وكذا)، فإنَّ (إذا) تفيد هنا التأكيد على أنني قادم مساءً، لأنَّ فعل الشرط بعد (إذا) مؤكّد الوقوع.

وأمَّا فعل الشرط بعد (إنْ) فليس مؤكّد الوقوع، لذا فهمنا من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أنَّه قد يأتيكم هذا الفاسق وقد لا يأتيكم، فإن أتاكم فعليكم أن تتبيَّنوا.

ولكنَّ قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ يعني بأن نصر الله آتٍ من غير شك ولا احتمال، وهذا ما حصل فعلاً، فقد أتى نصر الله في حياة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم،ولذلك كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: "إني أرى في هذه الآية نَعْياً لرسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم" [٣].

إذن: لقد جاء نصر الله والفتح، وأصبح الناس يدخلون في دين الله

---

[٣] عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجدَ في نفسه فقال: لم تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر: إنه مَن قد علمتم. فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريَهم. قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ؟ فقال بعضهم : أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت: لا. قال: فما تقول ؟ قلت: هو أجَلُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أعلمه له؛ قال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ وذلك علامة أجلك، ﴿فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾. فقال عمر ﷺ: ما أعلم منها إلا ما تقول. أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، سورة النصر، باب قوله: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾.

وعن ابن عباس أيضاً قال: لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ دعا رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فاطمة عليها السَّلام فقال: (**قد نُعيتْ إليَّ نفسي**). فبكت، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: (**لا تبكي فإنك أول أهلي لحاقا بي**). أخرجه الدارمي في السنن: بابٌ في وفاة النبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم.

أفواجاً، وشارفت حياة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم على النهاية، فالأمانة أُدِّيتْ، والرسالة بُلِّغت، وانتهى الأمر.

السؤال الثاني:

ما الفرق بين النَّصر والفتح في المصطلح القرآني ؟

ليست الكلمتان مترادفتين، ولكنهما مختلفتان في المعنى والدلالة، فماذا يعني (النَّصر) ؟ وماذا يعني (الفتح) ؟

النَّصر هو: غَلَبة أحد الأطراف على الطرف الآخر بالقوة.

فعندما يغلب أحدُ الطرفين في المعركة الطرفَ الآخر بالقوة، عند ذلك نقول عن الطرف الأول بأنَّه انتصر.

أمَّا الفتح: فغَلَبة أحَد الأطراف على الطَرف الآخر بالإقناع في حال السِّلم.

أي عندما يتغلَّب أحدُ الطرفين على الطرف الآخر، ويُقنعُه بالحُجَّة والبرهان، ويصبح الطرف الآخر وقد اعتقد وآمن بما يؤمن به الطرف الأول، عند ذلك نقول عن عمل الطرف الأول بأنه فتح؛ فالفتح هو الغلبة بالمنهج والمبدأ الذي تحمله، ولكن عن طريق الإقناع وليس عن طريق القوة، والذي يريد أن يغلبني بمنهجه ويجعل منهجَه منهجاً لي بالقوة، فإن غَلَبَتَه هذه ليست فتحاً، وإنما تسمَّى دكتاتورية، وهي مرفوضة.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [٤] وهذا إكراه، فلا يسمَّى فتحاً.

وإنَّ ممَّا امتاز به إسلامنا والحمد لله - وقد يكون هذا بعيداً عنَّا وعن

---

[٤] البقرة: ٢٥٦.

حالنا اليوم - أنَّ ربنا دعانا إلى النصر والفتح، فكأنه قال لنا: أن تنتصروا فهذا لا يكفي، بل يجب أن تفتحوا؛ أن تنتصروا في المعركة فهذا شيء جميل، ولكن عليكم بعد النصر أن تُتوِّجوا النصر بالفتح، بأن تقدِّموا للناس الذين انتصرتم عليهم منهاجاً تقنعونهم به حتى يسيروا عليه، ليتحققوا بالغاية المناسبة على مستوى الدنيا وعلى مستوى الآخرة.

وأمَّا من ينتصر بالقوة في حال الحرب، ولكنَّه لا يملك منهجاً من أجل أن يقدِّمه للمنتَصَر عليهم فلا يستحقُّ أن يكون صاحبَ مكانةٍ وصاحب رفعة في الحياة الدنيا، لذلك أخبر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أنَّه عندما يتحقَّق النَّصر والفتح، فسوف يرى الناسَ يدخلون في دين الله أفواجاً: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

لقد كتبتُ مقالة يوماً من الأيام، منذ أكثر من عشر سنوات، قلت فيها: هل يدخل الناس اليوم في ديننا أفواجاً ؟

لعلَّ الجواب هو: لا...

لماذا ؟

لأننا حتى ولو انتصرنا في المعركة الحربية فإنَّنا لم نفتح في المعركة السِّلمية، ولم نقدِّم المنهاج ونقنع به الآخرين، وبالتالي لن يدخل الناس الآن في دين الله أفواجاً.

أتريدون أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً ؟ إذن، عليكم أن تتحققوا بالنَّصر وبالفتح، وإلا فلن يدخلَ الناسُ في دينكم أفواجاً.

من لطائف سورة العصر

الزمن والعصر والوقت والعمر

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [1].

والسؤال:

لماذا أقسم الله بالعصر ؟ وما معنى كلمة العصر ؟

وهل هناك فرقٌ بين العصر والزَّمن والوقت والعُمر ؟

ونبدأ بالإجابة من السؤال الأخير.

أولاً: أمَّا الزمن فهو الظرف مطلقاً، وهو الذي يقابل المكان.

ثانياً: وأمَّا الوقت فهو بعض الزمن [2] الذي يضاف إليه المُنتَج، أو الفعل، أو الحال، أو العنوان المراد فِعله.

وبعبارة أخرى: الزمن هو المادة الخام الأساسية، والوقت هو جزءُ الزمن حينما ينسب لعلامة أو لإنتاج أو لغير ذلك؛ كما لو قلت: الوقت الآن وقت صلاة الجمعة، أو وقت عشاء، أو غداء...

---

[1] سورة العصر: مكية، وترتيبها في المصحف /١٠٣/.

[2] قال أبو هلال العسكريُّ في "الفروق في اللغة": الفرق بين الزمان والوقت أنَّ الزمان أوقات متوالية مختلفة أو غير مختلفة، فالوقت واحد، وهو المقدَّر بالحركة الواحدة من حركات الفلك، وهو يجري منَ الزمن مجرى الجزء من الجسم.

ثالثاً: وأمَّا العمر فهو المسافة الزمنية التي يقطعها الإنسان أو الحيوان أو أي مخلوق آخر، أي المسافة التي تقطعها المخلوقات العُمرية من البداية إلى النهاية، أو من الولادة حتى الموت.

رابعاً: وأمَّا العصر فهو الزمن الذي يَكتُنُفُك أنت أيها الإنسان بإنتاجك دون غيرك، ويحيط بك ويحوطك، وتُنسب إليه ويُنسب إليك.

فعندما تُنتج ضمن زمن فهذا عصرك، وعندما يُنتج غيرك معك فهو عصركما، وعندما ننتج جميعاً نقول: عصرنا، أما عندما لا ننتج فيه فلا يسمَّى العصر عصرنا.

فهل ننتج في هذا الزمن "الظرف: الذي يلفُّنا، أو نقدم فيه إنتاجاً مستمراً من أجل أن يسمَّى عصراً لنا ؟!

لقد أقسم الله عزَّ وجلَّ بالعصر، واختاره من بين الزمن والوقت والعمر لأنه يريد من الإنسان أن ينتج، وقد خلقه ليعمل وينتج طيِّباً وصالحاً، فإذا أنتج وفعل أشياء جيدةً ونافعة له ولغيره فهو عصره، وإذا أفدنا الإنسانية في دنياها وأخراها فهذا عصرنا.

ولذلك أقول:

انتبه أيها الإنسان إلى إنتاجك في زمنك، لأن الله عزَّ وجلَّ يقسم بزمنك، وهو لا يقسم إلا بعظيم، فأنتج فيه وإلا فلن يستحق زمنك أن يُقسَم به، وعِشْ عصرك؛ وإذا لم تعشْه وأخذ الزمانَ غيرُك فالعصر عصرُه، أما أنت فخارج القسَم وخارج التعظيم وخارج العصر.

وأعظم مخلوق وأهمُّ إنسان أنتج نافعاً في زمنه هو محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ولذلك نرى المفسِّرين يقولون:

المراد بالعصر في هذه السورة عصرُ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فكأن الله عزَّ وجلَّ يُقسم فيقول: "وعصرِك يا محمَّد"؛ لأنه أعلى الأزمنة وأرفعُها وأكثرها إنتاجاً من قِبَل الذين عاشوا في ذاك الزمن.

وأشير هنا إلى أننا نسمِّي الفترة التي عاش فيها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم "عصر الرسالة"، لأنَّ الرسالة أدِّيت فيه بشكل رائع وعظيم.

وأقول أيضاً: إننا اليوم خارج عصرنا، لأننا على عكس المطلوب منَّا، فنحن ننتج أشياء سيِّئة وليست نافعة، ومن أجل ذلك جاءت الآية التي بعدها لتقول:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾: وهذا عندما الإنسان يكون خارج العصر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: أي الذين سيدخلون العصر فيسمَّى الزمنُ عصرَهم، فهم آمنوا بالله وعملوا الصالحات التي تُفيدهم وتفيد الآخرين.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾: أي بالإيمان، لأن الإيمان يحتاج إلى تَواصٍ عليه، بأن يقول كلُّ واحد للآخر فيما يخص الإيمان: أنت على الحقِّ.

أتريد أن يكون لك عصرٌ يُقسَم به وأن لا تكون في خسر؟ إذن عليك بـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

هل أنت مؤمن؟ ... نعم.

هل أنت تعمل الصالحات؟ ... نعم.

ما هي هذه الصالحات؟ ... إنها الصلاة والصيام والحج.

هل تغشُّ في عملك؟ ... نعم!

هل تكذب في بيعك؟ ... نعم!

أين هي الأعمال الصالحة إذن ؟!

أتريد أن يكون لك عصر ؟

عليك إذن بأربعة أمور:

١- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أمَّا داخلك فيجب أن يكون متيناً جداً.

٢- ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: وأمَّا ظاهرك فيجب أن يكون نافعاً.

٣- ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾: تواصَ فيما بينك وبين إخوانك بالإيمان.

٤- ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾: وتواصَ فيما بينك وبينهم بالصَّبر على صالح العمل.

ففي هذه الآية - كما يقول البلاغيون - لفٌّ ونشر مرتَّب [٣]، ويكون تقدير الكلام: إلا الذين آمنوا وتواصَوا بالإيمان بالحقِّ، وعملوا الصَّالحات وتواصَوا بالصَّبر على العمل.

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يقولون هذه السُّورة فيما بينهم عندما يفترقون، وعندما يخرجون من الصلاة أو من الجهاد، أو يذهب كُلٌّ منهم إلى بيته أو مكانه أو خصوصياته، وذلك من أجل أن يذكِّر كُلُّ واحد

---

[٣] قال شهاب الدين النُّويري في "نهاية الأرَب في فنون الأدب": وأمَّا اللفُّ والنَّشر فهو أن يذكر اثنين فصاعداً، ثم يأتي بتفسير ذلك جملةً مع رعاية الترتيب، ثقةً بأنَّ السَّامع يردُّ إلى كلِّ واحد منها مَا لَهُ، كقوله تعالى: ﴿ومِنْ رحمته جعلَ لكمُ الليلَ والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغُوا مِنْ فضله﴾ القصص:٧٣. وقد لا يُراعَى فيه الترتيب ثقة بأنَّ السامع يردُّ كل شيء إلى موضعه سواء تقدَّم أو تأخر.

وينقل عبد القادر البغدادي في "خزانة الأدب" عن ابن جنِّي في "سر الصناعة" قوله: ولم يجعل الله تعالى كلَّ واحد منَ الليل والنهار لكلِّ واحدٍ من السُّكون والابتغاء، وإنما جعل الليل للسكون، والنهار للابتغاء، فخلط الكلامَ اكتفاءً بمعرفة المخاطَبين بوقت السكون من وقت الابتغاء.

منهم الآخر فيقول: لا تخرج من عصرك، ولا تَدَعِ الزمن يسمَّى بغير اسمك، أو ينسب في عَصْريَّته إلى سواك، بل ليكن العصرُ عصرك.

هذا ما كان عليه الصَّحابة الكرام، فاللهمَّ حقِّقنا بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحقِّ والتواصي بالصَّبر.

من لطائف سورة المسَد

دعوة الحقِّ أمام يَد الباطل

موضوع لطيفتنا اليوم حول قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [1].

سبب نزول السُّورة:

لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [2] صعد النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الصفا فجعل ينادي بطون قريش:

يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب... حتى اجتمعوا إليه، فقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (**أرأيتَكم لو أخبرتُكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدِّقيَّ ؟**).

قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً.

فقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (**فإنِّي نذيرٌ لكم بين يَدَي عذابٍ شديد**).

---

[1] سورة المسد: مكية، وترتيبها في المصحف /١١١/.

[2] الشعراء: ٢١٤.

فقال أبو لهب، وهو عبد العزَّى بن عبد المطَّلب، عمُّ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: تبًّا لك، أمَا جمعتنا إلا لهذا ؟!

فلما قال أبو لهب هذه الكلمة: "تبًّا لك"، أي: هلاكاً لك، وإذا به ينزل قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخر السورة [٣] .

أي: ليس أنت يا محمَّد المدعوُّ عليك بالهلاك، بل الذي دعا عليك هو المدعوُّ عليه بالهلاك.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾: أي هلَكت يدا أبي لهب [٤].

والسؤال:

لم عبَّر القرآن باليد، ولم يقل: تبَّ أبو لهب ؟ وبعبارة أخرى: لماذا عبَّر باليدين عن الشخص ؟

أقول: العرب عندها من الكنايات الشيء الكثير، فهي تعبِّر عن اليَدين

---

[٣] متفق عليه. البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ الشعراء:٢١٤. ومسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. وقيل: إن نزول سورة المسد سابق على نزول قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، إذ اتفق معظم المفسرين على أن سورة المسد من أوائل سور القرآن نزولاً، وجعلوها الثالثة أو السادسة على أبعد تقدير؛ وأما سورة الشعراء فهي تأتي في المرتبة السادسة والأربعين، وقيل: السابعة والأربعين، وهي تقع زمنياً في أواخر السنة الخامسة وأوائل السادسة للبعثة، ولعل قول أبي لهب قد تكرر منه مرات عدة، فأعاد النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم تلاوة السورة، لما اقتضى الحال هذه الإعادة.

[٤] في عدول القرآن الكريم عن ذكر الاسم الصريح إلى ذكر الكنية "أبو لهب" معانٍ لطيفة، منها: أن اسم أبي لهب هو "عبد العزَّى"، والعزَّى صنم، وما كان للقرآن الكريم أن يقرَّ بعبد للصنم، لأنَّ الواقع الحقَّ أنَّه لا ربَّ إلا الله. كما إنَّ في ذِكر المسمَّى بكنيته "أبو لهب" موافقةً لحال المذكور، فإنَّ مصيره إلى النَّار ذات اللهب.

بالنفس، فقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [٥] يعني: بما قدَّمت أنفسُكم. وإنَّما عبَّر باليَدين باعتبارهما المظهرَ الأكثر بروزاً لحركة الإنسان وعمله [٦].

هذا رأي، وهناك رأي آخر يقول:

إنَّ المرادَ باليدين في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ ذات اليدين.

يؤيِّد ذلك ما يرويه ابن هشام [٧] أنَّ أبا لهب كان يقول في بعض ما يقول: يَعدُني محمَّد أشياء لا أراها، يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يديَّ بعد ذلك ؟!

ثم ينفخ في يديه ويقول: تبًّا لكما ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمَّد. فأنزل الله تعالى فيه ما أنزل.

إذن: إمَّا أن تكون اليدان على سبيل المجاز أو على سبيل الحقيقة.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾: هذا دعاء بالهلاك عليه.

﴿وَتَبَّ﴾: هذا إخبارٌ، وفيه تأكيدٌ لوقوع الهلاك عليه، فيكون المعنى:

---

[٥] آل عمران: ١٨٢.

[٦] قال ابن السمين الحلبي في تفسيره "الدرّ المصون": قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾: أي: خَسِرتْ، ... وأسند الفعلَ إلى اليدَيْن مجازاً لأنَّ أكثرَ الأفعال تُزاوَلُ بهما، وإنْ كانَ المرادُ جملةَ المدْعُوِّ عليه. وقوله: ﴿تَبَّتْ﴾ دعاءٌ، و﴿تَبَّ﴾ إخبارٌ، أي: قد وقع ما دُعِيَ به عليه... ويؤيِّده قراءةُ عبد الله: (وقد تَبَّ)، والظاهرُ أنَّ كليهما دعاءٌ، ويكونُ في هذا شَبَهٌ مِنْ مجيء العامِّ بعد الخاصِّ؛ لأنَّ اليَدَيْن بعضٌ، وإن كان حقيقةُ اليدَيْن غيرَ مرادٍ، وإنما عبَّر باليدَيْن؛ لأن الأعمال غالباً تُزاوَلُ بهما.

[٧] السيرة النبوية: في أثناء خبر الصحيفة ومقاطعة قريش للمسلمين.

وقد هلك فعلاً [٨]، ولذلك قُرأت هذه الآية في مصحف عبد الله بن مسعود ﷺ بزيادة شاذَّة، بلفظ: (تبَّت يدا أبي لهب وقد تبَّ)، أي وقد هلك [٩].

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾:

أجدُ في هذه السورة إشارةً إلى أنَّ أعداء الإسلام وأعداء الله لا يملكون في مواجهة الحقِّ الذي يصدر على لسان الإنسان إلا القوةَ المادية.

وكأنَّ السورة تقول لنا: يا أهل الحق، إنَّ الذين أمامكم مِنْ أهل الباطل لا يملكون حقاً يتحدَّثون عنه ويقارعونكم به، بل يريدون أن يبطشوا بكم بالقوة المادية فقط.

وقد دعا الله عزَّ وجلَّ على هذه القوة المادية التي تمثلها اليدان والمال فقال: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

أي: ما أغنتْ عنه يداه ولا ماله ولا كَسْبُه، فاليدان رمزُ القوة المادِّية التي

---

[٨] قال أحمد بن فارس القزويني في كتابه "الصاحبي في فقه اللغة"، باب سنن العرب في حقائق الكلام والمجاز: وما كان لله جلّ ثناؤه ليدعوَ على أحد فتحيد الدعوة عنه. قال الله جلّ ثناؤه: ﴿تَبَّتْ يدا أبي لَهَبٍ﴾ فدعا عليه. ثم قال: ﴿وتبَّ﴾ أي: وقد تبّ وحاق به التَّباب. وقال الزمخشري في "الكشاف": ﴿وَتَبَّ﴾: وهلك كلُّه، أو جُعلَتْ يداه هالكتين، والمراد هلاك جملته، كقوله تعالى: ﴿بما قدمت يداك﴾ الحج:١٠، ومعنى: ﴿وَتَبَّ﴾: وكان ذلك وحصل، كقوله - أي كقول الشاعر -:

جَزَانِي، جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِه، جَزَاءَ الْكِلاَبِ الْعَاوِيَاتِ؛ وَقَدْ فَعَلْ

[٩] ذكر هذه القراءة علماء القراءات والعربية، فمنهم أبو زكريا الفراء في كتابه "معاني القرآن"، والزمخشري في "الكشاف"، وكذلك صنع معظم المفسرين عند تفسير الآيات، كابن السمين الحلبي الذي نقلنا عنه آنفاً في الحاشية (٦). وقد فتشت كتاب أبي الفتح ابن جنّي "المحتسَب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها"، فلم أعثر عنده على ذكر لهذه القراءة.

يتمتع بها الإنسان [١٠] ، والمال رمز القوة الاقتصادية.

إذن: لا يملك أعداء الحقِّ في مواجهة الحجَّة بالحُجَّة، بل لا يملكون إلا القوة المادية والقوة الاقتصادية، وعلى المسلمين أن يعدوا العدَّة لمواجهة هؤلاء: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [١١]:

وآخر ما يمكن أن يقال في هذه اللطيفة:

أنَّ في هذه الآية استئناساً على أنَّ هذا الكلامَ كلامُ الله عزَّ وجلَّ، لأنَّ الله لما ذَكَر الدُّعاء على يدَي أبي لهب قال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد تبَّ، فأخبرَ بالتَّباب.

ولو كان هذا الكلام من عند رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لما

---

[١٠] قال ابن منظور محمد بن مكرم في "لسان العرب"، مادة (ي د ي): واليَدُ: القُوَّة. وأيَّدَه الله أي قوَّاه. وما لي بفلان يَدانِ أي طاقةٌ. وفي التنزيل العزيز: ﴿والسَّماءَ بَنَيْناها بأَيْيدٍ﴾ الذاريات:٤٧؛ ... ومنه قول كعب ابن سعد الغَنَويِّ:

فاعمِدْ لِما يَعْلُو، فما لكَ بالذي لا تستَطِيعُ من الأُمورِ يَدانِ

... وقولُ سيدنا رسول الله، صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (**المُسْلِمُونَ تتكافأُ دماؤُهم، ويَسْعَى بذِمَّتهم أدناهم، وهم يَدٌ على مَن سِواهم**) أي كَلِمَتُهم واحدة، فبعضُهم يُقوِّي بَعْضاً.

وقال أبو الحسن محمد بن الحسين الشريف الرَّضي في كتابه "مجازات الآثار النبوية"، عند الكلام على قوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (**وهم يدٌ على من سواهم**)، ما نصُّه: والوجه الآخر أن تكون اليد هاهنا بمعنى القوة، فكأنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: وهم قوَّةٌ على من سواهم. والقوَّة أحد المعاني التي يُعبَّر عنها باسم اليد...، وقول القائل: "لا أفعل ذلك يدَ الدَّهر" معناه عندي: لا أفعل ذلك قوَّةَ الدهر. أي ما دام الدهر قويَّ الأركان قائم البنيان.

[١١] الأنفال: ٦٠.

استطاع أن يقول هذا، لأنَّه لا يعلم الغيب، ولكَان باستطاعة أبي لهب أن يأتي النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ليقول له:

أنت دعوت عليَّ فقلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وها أنا ذا أقول لك: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله)، وبالتالي أصبح كلامك - يا مُحمَّد - غير صحيح، لأنك أخبرت بهلاكي، ولن يكون هذا؛ بل سأنجو من الهلاك.

ولكنَّ أبا لهب لم يفعل ذلك، وصدَّق على نفسه ما وصفه به القرآن الكريم؛ وبالتالي لا يمكن لهذا الكلام إلا أن يكون كلامَ الله ﷻ العليم الحكيم، القاضي الذي تنفذ كلمتُه ولا مَردَّ لقضائه ولا لقدره، والذي يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، فهذا إذن من الإعجاز القرآنيِّ.

من لطائف سورة النبأ

جزاءً وِفاقاً وعطاءً حساباً

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة النبأ [1]:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

تلاحظون أن الحديث عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة، في هذه الآيات ينقسم إلى قسمين اثنين، يتناول كلُّ قسم منهما فئةً ما، إذ تتحدث الآيات عن أهل النَّار من أولها حتى قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

---

[1] سورة النبأ: مكية، وترتيبها في المصحف /٧٨/.

ثم ينتقل الحديث بعد ذلك ليكون عن المتَّقين الذين هم أهل الجنَّة.

يقول الله تعالى فيما يخصُّ جزاء الطاغين أصحاب النَّار: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾.

أما فيما يخصُّ جزاء المتقين فإنَّه لم يقُل: "جزاءً وِفاقاً" أيضاً، وإنَّما قال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾.

والسؤال الأول:

ما سرُّ هذا التفريق في وصف الجزاء ما بين الطاغين والمتَّقين ؟

أقول: لقد بغَى الذين ظلموا أنفسهم وكفروا وفسَقوا، وسوف يجازيهم الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة على أعمالهم، وسيكون جزاؤهم على ما أساؤوا جزاء وفاقاً، أي جزاء موافقاً لما عملوا [٢].

وهذا ما يظهر بوضوح من خلال إعراب ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾:

جزاءً: مفعولٌ مطلق لفعل محذوف، تقديره: وجُوزُوا جزاءً.

وفاقاً: صفة للمفعول المطلق.

سيُجزى هؤلاء الذين كفروا وفسَقوا و... و... إلخ... يوم القيامة جزاءً وفاقاً، مناسباً لأعمالهم، وعلى قدْر ما صدر منهم.

السؤال الثاني:

على أي شيء سيُعذَّب هؤلاء يوم القيامة ويُجْزَون جزاء وفاقاً ؟

---

[٢] قال ابن منظور في "لسان العرب": الوِفاقُ: المُوافقة... قال ابن سِيده: وَفْقُ الشيء ما لاءَمه، وقد وَافقهُ مُوافقةً ووِفاقاً ... وقال غيره: وتقول هذا وَفْقُ هذا وَوِفاقه.

على أمرين اثنين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾:

أي إنهم كانوا غير مبالين، يُذكِّرهم الأنبياء ويقولون لهم: أمامكم يوم الحساب. فلا يبالي هؤلاء بكلامهم وتذكيرهم، بل يهملونه ولا يعتبرونه، ويسخرون منه وممَّن يتكلم به.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾:

لاحظوا كيف أكَّد الله تعالى على عظيم تكذيبهم بكلمة (كِذَّاباً)، وهي مصدر لفعل (كذَّب)، بصيغة المبالغة (فعَّل)، أقول: كَذَّبَ كِذَّاباً [٣].

لقد كانوا لا يرجون حساباً، وكذبوا بآيات الله تعالى كِذَّاباً، وسيكون جزاؤهم على هذين الأمرين جزاء وفاقاً، ولن يكون غير عادل، وحاشا لله تعالى أن يظلم.

---

[٣] ورد هذا المصدر مرتين في القرآن الكريم، كلتاهما في سورة النبأ، فأوَّلُ المرتين هذه الآية المذكورة، والثانية هي قوله تعالى في الآية /٣٥/: ﴿لا يَسْمَعُونَ فيْهَا لَغواً وَلا كِذَّاباً﴾. قال محمد مرتضى الزَّبيدي في "تاج العروس": قال الكسائي: أهلُ اليمَن يجعلون المصدرَ مِنْ فَعَّلَ: فِعَّالاً. وغيرُهُم من العرب: تَفْعِيلاً. وفي الصِّحاح قولُه تَعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآياتنَا كِذَّاباً﴾، وهو أحَد مصادر المشَدَّد، لأن مصدرَهُ قد يجيءُ على تَفعيل كالتَّكليم، وعلى فِعّال مثل كِذّاب، وعلى تَفْعِلَة مثل تَوْصِيَة، وعلى مُفَعَّل مثل: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ سبأ:١٩. قلتُ: وفاتَه "كُذَّاباً"، كرُمَّان، وبه قرأ عمر بن عبد العزيز؛ ويكون صفةً على المبالغة...، يُقال: كَذَّبَ كُذَّاباً، أيْ: مُتَنَاهياً.

السؤال الثالث:

قد يقول سائل: لقد عاش هؤلاء خمسين أو سبعين سنة، ولكنهم سيدخلون يوم القيامة جهنَّم خالدين فيها أبداً، فهل يكون جزاؤهم في جهنم إلى مالا نهاية ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ ؟!

الجواب: نعم. إنَّ هذا الجزاء طبيعي وعادل، لأنَّ الله تعالى يقول عنهم في آيات أخرى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [٥].

قضيَّتُهم محسومة. صحيحٌ أنهم عاشوا خمسين سنة، ولكن منَ العبث أن يمدَّ اللهُ تعالى في عمرهم إلى الأبد فيمنحَهم الخلود، فهم سيستمرون على ما هم عليهم:

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [٦].

أرأيتَ لو أن طالباً رسب في صفِّه للمرَّة الأولى والثانية والثالثة...، وليس

---

[٤] الأنعام: ٢٥.

[٥] الأنعام: ٢٧-٢٨.

[٦] البقرة: ٧.

هناك بوادر أو تباشير للنجاح أبداً، فلو قيل لي: جرِّبه سنةً رابعة، فجرَّبتُه ورسبَ، ثمَّ جرَّبتُه ورسبَ، ألا يحقُّ لي أن أطرده بعدها من المدرسة ؟!

أليس منَ العبَث أن يقال لي: أتطردُه من المدرسة للأبد، ويجوز أن يعيش خمسين سنة ؟ فهل تطرده خمسين سنة لأنَّه رسب خمس سنوات ؟

أردُّ على هذا المتسائل وأقول له: لو أبقيتُه خمسين سنة لاستمر على الرُّسوب، وأنا لا أريد أن أتعامل معه بالعبث.

السَّنوات الخمس كالخمسين، والاشتغال بالزيادة عبَثٌ.

لو سمعنا هذا الكلام من إنسان تجاه إنسان آخر لَقَبلناه، فما بالك إذا كان التقدير والكلام آتياً من العليم الحكيم ؟!

لذلك كان العذاب جزاء وفاقاً، لأنَّ هؤلاء لا يرجون حساباً، ولأنهم كذبوا بآياتنا كِذَّاباً، وسيستمرُّون لا يرجون حساباً، وسيستمرون يكذِّبون بآيات الله كِذَّاباً، فقضيَّتُهم محسومة، فجزاؤهم جزاءٌ وِفاقٌ، وليس هناك تجاوزٌ أو ظلم [٧].

السؤال الرابع:

ننتقل الآن إلى الآيات الأخرى:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾.

---

[٧] قال الزَّبيدي في "تاج العروس": وقوله تعالى: ﴿جَزاءً وِفاقاً﴾ أي: جَزاءً وافَقَ أعمالَهم. وقال مُقاتِل: وافَقَ العذابُ الذَّنبَ، فلا ذنْبَ أعْظمُ من الشِّرْك.

لماذا قال الله سبحانه وتعالى هنا: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾، ولم يَقُل: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ ؟

لأنَّ الله تعالى لو أراد معاملتك بالوِفاق، فأنتَ لا تستحق دخول الجنة.

ليس أنت وحدَك، بل كلُّ الناس، حتى إنَّ سيدَ البشر محمَّداً صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: **(لن يُدخلَ أحداً منكُم عملُه الجنَّةَ)**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: **(ولا أنا. إلا أن يتغمَّدنيَ اللهُ منه بفضلٍ ورحمة)** [٨].

لذلك قال الله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾، ولم يقل: وِفاقاً، فنحن لا نستحقُّ الجنَّة بعملنا.

كنت أتدارس مع بعض الإخوة حول أنَّ الله عزَّ وجلَّ تحدَّث عن يوم من أيامه فقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [٩].

هذا يوم من أيام الله عزَّ وجلَّ، وهو يعادل خمسين ألف سنة من سِنيِّ حياتنا، فإذا حسبنا أعمارنا على هذا اليوم، تبيَّن لنا أن عُمرنا شيءٌ قليل بالنسبة إلى هذا اليوم، شيءٌ يقاس بالثواني...، ونحن في هذه الثواني القليلة نأكل ونشرب ونلعب ونفسد... وأيضاً نصلي ونصوم ونزكي... إلخ، فهل نستحق أن يدخلنا الله تعالى الجنة جزاءً وفاقاً لعمل هذه الثواني ؟!

---

[٨] متفق عليه. البخاري: كتاب المرض، باب تمني المريض الموت. ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى. واللفظ له.

[٩] المعارج: ٤.

لو أمضينا كل هذه الثواني ونحن ساجدون لله، فهل نستحق جنَّةً عرضها السموات والأرض ؟!

لا... نحن لا نستحق.

نعود إلى الآيات التي تُظهر عظمة القرآن، فلو أنَّ الله تعالى قال عن جزاء المتقين: (جزاءً من ربك وِفاقاً)، فلن نستحقَّ شيئاً أبداً، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾، فماذا تعني ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ ؟

عطاء: إنعام من الله سبحانه وتعالى ابتداءً بلا موجب.

حساباً: كثيراً كافياً يُغنيك ويَفي بما تحتاجه.

قال الشاعر العربي يتكلم عن مضيفٍ جيِّد:

فلمَا حَلَلْتُ به ضَمَّني فأولَى الجَميلَ وأعطَى حسَابا

أي أعطى عطاءً كافياً مُغنياً [١٠]. وإذا كان عطاء البشر قاصراً، ونعيمُ الدنيا زائلاً، حتى إنَّ الإنسان يقول بلسان حاله:

لا طِيبَ للعيش ما دامتْ مُنغَّصةً لَذَّاتُهُ بِادِّكَار الموت والهَرَم

فإنَّ عطاء الله تعالى دائم لا يفنى ولا يزول، فليس في الجنَّة موت.

ولذلك أقول: قليلاً من الحياء مع الله يا ناس. قليلاً من الحياء يا شباب.

---

[١٠] قال ابن السِّكيت يعقوب بن إسحق في "إصلاح المنطق": ويقال أحسَبَهُ، إذا أكثرَ له. قال الشاعر:

ونُقفي وليدَ الحيِّ إن كان جائعاً ونُحْسِبُه إن كان ليس بجائع

أي: نُكثر له ونعطيه حتى يقول: حَسْبُ. ومنه قوله تعالى: ﴿عطاء حساباً﴾ أي كثيراً.

وقال خليل بن أيبك الصفدي في "تصحيح التصحيف وتحرير التحريف": ويقولون: اعملْ بحَسْبِ ذلك، بإسكان السين. والصواب فَتحُها، لِتُطابقَ معنى الكلام، لأن الحَسَبَ هو الشيء المحسوبُ المماثلُ والمقدَّرُ، وأما الحَسْب بالسكون فهو الكِفاية، ومنه قوله تعالى: ﴿عَطَاءً حِساباً﴾، والمعنى في الأول: اعملْ على قَدْر ذلك.

ليس منْ أجل الجزاء، فالجزاء لا نستحق به شيئاً؛ ولكن من أجل الحبّ والوفاء.

قليلاً مِنَ الصلاة متأنية؛ قليلاً منَ الطاعة للّه عزَّ وجلَّ: مِنَ السجود، مِنَ الركوع؛ مِنَ الصَّلاة على النبيِّ صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم، منْ تلاوة القرآن، مِنَ الخوف منَ اللّه، منْ كفِّ اللسان عن الغيبة والنميمة، مِنَ الرَّحمة للمسلمين، مِنَ الرَّحمة للناس كافَّةً، مِنَ الرَّحمة لكلِّ المخلوقات.

نرجو اللّهَ أن يوفِّقنا لذلك، حتى ننالَ منه سبحانه كما قال في كتابه العزيز: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾.

من لطائف سورة الطارق

إنْ كلُّ نفسٍ لمَّا عليها حافظ

موضوع اللطيفة لهذا اليوم آياتٌ من سورة الطارق، وهي قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾ [1].

السؤال الأول:

ما علاقة هذه السُّورة بالسُّورة التي قبلها وهي سورة البروج ؟

الجواب: يقول الله عزَّ وجلَّ في آخر سورة البروج:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾ [2].

هؤلاء المشركون يكذِّبون، وهم بسبب جهلهم ينكرون، هم يكذِّبون بيوم القيامة ويرونه بعيداً، وينكرون أنَّ الله يحصي عليهم، وكيف يُحصي عليهم ربُّهم كلَّ شيء فعلوه من صغيرة وكبيرة ؟!

ولاحظوا كيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾،

---

[1] سورة الطارق: مكية، وترتيبها في المصحف: /٨٦/.

[2] سورة البروج: مكية، وترتيبها في المصحف: /٨٥/.

ولم يقل: (بل الذين كفروا في كذب)، فكأنهم في كَذب مِن ورائه كذب، من ورائه كذب... إلا ما لا نهاية، فهم يكذِّبون بيوم القيامة، ويكذِّبون بما يمكن أن يكون في يوم القيامة من حساب وإحصاءٍ على الناس ما قد فَعلوه من صغيرة وكبيرة، ويكذبون الأنبياء في كلِّ ما يقولون !

لكنَّ الله عزَّ وجلَّ أجابهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾.

أي إنَّ علمَه محيطٌ بهم، وبما فعلوه، سواء أكان هذا الذي فعلوه صغيراً أم كبيراً، حقيراً أم عظيماً.

بعدما ذكر الله عزَّ وجلَّ في ختام سورة البروج بأنَّه مُحيطٌ بالذين كفروا، تأتي سورةُ الطارق مُفتتحَةً بقوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ ... ... إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾.

و هاهنا تكمن الصِّلة الرابطة بين سورة البروج ومطلع سورة الطارق، إنَّها في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

لقد قال هؤلاء الكفار: إن كان هناك يوم للحساب فأين من سيُحصي علينا أعمالنا ؟!

جاء الجواب في السُّورة التي بعدها:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾.

هنا يبيِّن الله عزَّ وجلَّ معنى الآية: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾، ويشرحه ويفسِّره بالآية: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

جاءت (إن) هنا نافيةً بمعنى (ما) [٣]، فتكون (لَمَّا) بمعنى (إلا) [٤]، فيصبح المعنى: (ما كلُّ نفسٍ إلا عليها حافظ)، أي: وكَّلنا على كلِّ نفس حافظاً يُحصي عليها فعلَها وقولَها وحركاتها وسكناتها، وما يمكن أن يصدُر عنها من صغير أو كبير. ويكون إعراب الآية كما يلي:

إن: حرف نفي بمعنى ما.

كلُّ: مبتدأ.

نفسٍ: مضاف إليه.

لَمَّا: بمعنى إلا الاستثنائية التي تفيد الحصر.

عليها: جار ومجرور متعلقان بخبر مقدم.

حافظ: مبتدأ مؤخر.

وجملة (عليها حافظ) خبرٌ للمبتدأ (كل).

---

[٣] قال ابن منظور في "لسان العرب"، مادة (أ ن ن): وقد تكون (إنْ) زائدةً مع (ما) كقولك: ما إنْ يَقُومُ زيد، وقد تكون مخففةً من المشدَّدة؛ فهذه لابد من أنْ يدخلَ اللامُ في خبرها عوضاً مما حُذفَ من التشديد، كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نفسٍ لَّما عليها حافظٌ﴾.

[٤] وقال ابن منظور أيضاً في مادة: (ل م م)، عن (لَّما): بمعنى (إلاَّ) إذا أُجيب بها (إن) التي هي جَحْدٌ - أي نَفْيٌ- كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إن كلُّ نَفْسٍ لَّما عليها حافظٌ﴾ فيمن قرأ به، معناه: ما كل نفس إلاَّ عليها حافظ؛ ومثله قوله تعالى: ﴿وإِنْ كلٌّ لَّما جَميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرون﴾ يس: ٣٢ شدَّدها عاصم، والمعنى: ما كلٌّ إلاَّ جميع لدينا. وقال الفراء: (لَّما) إذا وُضِعت في معنى إلاَّ فكأنها (لَمْ) ضُمَّت إليها (ما)، فصارا جميعاً بمعنى (إن) التي تكون جَحداً فضموا إليها (لا)، فصارا جميعاً حرفاً واحداً وخرجا من حدِّ الجحد، وكذلك لَّما.

قلت: قول ابن منظور: "فيمن قرأ به" أي بتشديد (لَّما)، وهي قراءة ابن عامر الدمشقي وعاصم بن أبي النجود وحمزة بن حبيب، وقرأ الباقون (لَمَا) مخفَّفة. ويكون تقدير الكلام على قراءة مَن قرأ بالتشديد (لَمَّا): ما كلُّ نَفْسٍ إلا عليها حافظ. ويكون تقديره على قراءة من قرأ بالتخفيف (لَمَا): إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَعَلَيْها حافِظٌ.

السؤال الثاني:

لماذا يُقسم الله عزَّ وجلَّ بالسَّماء ولا يقسم بالأرض ؟

مع العلم بأنَّ القرآن الكريم يقسم بالسماء أكثر ممَّا يقسم بالأرض، وأنَّه قد يقسم بالسَّماء لوحدها، إلا أنَّه لا يقسم بالأرض إلا مقروناً بالقسم مع السماء:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [٥].

الجواب: يقسم الله عزَّ وجلَّ بالسَّماء، لأنَّ السَّماء كائنٌ لم يشتغل فيه الإنسان، فهو مَحضُ إنتاج لله عزَّ وجلَّ، لذلك يقسم الله بما خلق ولم يشاركه غيره في استثماره أو تحسينه، حتى لو كانت هذه المشاركة ظاهرية.

مع العلم أنَّ الله تعالى هو المتفرد بخَلق السَّموات والأرض جميعاً.

هذه الأرض يقوم الناس بتحسينها الآن، فإذا أقسم الله بالأرض فكأنما يقسم بما للناس دورٌ في تحسينه واستثماره، ولو كان هذه الدور ظاهرياً كما قلنا.

أمَّا السماء فهي باقية على خلق الله وكما فطرها الله، ولم يشتغل أحد بها أو يستثمر فيها، لذلك أقسم الله بها لأنها إبداعُ الله عزَّ وجلَّ في أصل خَلقها وفي استمرار وجودها.

---

[٥] الآيات: الذاريات: ٧. البروج: ١. الطارق: ١. الطارق: ١١-١٢. الشمس: ٥-٦.

السؤال الثالث:

ما هو هذا "الطارق" الذي يقسم به الله تعالى ؟

كلمة "الطارق" في اللغة العربية تعني: مَن يأتيك بليل[٦].

وكان رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يستعيذ بالله عزَّ وجلَّ: (**مِن شرِّ كلِّ طارق، إلا طارقاً يطرُق بخير**)[٧].

فما علاقة طارق السَّماء بالطارق الذي يأتي بليل ؟

الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾.

أتريد أن تعلم ما هو الطارق ؟

إنَّه النَّجم الثاقب، أي النَّجم المضيء، الذي يثقُب الظلام بضوئه، فشُبِّه النَّجمُ الثاقب بالطارق، وأُطلق عليه اسم الطارق، لأنَّ الطارق هو من يأتيك بليل، وهذا النَّجم الثاقب يطرق بصرَك بنُوره، ويطرق بنوره ظلمةَ الليل، ويثقُب هذه الظلمة، فهو طارقٌ بنُوره[٨].

---

(٦) قال عمر بن أبي ربيعة: أيها الطارقُ الذي قد عَنَاني ... بعدَما نامَ سامرُ الرُكبانِ

وقال عروة بن أُذينة: أَهلاً بِمُسراكَ أَقبِلْ غيرَ مُحتَشمٍ ... لا يُذهبُ النومُ حَقَّ الطارقِ السَّاري

(٧) أخرجه أحمد: ٤١٩/٣.

(٨) قال ابن حمدون البغدادي في كتابه "التذكرة الحمدونية": وقوله تعالى: ﴿والسَّماء والطارق * وما أدراكَ ما الطارق * النَّجمُ الثاقب﴾، الطارق: النجم،... وإنما قيل للنجم طارقٌ لأنَّ طلوعه بالليل، فكلُّ ما أتى ليلاً فهو طارق، لأنَّ الليل يُسكَن فيه. ومن هنا قيل: أطرق فلانٌ، إذا أمسك عن الكلام وسكن. والثاقب: المضيء، يقال له: ثقَب يثقُب ثُقوباً إذا أضاء. وقال الفيروزآبادي في "القاموس المحيط"، مادة (ث ق ب): ﴿النَّجم الثاقب﴾ المرتفع على النُّجوم.

السؤال الرابع:

ما دلالةُ تعبير ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ عندما يرد في القرآن الكريم ؟ وما الفرق بينه وبين ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ ؟

لقد ورد هذا السؤال ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ ثلاث عشرة مرةً في القرآن الكريم، ولو تتبَّعتم مواطن هذه الكلمة في القرآن لخلصْتُم إلى ما يلي:

كلمَّا ورد السؤال في القرآن الكريم بصيغة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فهذا يُشير إلى أنَّك ستُخبَر بعدُ بجواب هذا السؤال.

وإليك بعض هذه المواطن من القرآن الكريم:

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ [٩].

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ [١٠].

﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ [١١].

كلمَّا ورد سؤال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فهذا يعني أن الله عزَّ وجلَّ سيخبرك عن هذا الذي يسألك عنه.

---

[٩] الحاقة: ١-٤.

[١٠] القارعة: ١-٤.

[١١] الهمزة: ٤-٦.

إذن: ما فائدة السؤال ؟

إنَّ الغرض من السؤال تعظيمُ شأن المسؤول عنه، وهذا أيضاً هو سرُّ التكرار اللفظي، أو إعادة السؤال في معظم هذه الأسئلة.

أمَّا إذا قال القرآن الكريم: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلا تنتظر جواباً على السؤال، لأنَّ الجواب على السؤال غير مقدور عليه بالنسبة للإنسان [١٢]، أو غير مُرَاد بذاته؛ وإنَّما المرادُ لَفْتُ النظر إلى مسؤولية الإنسان أمام ما يُسأل عنه، وإلى واجبه تجاهه.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [١٣].

لَمْ يخبرك عن الساعة متى ستكون !

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [١٤].

لَمْ يخبره هل تزكّى وتذكّر أم لم يتذكّر.

أما حينما يقول: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فالله عزَّ وجلَّ سيخبرك عن هذا الذي يسألك عنه، لذلك قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾.

ثمَّ جاء الجواب بعدها بحقيقة الطارق: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾.

---

[١٢] كما في قول أبي العلاء المعري، يتحدث عن مآل الإنسان بعد الحساب:

وَما يُدريكِ باكِيَتي عَساني ... لِسُكنى الفَوزِ في الأُخرى اِنتُقيتُ.

[١٣] الأحزاب: ٦٣.

[١٤] عبس: ٣-٤.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾: هذا قَسَم، فالله عزَّ وجلَّ يُقسم بالسَّماء وبالطارق، لأنَّ السَّماء من إبداعه أصلاً واستمراراً، كما قلنا، وكذلك الطارق، هو مِنْ خَلْق الله تعالى وعنايته أصلاً واستمراراً.

ما المُقْسَم عليه؟ وما الذي يريد ربُّنا أن يؤكده فيُقْسم عليه؟

إنَّ هذا القسَم توطئة لتأكيد القضية التالية:

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

وهي موطن الرَّبط ما بين هذه السُّورة والسُّورة التي قبلها كما بيَّنا.

ومن لطائف التعبير القرآني هنا أنَّ الله عزَّ وجلَّ أتى بالنفي (إنْ) والحصر (إلا) ليعمَّ الأمر كلَّ نفس من دون استثناء، ولو قال ربي: (كلُّ نفس عليها حافظ)، لكانت إفادةُ التعبير للعموم والشمول أضعفَ.

ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، فأتى بالنفي والحصر، وهذا يفيد عند علماء اللغة العمومَ والإحاطة، فلم يعد هناك أيُّ احتمال للاستثناء، كما في الحديث الذي يرويه عديّ بن حاتم الطائي ﷺ: **(ما مِنكم مِنْ أحَدٍ إلا سيكلِّمه ربُّه)** [١٥].

فلو أنّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: (كلُّ واحد سيكلِّمه ربُّه)، لكان احتمال الاستثناء أو التقييد أو التَّخصيص وارداً عند المستمع.

ولكن لما استخدم الرَّسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أداة الحصر (إلا)، بعد

---

[١٥] متفق عليه. البخاري: كتاب الرقاق، باب مَن نُوقش الحساب عُذِّب. ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحثّ على الصدقة ولو بشقِّ تمرة.

أداة النفي (ما)، فقد أفادَ الإحاطة والحصر، فعلى المستمع أن لا ينتظر أيَّ استثناء.

وهنا أيضاً يقول الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

أي: لا تنتظر استثناءً، فأعمال كلُّ النفوس - على الإطلاق، وعلى الإحاطة، وعلى التأكيد - محفوظةٌ، فقد وكَّلنا بأفراد الإنسانية كافَّة وبأفراد المخلوقات حافظاً يُحيط بهم مِن ورائهم بأمر الله تعالى [١٦].

---

[١٦] قال ابن أبي الإصبع العدواني في كتابه "تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر"، عند تعريفه لفن "المماثلة" من علم البديع، قال: وهو أن تتماثل ألفاظ الكلام أو بعضها في الزِّنة دون التقفية، كقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وما أدراكَ ما الطارق * النَّجمُ الثاقبُ * إنْ كلُّ نفسٍ لَّما عليها حافظ﴾. فالطارق والثاقب وحافظ متماثلات في الزِّنة دون التقفية. أمَّا جلال الدين القزويني في كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة" فقد سمَّى هذا الفنَّ باسم "الموازنة"، وفرَّق ما بينه وبين المماثلة، فقال: .. الموازنة: وهي أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية، كقوله تعالى: ﴿ونَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ الغاشية:١٥-١٦. فإن كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ - أو أكثرُ ما فيها - مثلَ ما يقابله من الأخرى في الوزن خُصَّ باسم المماثلة، كقوله تعالى: ﴿وآتَيْناهُمَا الكتَابَ المُستَبِيْنَ * وهَدَيْنَاهُمَا الصِّراطَ المُسْتَقِيْمَ﴾ الصافات:١١٧-١١٨.

من لطائف سورة الزُّمر

وسِيقَ الذين اتَّقوا ربهم إلى الجنَّة زُمراً

موضوع اللطيفة لهذا اليوم آيات من سورة الزُّمر، وهي قوله تعالى:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [1].

السؤال الأول:

عندما تحدث القرآن الكريم عن دخول الكافرين لجهنم جاء بكلمة ﴿فُتِحَتۡ﴾، أمَّا عند الحديث عن دخول المؤمنين للجنة فقد جاء بكلمة ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ بإضافة الواو، فما الفرق بينهما ؟

الجواب: إنَّ من أسماء ربِّنا سبحانه وتعالى (المحسن)، ولما قال الله عزَّ وجلَّ:

---

[1] سورة الزُّمر: مكية، وترتيبها في المصحف /٣٩/.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، فقد دلَّ هذا على أنَّ جهنم لم تفتح أبوابها إلا حين وصلَ إليها الذين استحقوا العذاب، ولم تُفتح أبوابها قبل أن يأتوها. فكلمة ﴿فُتِحَتۡ﴾ جواب شرط غير جازم: (إذا).

بينما قال الله عزَّ وجلَّ في الآية الأخرى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾: الواو هنا واو الحال [٢]، أي: جاؤوها حال كونها مفتوحةَ الأبواب، فالجنَّة مفتوحةُ الأبواب للمؤمنين من قبل أن يأتوها، وهذا غاية في الإكرام والرحمة.

---

[٢] قال عبد القادر البغدادي في "خزانة الأدب": ... ذهب الكوفيون إلى أن الواو العاطفة يجوز أن تقع زائدة، وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش، وأبو العباس المبرِّد، وأبو القاسم ابن برهان من البصريين. وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز. واحتج الكوفيون بقوله تعالى: ﴿حتَّى إذا جَاؤوهَا وفُتحت أبْوابُها﴾، قالوا: "فُتحت" جواب إذا، والواو زائدة... وبقوله تعالى: ﴿حتَّى إذا فُتحت يأجوجُ ومأجوجُ وهم مِنْ كلِّ حَدَبٍ ينسلون * واقتربَ الوعدُ الحقُّ﴾ الصافات:٩٦-٩٧، "اقترب" جواب إذا، والواو زائدة،... وأجاب البصريون عن الآية الأولى بأنَّ التقدير: "حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها فازوا ونَعموا... وإنما حُذف الجواب في هذه المواضع للعلم به، توخياً للإيجاز؛ وقد جاء حَذْفُ الجواب، قال تعالى: ﴿ولو أنَّ قُرآناً سُيِّرتْ به الجبال أو قُطِّعتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى﴾ الرعد:٣١، التقدير: لكانَ هذا القرآنَ... وحَذْفُ الجواب أبلغ، لتذهب النفسُ إلى كلِّ مذهب ممكن.

وفي "الكشكول" لبهاء الدين العاملي، في حديثه عن وجوه رجحان التعريض على التصريح، فذكر منها: ... أنَّه ليس للتصريح إلا وجه واحد، وللتعريض وجوهٌ كثيرة وطرق عديدة. وعلى هذا الوجه حَذْفُ أجوبة الشروط المقتضية للثواب والعقاب في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿حتَّى إذا جَاؤوهَا وفُتحت أبْوابُها﴾، وقوله سبحانه: ﴿ولو ترَى إذ وُقِفُوا على النَّار﴾ الأنعام:٢٧، وأمثال ذلك كثيرةٌ.

وكذلك فَتْحُ أبوابِ جهنَّم للكافرين لحظةَ وصولهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ هو أيضاً غاية في الرحمة، فلم يفتح اللّٰهُ الأبواب للكافرين سلفاً حتى لا يسمعوا بجهنم وما فيها وما يخرج منها، فالرحمة واردةٌ حتى في العذاب، فالعذاب بقدْر ولكنَّ الرحمة واسعة، والكريمُ يعجِّل المثوبة ويضاعفها، ويؤخِّر العقوبةَ ولا يظلم فيها.

السؤال الثاني:

قال اللّٰه عزَّ وجلَّ في الآية الأولى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، بينما قال هنا: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾.

فلماذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾، ولم يَقُل: (الذين آمنوا)، في مقابل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ؟

الجواب: لقد وضعَ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ بينهم وبين ربِّهم وقاية، وهذه الوقاية هي الطاعة.

هم وضعوا الطاعة وقايةً بينهم وبين غضب ربِّهم، كما وضعُوها أيضاً بينهم وبين عطاء ربِّهم.

الوقاية ليست للمَنْع مُطلقاً، وإنَّما هي للمَنع وللاستجلاب، فهي لمنع الذي لا أحبُّ، وهي لِجَلْب الذي أحبُّ أيضاً.

ولذلك قال لهم خزنة الجنَّة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

أمَّا الكافرون فماذا قيل لهم ؟

لقد قال لهم خزنة النَّار: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

يقول بعض المفسرين: إنَّ كلام الذين كفروا قد انتهى عند كلمة ﴿بلَى﴾، وأنَّ ما بعدها هو من قول الملائكة الخزنة، بقرينة أنه يشير إلى الكافرين بصيغة المخاطَب.

ولكنِّي أميل إلى رأي من يقول: إنَّ هذا القول من كلام الذين كفروا.

السؤال الثالث:

لماذا قال ربِّي عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، ولم يقل: (حَقَّ العذابُ على الكافرين) ؟!

الجواب: لكل كلمة في اللغة دلالتان: دلالة نظرية ودلالة واقعية، وإذا لم يكن للكلمة دلالة واقعية "وجودية" فليس لها قيمة.

عندما أقول مثلاً كلمة "الرجل" فإنَّ لها دلالة نظرية، إذ أتخيل الرجل وصفاته، ولها أيضاً دلالة واقعية عندما أشير إلى معيَّن فأقول: هذا الرجل وهذا الرجل ... إلخ.

لذلك تسمى "أل" التعريف في كلمة "الرجل" في اللغة بـ "أل العهدية الذهنية"، أو العهدية الوجودية "الواقعية".

ومن هذا الباب نسأل بعض الناس أحياناً: ألا توجد في قواميسكم ولغاتكم كلمة "إله" ؟ والجواب: نعم.

عندها نقول: إذن، يجب أن يكون لهذه الكلمة "إله" دلالتان: نظرية وواقعية، فما هي صفات الإله عندكم، ومن هو الإله الحقُّ ؟

لابدَّ أن تأخذ هذه الكلمة حقَّها في دلالتيها النظرية والواقعية، ودلالتها الواقعية تقتضي أن يكون هناك رَبٌّ يُعبَد ويتوجه إليه بالطاعة.

وكذلك الأمر في قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فكلمة العذاب يجب أن تأخذ حقَّها، ولا يجوز لشخص ما أن يقول: ليس هناك عذابٌ، وإنما هي رحمة.

نحن نقول: ما دامت كلمة "الشرِّ" لها دلالتها النظرية والواقعية، وما دُمتَ أنت أيها الإنسان غير مجبَر على أن تدخل في دائرة دلالة كلمة "الشرِّ" الواقعية عليك: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [٣].

ما دام الأمر كذلك فإنَّ كلمات الثواب والعقاب، والنعيم والعذاب يجب أن تأخذ حقَّها في البعد الواقعي كما في البعد النظري.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أخذت كلمة العذاب حقَّها في دلالتها الواقعية في هؤلاء الكافرين، لأنَّهم رضُوا لأنفسهم أن يكونوا الدلالة الوجودية لها.

لقد جسَّد الذين كفروا هذه الدلالة لكلمة العذاب، كما جسَّد هؤلاء الذين دخلوا الجنة الدلالة الواقعية لكلمة التقوى [٤]، ولذلك حقَّت كلمة النعيم على

---

[٣] الشمس: ٧-٨.

[٤] قال الله تعالى: ﴿فأنزل اللهُ سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين وألزمَهم كلمةَ التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلَها﴾ الفتح:٢٦.

المتقين، كما حقّت كلمة الشرِّ على الأشرار، وحقّت كلمة الخير على الأخيار، وحقّت كلمة العلم على العلماء، وحقّت كلمة الجهل على الجاهلين ... إلخ. فكل كلمة يجب أن تأخذ دلالتها وأبعادها النظرية والواقعية جميعاً.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

لقد اعترف الكافرون بما اقترفوا، ولو استجابوا لرسلهم لحقّت عليهم كلمة النَّعيم، ولكنهم كذَّبوا الرسل فحقّت عليهم كلمة العذاب وحقَّ عليهم وعيد الله.

نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يوفِّقنا لاختيار تجسيد كلمة النَّعيم وكلمة الخير وكلمة الفضيلة، إنَّه على ما يشاء قدير.

من لطائف سورة المائدة

يا أيها الرَّسول بلِّغ ما أنزل إليك

موضوع اللطيفة لهذا اليوم قوله تعالى في سورة المائدة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [1].

السؤال:

ما معنى كلمة ﴿بَلِّغْ﴾ ؟ وما هو التبليغ الذي على أساسه كانت الرسالة ؟

لقد قلّبت كثيراً من الكتب والصفحات، ووقعت في النهاية على المعنى التالي:

﴿بَلِّغْ﴾: أي أوصل يا مُحَمَّدْ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) مضمونَ هذا الذي أمرناك بإيصاله إلى الناس، ولن يكون هذا التوصيل تبليغاً إلا بثلاثة شروط:

١- احتمال الأذى.

٢- ألا تكون معه سطوة.

٣- أن يكون من غير ضجر.

فإذا لم ترافق هذه الشروط الثلاثة ذاك الإيصال الذي ستوصله إلى الناس لم يحصل التبليغ.

---

[1] المائدة: ٦٧.

فيا مُحمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم): إن أوصلتَ هذا الذي أُمرت بإيصاله، من غير أن تتحمَّل ما تلقاه من أذى الناس فلستَ بمُبلِّغ !

وإن أوصلتَ هذا الذي أُمرت بإيصاله بسطوة وقهر فلست بمُبلِّغ كذلك !

وإن ضَجرت وأنت توصل هذا الذي أُمرت بإيصاله فلستَ بمبلِّغ أيضاً.

ماذا قال الله عزَّ وجلَّ لموسى وهارون عليهما الصَّلاة والسَّلام من أجل أن يكونا مُبلِّغين ؟

لقد قال لهما: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [٢].

يا موسى ويا هارون: إن لم يكن الإيصال بقَول لَيِّن فليس هذا بتبليغ.

وكذلك قال الله تعالى لنبيِّه المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم:

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [٣].

﴿لِنتَ لَهُمۡ﴾: لمن ؟ للناس كافَّةً؛ للمبلَّغين !

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: **(كأنِّي أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربَه قومُه، وهو يمسحُ الدَّم عن وجهه ويقول: ربِّ اغفرْ لقومي فإنَّهم لا يعلمون)** [٤].

---

[٢] طه: ٤٣-٤٤.

[٣] آل عمران: ١٥٩.

[٤] أخرجه بهذا اللفظ مسلم: كتاب الجهاد والسِّير، باب غزوة أحد.

يتحمل أذاهم، ويدعو لهم... لأنّه مُبلِّغ.

ولمّا غضب ذو النُّون عليه السلام عاتبه ربّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٥].

التبليغ هو: إيصال هذا الذي أُمِرْتَ بإيصاله باحتمال للأذى، ومن غير سطوة، ومن غير ضجَر. فإن كان مع الإيصال عدم تحمّل أو كانت معه سطوةٌ أو ضجَر فلستَ بمبلِّغ، وقد ضربَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم لنا أروعَ الأمثلة وأصدقَها في هذا الميدان.

﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾: أي إنْ لم تقم بالتبليغ بكل أبعاده وأركانه فما بلّغت الرسالة، وبالتالي انتفت عنك الرَّسوليَّة أو الرِّساليَّة، لأن الرِّسالة مضمونها التبليغ.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾: يُطمئن الله عزَّ وجلَّ نبيَّه، وكأنَّ لسان حال النبيِّ المأمور بالتبليغ يقول: أنا سأتحمل، ولكن ربما تجاوزت ردة فعل الناس - تجاهَ دعوتي إيَّاهم - الحدَّ المعتاد، فتناولوا جسمي فقتلوني. لكنَّ الله عزَّ وجلَّ يُطمئنه: ما دمتُ قد أمرتك بالتبليغ بهذا الشكل، فأنا سأتولاك وسأعصمك من أن ينالك القتل.

---

[٥] الأنبياء: ٨٧-٨٨.

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: من القتل، أمَّا منَ الإيذاء فلا عصمة، بل يجب عليك أن تتحمَّله، وهذا التحمُّل ركنٌ من أركان التبليغ !

لقد أوذيَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ عصم نبيَّه من أن يناله القتل، وجعل تلك العصمة مؤيداً له من أجل أن يقوم بالتبليغ.

وكذلك فعَلَ مع موسى وهارون عليهما السَّلام: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [٦].

أنتما معصومان من أن ينالكما قتل أو إماتة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: إنَّ الله لن يُعين القوم الكافرين على أن يحقّقوا غايتهم في قتلك يا مُحمَّد ﷺ.

هم سيردُّون عليك بقسوة، ولكنهم بمعزل عن معونة الله، وإذا قام العبد بفعلٍ ما بمعزل عن معونة الله عزَّ وجلَّ فلن يحقّق غايته، لأنَّ الذي يحقّق الغاية مهما كانت هو الله عزَّ وجلَّ:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [٧].

أمَّا لماذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، ولم يقل: (يا أيُّها الرسول بلِّغ ما أنزلناه إليك) ؟! أي: لماذا جعل الفعل (أنزل) مبنيًّا للمجهول ؟

---

[٦] طه: ٤٥-٤٦.

[٧] الإسراء: ٢٠.

فإنَّ الجواب عندي: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يخاطب أنبياءَه في القرآن الكريم من خلال الواقع المحسوس، وهذه نقطة هامة جداً في فنيَّة الخطاب.

لذا جاء الخطاب بصيغة الماضي المبنيِّ للمجهول، والتي تفيد هنا الإحالة على أمر قد أصبح واقعاً لا شكَّ في وجوده، ليقول للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: بلِّغ هذا الذي بين يديك، والذي أُنزل وانتهى إنزاله، والذي توصَّلت بقناعتك إلى أنَّه من ربِّك.

فلا خطابَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إلا من خلال الواقع الملموس، ولا تكليف إلا بما هو ممكن ومقدور.

من لطائف سورة البقرة

يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام

يقول الله تعالى في سورة البقرة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾.

السؤال الأول:

لِمَ فرض الله عزَّ وجلَّ الصِّيام بكلمة ﴿كُتِبَ﴾ ؟

لماذا استخدم القرآن هذه الكلمة، ولم يقل (فُرض)، ولماذا كان الفعل بصيغة المبنيِّ للمجهول ؟

من المعلوم أننا إذا استقرأنا القرآن الكريم وجدنا أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد فرضَ علينا أموراً ثلاثة فقط بكلمة ﴿كُتِبَ﴾.

قال تعالى:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [١].

٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [٢].

---

[١] البقرة: ١٧٨.

[٢] البقرة: ١٨٣.

٣- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [٣].

وهناك فريضةٌ رابعة هي الوصيَّة، جاء الأمر بها بالكلمة نفسها ﴿كُتِبَ﴾، إلا أنني لا أتناولها بالبحث هنا لاختلاف العلماء فيها، وقولِ أكثرهم إنها منسوخة، وقد وردت في قوله تعالى:

٤- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [٤].

لقد فرضَ الله عزَّ وجلَّ علينا هذه الفرائض الثلاث دون غيرها بكلمة ﴿كُتِبَ﴾، وتلاحظون أيضاً أنَّ الفعل ﴿كُتِبَ﴾ استُخدم بصيغة المبنيِّ للمجهول، فما الذي يمكن أن نفهمه من هذه الدلالات في هذه الآية ؟

بعد الاستقراء والبحث تبيَّنت لي عدَّة وجوه لطيفة لهذه الكلمة، منها:

١- اقتضت سنَّة الله تعالى أنَّه عندما يَفرض على أمَّة من الأمم، عبر نبيٍّ من الأنبياء عليهم السَّلام، أمراً شاقّاً لا تتجلَّى فيه واضحةً ملامحُ منفعةٍ أو رغبةٍ يتطلَّع إليها الإنسان، بل تتجلَّى فيه المشقة، وتكاد هذه المشقة تغطِّي على سيماء هذه الفريضة... فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يفرضه بكلمة ﴿كُتِبَ﴾.

مثلاً، عندما أقول لولدي: اذهب إلى دمشق وأحضر الأمر الفلاني. وهذا الأمر لا يهمُّ ولدي، والذهاب إلى دمشق فيه مشقة، فإنِّي أقول له حسماً للمسألة: الأمر أُبرم، ولا نقاش، فاذهب إلى دمشق.

---

[٣] البقرة: ٢١٦.

[٤] البقرة: ١٨٠.

أنا أعلم أنه سيسألني: ما الفائدة ؟ ولذلك أقول له سلفاً: قد كُتب الأمر عليك فلا تناقشني.

وعندما يفرض الله عزَّ وجلَّ علينا أمراً شاقاً بالنسبة إلينا، ولا منفعةَ تتجلى ظاهرةً فيه أو تُلمح منه، فإنَّه يقول لنا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ ليُفهمنا أنَّ الأمر قد أبرم وأُمْضيَ [٥]، ولا يسعُ المكلَّف إلا الامتثال [٦].

تأتي ﴿كُتِبَ﴾ إذن لتكلِّفنا بالفريضة المكروهة بالنسبة للنفس، فالصيام لا تحبُّه النفس، وكذلك القصاص والقتال لا تحبُّهما النفس البشرية، وهذا

---

[٥] قال الراغب الأصفهاني في "مفردات غريب القرآن": ويُعبَّر عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرْض والعَزْم بالكتابة، ووَجْهُ ذلك أن الشيء يُرَادُ ثم يُقالُ ثم يُكْتَبُ، فالإرادةُ مَبْدأ والكتابةُ مُنتهىً. ثم يُعبَّر عن المراد الذي هو المبدأ إذا أُريد توكيدُه بالكتابة التي هي المنتهى، قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي﴾ المجادلة:٢١ ... وقولُه تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أنَّ النفس بالنفس﴾ المائدة:٤٥، أي أوحَيْنا وفرَضْنا. وكذلك قولهُ تعالى: ﴿كُتب عليكم إذا حضرَ أحدَكم الموتُ﴾، وقولهُ تعالى: ﴿كُتب عليكم الصيام﴾... ويُعبَّر بالكتابة عن القضاء المُمْضى وما يَصير في حُكْم المُمْضى.

[٦] يقوِّي هذا المعنى قولَ من قال: إنَّ آية الوصية غير منسوخة بآيات المواريث، فإنَّ فَرْضَها بقول الله تعالى: ﴿كُتب عليكم﴾ يوحي بدلالات تتعارض والنسخَ، وهي دلالات الإبرام والإمضاء. إلا أنَّ آيات المواريث أخرَجت من آية الوصية – على سبيل بيان المجمل وتفسيره لا على سبيل النسخ – أصنافَ الوارثين المعروفة، وتركت من عداهم. والوصيةُ للأقربين غير الوارثين عند من يقول بعدم النسخ: واجبة، لا مستحبَّة. ويؤيدون مذهبهم بقوله تعالى مع آيات المواريث: ﴿وإذا حضرَ القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكينُ فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ النساء:٨. وفسَّروا الحضور في قوله تعالى: ﴿وإذا حَضرَ القسمةَ أولوا القربى﴾ بالوجود أحياء، وإن لم يحضروا القسمة نفسها. قال السَّمين الحلبي في كتابه "عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ": قوله تعالى: ﴿وإذا حضر القسمةَ...﴾، أي وُجدوا في وقتها، فاحبروا خواطرهم ببعض شيء. وممن ذهب إلى هذا القول من المعاصرين العلامة اللغوي الفقيه الشيخ عبد الله العلايلي رحمه الله تعالى، في كتابه "أين الخطأ ؟ تصحيح مفاهيم ونظرة تجديد".

ما صرَّحت به آية القتال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾.

٢- لمْ يفرض الله تعالى من الفرائض بلفظ ﴿كُتِبَ﴾ إلا تلك الفرائض التي قد تشترك في صورتها مع عادات الناس، فجاء الأمر بها بهذا اللفظ المخصوص تأكيداً على أهميَّتها، وعلى ضرورة تمييزها عمَّا يُشبهها من أفعال الإنسان، ولا يكون ذلك إلا بتمحيص النيَّة فيها، ومراقبة الله تعالى في أدائها.

وبعبارة أخرى: إنَّ المراد من هذه العبادة أو هذه التكاليف نيَّتها، ولا يُراد منها صورتها ابتداءً، لأنَّ احتمال وقوع صورتها حاصل بقوة، وإن لم يكن هناك تكليف؛ فالقتال واقع بين الناس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين.

والصيام سيقع أيضاً لأن الإنسان بطبعه يصوم، وها هم الناس اليوم يصومون لما يسمى بـ "الريجيم". وكذلك القصاص واقع، لأنَّ الناس سيقتصُّون من بعضهم سواء أكانوا مسلمين أم لا.

لكنَّ الصلاة لن تقع صورتُها إذا كنَّا غير مسلمين، فهي قضية غير واقعية بطبيعتها، فإذا لم يفرض ربُّنا علينا الصلاة بصورتها هذه فلن نصلِّي بهذه الطريقة، لذلك كان المراد من الصلاة نيَّتها وصورتها معاً.

وهذا بخلاف الصِّيام والقصاص والقتال كما قلنا، فهي واقعةٌ بطبيعة الحال، لأنها أمور طبيعية تكوينية. ولكنَّ الإسلام جاء ليجعل من هذا الصِّيام الذي تصومه خالصاً لله عزَّ وجل، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(مَن صامَ رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّم مِنْ ذَنبه)** [٧].

---

[٧] متفق عليه. البخاري: كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان. ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان.

وكذلك جاء الإسلام ليجعل القتال - حالَ وقوعه - خالصاً لله تعالى، بعيداً عن رغبات البشر الدنيئة، ولذلك ورد عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: (**مَن قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله**) [٨].

وأمَّا القصاص فأراده الإسلام ألا يكون انتقاماً وإنَّما حفاظاً على حُرُمات الله عزَّ وجلَّ، ولذلك دعا إلى العفو عن الحقوق الشخصية، فقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (**تعَافوا الحدودَ فيما بينكم، فما بلَغني مِن حدٍّ فقد وجبَ**) [٩].

٣- قلنا إنَّ القرآن الكريم قد استخدم الفعل الآمر بالصيام بصيغة المبنيِّ للمجهول فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

لقد أضمر الفاعل الذي كتبَ الصيامَ نفسه فلم يظهر، وحلَّ نائب الفاعل وهو الصِّيام محلَّه ظاهراً، ولا شك في أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الفاعل، لكنه استغنى عن التصريح بالفاعل لأنَّه تعالى يظهر الفاعل عندما يكون الأمر رحمةً في حقيقته وفيما يبدو للناس معاً، علماً أنَّ كلَّ أوامر الله تعالى رحمةٌ، ولكنَّ الأمر قد يكون ظاهرُه شاقاً على النفس المأمورة أحياناً، وعندها يخفي الله عزَّ وجلَّ الفاعل، وهذا من أسلوب الحكيم.

أنا أقول لك مثلاً: (أعطيتك الأمر الفلاني) عندما يكون الأمر نافعاً لك أو محبباً إليك، ولكني أقول: (فُرِضَتْ عليك العقوبة)، مع العلم أنني أنا الذي فرضت عليك العقوبة، ولكني أعدل إلى استعمال صيغة المبني للمجهول،

---

[٨] متفق عليه. البخاري: كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا. ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

[٩] أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب العفو عن الحدود. والحاكم: ٣٨٣/٤. ووافقه الذهبي على تصحيحه.

وهذا من أسلوب الحكيم كما قلنا، وهو من أسرار التعبير بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ في الآيات والفرائض السابقة [١٠].

السؤال الثاني:

لماذا عبَّر الله تعالى عن الفريضة باسم الصِّيام، وما الفرق بين الصِّيام والصَّوم ؟

١- لاحظوا من باب الشكليات أنَّ الصِّيام والقصاص والقتال على نفس الميزان الصرفي، فالصِّيام مصدر على وزن (فِعَال)، وكذلك القصاص والقتال. وكلُّ ما كان على هذا الوزن من المصادر فإنَّه يشير إلى وقوع الفعل بين طرفين على سبيل الاشتراك والمغالبة.

فكما أنَّ القتال والقصاص يتعلقان بالآخر على سبيل الاشتراك، ولا يمكن أن يكونا إلا إن كان هناك طرف آخر، فكذلك الصيام، هو عبارةٌ عن علاقة فيما بيني وبين نفسي على سبيل الاشتراك والمغالبة.

وبعبارة أخرى: هو مغالبة بين نفسي المؤتمرة بأمر الله عزَّ وجل ونفسي

---

(١٠) أمّا إذا كان المكتوب أو المأمور به محبَّباً إلى النفس فسوف يكون التعبير بصيغة ﴿كَتَبَ﴾، كما في قوله تعالى في أحكام الصيام أيضاً: ﴿فالآن باشروهنَّ وابتغوا ما كَتَبَ اللهُ لكم﴾ البقرة:١٨٧، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ربكم على نفسه الرَّحمة﴾ الأنعام:٥٤، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ الله لأغلبنَّ أنا ورسلي﴾ المجادلة:٢١. ولا يُشكِل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لن يُصيبنا إلا ما كَتَبَ الله لنا﴾ التوبة:٥١، فما كتب هنا يتناول كلَّ ما يصيب الإنسان من خير أو مصيبة. وقال السمين الحلبي في "عمدَّة الحفاظ": وفي قوله تعالى ﴿لنا﴾ دون "علينا" معنى لطيف ذكره العلماء، وهو أنَّ فيه تنبيهاً أنَّ ما يصيبنا نعدُّه نعمةً علينا، فلا نعدّه نقمة. وأمَّا قوله تعالى: ﴿ولولا أن كَتَبَ الله عليهم الجلاء لعذَّبهم﴾ الحشر:٣، فمؤيدٌ للمعنى الذي ذكرناه، فإنَّ الجلاء وإن كان نقمةً وعذاباً على من كُتِبَ عليهم، فإنَّه كان نعمةً في حقِّ المُخاطَبين، لذا ناسب أن يعبَّر عنه بصيغة ﴿كَتَبَ﴾.

الأمَّارة بالسوء، وكأني في سجال ومعركة بين نِدَّيْن، فنفسي الأمَّارة بالسوء تُزيِّن لي شهوات الطعام والشراب وغيرها، وتأمرني بترك الصيام، بينما تحذِّرني نفسي الرَّضية أو المطمئنة من تلك المغريات وتنهاني عن اقترافها، ولذلك كان الصيام صياماً أي فِعالاً.

٢- للفعل "صام" مصدران. نقول: صام يصوم صوماً، وصام يصوم صياماً، فما الفرق بين هذين المصدرين ؟

بحثت عن الفرق بينهما ووصلت إلى أنَّ:

الصِّيام يعني الامتناع عن المفطرات الحسيَّة، من طعام وشراب وجماع.

وأمَّا الصَّوم فهو الامتناع عن المفطرات المعنوية، من لغو وكذب وغيبة ونميمة وشتم... إلخ.

ولذلك سُمِّيَ الامتناع عن الكلام "صوماً"، ولا يسمَّى صياماً لأنَّه امتناع عن أمر معنوي، وهذا ما ورد على لسان السَّيِّدة مريم عليها السَّلام في القرآن الكريم: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [١١].

وقال النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: **(فإذا كانَ يومُ صَوم أحدكم فلا يَرْفُث ولا يَصْخَب؛ فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتلَه فليقُل: إنِّي امرؤٌ صائم)** [١٢].

وبما أنَّ الأمر جاء باسم الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

فإنَّ المفروض علينا هو الامتناع عن المفطرات الحسيَّة مِنْ طعام وشراب وجماع،

---

[١١] مريم: ٢٦.

[١٢] متفق عليه. البخاري: كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شُتم. ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام.

فإذا صُمنا صياماً فقد أجزأنا ذلك عن الفريضة، أمَّا إذا أردنا أن نعرف فيما إذا حقَّق الصِّيام المفروض علينا غايتَه أم لا، فلننظر: هل تحقَّقنا بالصوم ؟ فـ "غاية الصِّيامِ صَومٌ"، وهذا معيار.

فإذا صُمتَ صياماً وتحقَّقت بالصَّوم فأنت نِعْمَ الصائم !

أمَّا إذا صُمت صياماً، دون أن تتحقَّق بالصَّوم، فاغتبتَ أو كذَبتَ أو نممتَ أو شاتمتَ، فأنت من الذين يدخلون في قوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (**رُبَّ صائم حظُّه مِنْ صيامه الجوعُ والعطش**) [١٣].

ومن فضل الله علينا أنْ فرض علينا الصِّيام ولم يفرض الصَّوم، وإنما ترك الصوم غايةً نسعى من أجل التحقُّق بها، وميداناً للتسابق والتنافس فيه إرضاءً لله عزَّ وجلَّ.

وتصوَّروا معي لو أنَّ الله عزَّ وجلَّ فرض علينا الصِّيام والصَّوم معاً، أي الامتناع عن المفطرات الحسيَّة والمعنوية، فهل نستطيع أن نصوم عندها ؟

أعتقد أننا لن نستطيع.

نحن نصوم في رمضان صياماً لنتحقَّق بالصوم في رمضان وفي غير رمضان، وعلى كلِّ واحد منَّا أن يحاسب نفسَه في كلِّ يوم يصومه قبل أن يُفطر فيما إذا كان قد صام صياماً وصوماً، أم صام صياماً فقط.

وأظنُّ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لما قال: (**مَن صامَ رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّم مِنْ ذَنبه**) فإنَّ المراد به مَن صام صياماً وصوماً.

وكذلك الأمر في الحديث الذي يقول فيه صلى الله عليه وآله وسلم: (**مَنْ**

---

[١٣] أخرجه بلفظه أحمد: ٢/٣٧٣. وأخرجه ابن ماجة مختصراً: كتاب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم.

صام يوماً في سبيل الله بعَّد اللهُ وجهَه عن النار سبعين خريفاً) [١٤]، فهل يُعقل أن يكون هذا الأجر لمن صام صياماً فقط ؟

ما أظنُّ أنَّ الأمرَ كذلك، بل هو لمن صام صياماً وصوماً معاً.

فهل نتحقق بالصَّوم بعد الصيام ؟!

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: هذا تخفيفٌ لنا، فكأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول لنا: لستم أنتم فقط مَن فرضت عليهم هذا الأمر الشاقَّ، ولكنِّي كتبته عليكم كما كُتب على الذين من قبلكم.

﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾:

هذا تصريح بحكمة الأمر. أي: لعلكم تخلصون لي في عبادتي.

فكأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول لنا: أنا سأفرض عليكم أمراً شاقّاً، لا تتجلَّى فيه بدايةً منفعةٌ بالنسبة لكم.

أسألتمْ لماذا ؟

من أجل أن تعبدونني على سبيل الإخلاص؛ من أجل أن تعبدونني على أنني ربُّكم وإلهكم !

ولو كانت المنفعة ظاهرةً لكم في هذا الأمر المفروض عليكم لكان أثر هذه الفريضة في تمحيص قلوبكم للتقوى أضعفَ، وكذلك دَوْرُها في تمييز المتقين من غيرهم.

---

[١٤] متفق عليه. البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الصوم في سبيل الله. ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله.

لذلك قال الله تعالى في هذه الفريضة ما لم يَقُلْه عند غيرها: ﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾.

أي: من أجل أن تكون عبادتكم خالصةً لي بدافع الحبِّ، وليس بدافع المنفعة أو أيِّ أمرٍ آخر يلوح لكم خَيرُه.

من لطائف سورة البقرة

أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفَر

يقول الله تعالى في سورة البقرة، في الحديث عن فريضة الصِّيام:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ﴾ [1].

السؤال الأول:

يقولون في إعراب ﴿أَيَّامًا﴾: مفعول فيه ظرف زمان. و ﴿مَّعْدُودَاتٍ ۚ﴾: نعتٌ لها. والتقدير: كُتب عليكم أن تصوموا أياماً معدودات [2].

---

[1] البقرة: ١٨٤.

[2] قال أبو حيان الأندلسي في "البحر المحيط": وانتصاب قوله: ﴿أياماً﴾ على إضمار فِعْلٍ يدلُّ عليه ما قبله، وتقديره: صوموا أياماً معدودات. وقال العكبري في "التبيان في إعراب القرآن": قوله تعالى: ﴿أياماً معدودات﴾: لا يجوزُ أن ينتصبَ بِمَصْدَر ﴿كُتب﴾ الأولى، لا على الظرف، ولا على أنه مفعول به على السَّعَة؛ لأنَّ الكاف في ﴿كما﴾ وَصْفٌ لمصدر محذوف، والمصدرُ إذا وُصِف لم يَعْمل، وكذلك اسْمُ الفاعل. ولا يجوز أنْ ينتصبَ بالصيام المذكور في الآية؛ لأنه مصدر، وقد فرَّق بينه وبين أيام بقوله: ﴿كما كُتب﴾، ويَعمل فيه المصدر كالصِّلَة، ولا يُفرَّق بين الصلة والموصول بأجنبيّ... والوَجْهُ أن يكون العاملُ في أيام محذوفاً تقديره: صومُوا أيَّاماً؛ فعلى هذا يكون ﴿أياماً﴾ ظرفاً؛ لأنَّ الظرف يعمل فيه المعنى. ويجوز أن ينتصب ﴿أياماً﴾ بـ ﴿كُتب﴾؛ لأنَّ ﴿الصيام﴾ مرفوع به، و ﴿كما﴾: إمَّا مَصْدَر لـ ﴿كُتب﴾ أو نَعْت لـ ﴿الصيام﴾، وكلاهما لا يمنع عَمَلَ الفعل، وعلى هذا يجوز أن يكون ظرفاً ومفعولاً به على السَّعَة.

والسؤال: لماذا قال الله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، ولم يقل: (كُتب عليكم الصيام شهراً)، مع أنَّ المفروضَ صيامُه شهرٌ كاملٌ هو شهر رمضان ؟

الجواب:

هنالك حِكَمٌ كثيرة، والله أعلم، ومن هذه الحِكَم أنَّ الله عزَّ وجلَّ أراد أن يزرع في ذهن الإنسان الصائم أنَّ كلَّ يوم هو كينونة مستقلة، وأن يجعل لكلِّ يوم عبادةً قائمة بذاتها.

ولو أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: (كُتب عليكم الصيام ... شهراً)، فربما قال مَن قال: مَن صام أغلب الشهر كمَن صام الشهر... هذا أولاً.

ولاعتبرَ الإنسانُ الصائم ثانياً أنَّ العبادة تتوجَّه إلى الشهر كلِّه على أنَّه كينونةٌ قائمة بذاتها.

لكنَّ الله عزَّ وجلَّ كرَّم شهرَ رمضان فقال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

أي جعل كلَّ يوم من أيَّامه كينونة مستقلةً قائمة بذاتها، فعليك أيها الإنسان الصائم أن تعدَّ كلَّ يوم بيومه، وأن تجعل من كل يوم كينونة متفرِّدة، وكأن الله عزَّ وجلَّ يقول لك: (يا عبدي. صُمْ كلَّ يوم على أنَّه هو وحدَه فَرْضُ الصِّيام).

فلو أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال لنا على سبيل المثال: (كُتب عليكم الصيام يوماً واحداً)، فكيف كنَّا سنعتني بهذا الصيام عندما يكون يوماً واحداً ؟

لا شكَّ في أنَّنا سنعتني بهذا اليوم اعتناء شديداً فائقاً، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ لنا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ... أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

أي اعتبروا صيامكم لكلِّ يوم على أنَّه هو اليوم الذي فُرض عليكم،

وعليكم أن تعتنوا بأيام الشهر جميعاً كما لو أنها فُرضت عليكم يوماً واحداً.

ويتفرَّع عن هذا في رأيي أنَّه يجب أن تكون نيَّة الصيام في كلِّ يوم من أيام شهر رمضان، وهنالك بعض المذاهب التي تقول: يصحُّ أن تنويَ من أول شهر رمضان، فتقولَ: نويت صيام هذا الشهر.

غير أنني لا آخذ بهذا الرأي، ولكنَّني أقول: يجب أن تنويَ صيام كلِّ يوم بيومه، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، فعليك إذن أن تعطيَ كلَّ يوم حقَّه منَ النيَّة ومنَ العبادة ومن التفرُّغ، كما لو أنَّ الله فرضَ عليك الصيام كلَّه يوماً واحداً !

وعندما يصوم الإنسان هذا اليوم من دون نيَّة الصيام، فإنَّ صيامه لهذا اليوم سيكون على سبيل العادة، وليس على سبيل العبادة، أمَّا إذا نوى لكلِّ يوم مستقلاً، فإنَّ صومه حينئذٍ سيكون أقرب إلى حقيقة العبادة منه إلى العادة [٣].

السؤال الثاني:

ما السَّفر وما المرض اللذان يُباح لي بهما الإفطار ؟

الله تعالى يقول: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، أي إن كنتَ لا تستطيع الصِّيام بسبب مرض أو سفر، فيجوز لك الإفطار

---

[٣] قال أبو حيَّان الأندلسي في "البحر المحيط": ﴿أياماً معدودات﴾ إنْ كان ما فُرض صومُه هنا هو رمضان، فيكون قوله: ﴿أياماً معدودات﴾ عنى به رمضان، وهو قول ابن أبي ليلى وجمهور المفسرين، ووَصفَها بقوله: ﴿معدودات﴾ تسهيلاً على المكلَّف بأنَّ هذه الأيام يحصرها العدُّ ليست بالكثيرة التي تفوِّت العدَّ، ولهذا وقع الاستعمال بالمعدود كنايةً على القلائل، كقول الله تعالى: ﴿في أيام معدودات﴾ البقرة:٢٠٣، وقوله سبحانه: ﴿لن تمسَّنا النارُ إلا أياماً معدودة﴾ البقرة:٨٠، وقوله سبحانه: ﴿وشَرَوْهُ بثمن بخسٍ دراهمَ معدودة﴾ يوسف:٢٠.

والقضاء بعد رمضان. وهذا من رحمة الله تعالى.

ولكنَّني أريد هنا أن أذكِّركم بالفرق بين الصِّيام والصَّوم، فالصِّيام امتناعٌ عن المفطِّرات الحسيَّة كالطعام والشراب وغيرها، أما الصَّوم فهو: الامتناع عن المفطِّرات المعنوية كالغيبة والنميمة والكذب والمحارم.

ولما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، فإنَّ قوله هذا عائدٌ على قوله السابق: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ...﴾.

ما أقصده هو: إنَّ هذا يعني أنَّ ما أبيح لك ألا تصوم عنه هي المفطِّرات الحسيَّة، فأنت صاحب عذر من حيث الصِّيام وليس من حيث الصَّوم!

بعبارة أخرى: إذا كنت مريضاً لا تستطيع أن تصوم صياماً، فإنَّك تستطيع أن تصوم صوماً، لأنَّ الصَّوم هو امتناع عن المفطِّرات المعنوية كالغيبة والنميمة والكذب والمحارم...

لذلك لا يجوز للمريض أن يأتي بإحدى المفطِّرات المعنوية ثم يقول: أنا مفطر! لا، لا يجوز؛ إذ يجبُ عليك أن تصوم صوماً، لأنك لست مريضاً من هذه الناحية، وإنما أنت مريض من حيث الجسم، فأنت مُفطر بعذر من حيث الصِّيام، فما العذر الذي يُبيح لك أن تكون مُفطراً من حيث الصَّوم؟

ونعود إلى السؤال: ما هو المرض الذي يبيح لي أن أفطر؟

الجواب بكل بساطة: هذا المرض إمَّا أن يكون بإعلام الطبيب أو بمعرفة الإنسان نفسَه.

فإذا قال لك الطبيب المسلم الفاهم العاقل: أفطر. فعليك أن تفطر، وإذا قال لك: لا تفطر. فعليك ألا تفطر.

هذه ناحية، ومن ناحية أخرى: أنت تعرف نفسك، وأنت تراقب ربَّك وربُّك

يراقبك، وهاأنت ذا تملك قيادة نفسك، فإذا كنتَ تشعر بأنَّك إن صُمت فستتراجع صحتك، فما عليك إلا أن تفطر، لأنك أنت أدرى بنفسك.

ربما قال لي بعض الناس: إن تركنا الأمر هكذا فالناس كلُّهم سوف يفطرون.

غير أنَّني أقول لهؤلاء: لا. لا يجوز لنا أن نشكَّ بالناس، وأن نعتقد فيهم أنَّ دينهم رخيص عليهم.

صحيح أن الناس مقصِّرون، لكنَّ دينهم - بشكل عام - غالٍ عليهم جداً، فكم رأينا من أناس كبيرين في العمر، يصل أحدهم إلى درجة الموت تقريباً، ومع ذلك فهم لا يفطرون ؟! وهذا من باب حرصهم على دينهم.

لذلك نقول: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ إمَّا بإعلام الطبيب أو بمعرفة الإنسان نفسَه.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: ما السَّفر الذي يبيح لك أن تفطر ؟

السفر هو: ما يطلق عليه اليوم اسم "سفر"، وأنا لا أريد أن أحدِّد مسافة /٨٠/ أو /٨٥/ كم، لكنَّني أقول: إنَّ ما يُطلق عليه عُرفاً أنه سفر، فهو السفر، وأنت أدرى بتحديد السَّفر الذي تقوم به.

وههنا نقطة أريد أن أوضِّحها فقهياً وهي:

لماذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، ولم يقُل: (أو مسافراً) ؟!

الجواب: اختلف الفقهاء في قضية السَّفر، ومتى يُباح للمسافر أن يُفطر، لكنَّني أقول: مَن عزَم على السَّفر فإنه يجوز له أن يفطر، حتى لو لم يشرع بالسَّفر فعلاً، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

أي: إذا أخذ للسَّفر أُهبتَه، أو كان على تمكُّنٍ من السَّفر، أو في عزمٍ على السفر. والسَّفر أنت تقدِّره كما قلنا، لذلك: من عزم على السَّفر، جاز له أن يفطر على أساس السَّفر، حتى ولو لم يشرع في السَّفر [٤].

مثلاً: أنا حجزت بطاقة في الطائرة من أجل السَّفر غداً، وموعد الانطلاق الساعة/٨/ صباحاً، فيحقُّ لي أن أفطر في اليوم الثاني حتى ولو كانت طائرتي ستنطلق بعد الفجر، ما دمتُ قد عزمت على السَّفر.

لكنَّني، ومن باب الأدب، أقول لك: لا تفطر إلا بعد أن تشرع في السفر.

ولننتبه إلى الفَرْق: يحقُّ لك أن تفطر إذا عزمت على السَّفر ولو لم تشرع في السَّفر، لكن يُستحسن لك من باب الأفضلية والأدب ألا تفطر إلا بعد أن تشرع في السَّفر.

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: (الفاء) واقعةٌ في جواب الشرط، و(عدَّة) مبتدأ، والخبر محذوفٌ تقديره (واجبةٌ) [٥]

---

[٤] قال العكبري في "التبيان في إعراب القرآن": قوله تعالى: ﴿أو على سفر﴾: في موضع نَصْب معطوفاً على خبر كان، تقديره: أو كان مُسافراً؛ وإنما دخلت (على) ههنا؛ لأنّ المسافرَ عازمٌ على إتمام سفره، فينبغي أن يكونَ التقدير: أو كان عازماً على إتمام سفَر.

[٥] قال ضياء الدين ابن الأثير الجَزَري في "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، باب حذف الشرط وجوابه: ومِن هذا الضَرْب - أي حذف الشرط - قوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذىً مِنْ رأسه ففديةٌ﴾ البقرة:١٩٧، أي: فحلَقَ فعليه فديةٌ... وعلى نحوٍ من ذلك جاء قوله تعالى: ﴿فمَن كان منكم مريضاً أو على سفَر فعِدَّةٌ من أيام أُخَر﴾. تقدير ذلك: فأفطرَ فَعدَّة من أيام أخر. ولهذا ذهب داود الظاهري إلى الأخذ بظاهر الآية، و لم ينظر إلى حذف الشرط، فأوجب القضاء على المريض والمسافر، سواء أفطر أم لم يفطر.

وقال العكبري: ﴿فَعِدَّةٌ﴾: مبتدأ، والخبر محذوف، أي فعليه عِدَّة، وفيه حذْفُ مضاف؛ أي صوم عِدَّة. ولو قُرِىء بالنصب لكان مستقيماً، ويكون التقدير: فليَصُم عِدَّةَ. وفي الكلام حَذْفٌ تقديره: فأفْطَرَ فَعَلَيْهِ.

والمعنى: فليُرجأ هذه الأيام التي أفطرها، إلى وقت آخر من أجل أن يصومها قضاءً.

وهل يُشترط أن يقضي هذه الأيام التي أفطرها في رمضان متتابعةً بعد رمضان ؟ الجواب: لا يشترط أن يقضيَها متتابعة [٦].

أخيراً؛ في هذه الآية:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ﴾.

تبدأ رحمةُ الله تعالى الكامنة في الأمر الشاقِّ ظاهراً... تبدأ في التجلّي والظهور.

إنَّه يقول لنا:

كُتبَ عليكم الصيام، ولكن عندما تقومون بهذا الصِّيام ويلحق بكم جرَّاء قيامكم به أذىً بشكل مؤكّد، أو تكون فيه مشقٌ عليكم، فأنا سأرفعه عنكم، من أجل أن تعلموا أنَّني إنما فرضته عليكم من أجلكم، وأنَّ هذا الفرض لا يضرُّكم بل ينفعكم حقيقةً، لكنَّ الحقيقة غير متجلّية لكم؛ فإذا أصابكم من الصيام أذى، فالصيامُ مرفوع عنكم.

لا تتركوا الصِّيام إذا كنتم مرضى أو مسافرين؛ بل أفطروا الآن وعليكم أن تقضوا الأيام فيما بعد.

---

[٦] قال أبو حيَّان الأندلسي في "البحر المحيط": وظاهر قوله تعالى: ﴿فعدَّة من أيام أُخر﴾ أنه لا يلزم التتابع، وبه قال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار، وروي عن عليّ ومجاهد وعروة: أنه لا يفرِّق، وفي قراءة أُبيّ: (فعدَّة من أيام أُخرَ متتابعاتٍ).

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [٧]:

كأن القرآن الكريم يقول لنا:

إنَّ لله عزَّ وجلَّ حكمة في هذه الأيام المعدودات، فلن يسقطها عنكما أيها المريض وأيها المسافر، ولن يسقطها عنكِ أنتِ أيتها المرأة عندما يُصيبكِ ما يصيبك من حيض أو نفاس فتُفطرين، فإنَّ لله سبحانه تعالى حكمةً في عدد هذه الأيام التي فرضها عليك أيها الإنسان.

---

[٧] قال أبو حيَّان الأندلسي في "البحر المحيط": ونَكَّر ﴿عدةٌ﴾ و لم يقل: فعدَّتها. أي: فعدَّة الأيام التي أفطرتَ؛ احتزاءً. إذ المعلوم أنه لا يجب عليه عدَّة غير ما أفطر فيه ممَّا صامه. والعدَّة المعدود، فكان التنكير أخصر. و ﴿من أيام﴾ في موضع الصفة لقوله: ﴿فعدَّة﴾، و ﴿أخر﴾: صفة لأيام، وصفة الجمع الذي لا يعقل تارةً يُعامَل معاملةَ الواحدة المؤنثة، وتارةً يعامَل معاملة جمع الواحدة المؤنثة. فمنَ الأول: ﴿إلا أياماً معدودة﴾ البقرة:٨٠، ومن الثاني: ﴿إلا أياماً معدودات﴾ آل عمران:٢٤، فمعدودات: جمع لمعدودة. وأنت لا تقول: يومٌ معدودة، إنَّما تقول: معدود، لأنَّه مذكر، لكنْ جاز ذلك في جمعه، وعَدَل عن أن يصفَ الأيام بوصف الواحدة المؤنث... (أخرى)، وإن كان جائزاً فصيحاً كالوصف بـ (أُخر) لأنه كان يلتبس أن يكون صفة لقوله ﴿فعدَّة﴾، فلا يُدرى أهو وصف لعدَّة، أم لأيام، وذلك لخفاء الإعراب لكونه مقصوراً، بخلاف: ﴿أُخَر﴾ فإنه نصٌّ في أنه صفة لأيام لاختلاف إعرابه مع إعراب ﴿فعدَّة﴾.

من لطائف سورة البقرة

وعلى الذين يطيقونه فديةٌ

وصلنا في لطائف آيات الصيام إلى قول الله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [1].

وقد أثارت هذه الآية نقاشاً طويلاً بين المفسِّرين، فقال بعض العلماء عن هذه الآية بأنها منسوخة، وأنها كانت قبل فرض الصيام في رمضان.

أي كان الإنسان أولاً مخيَّراً في الصيام، فإن شاء صام و إن شاء أفطر ودفَعَ الفدية، ولو كان سليماً لا مريضاً ولا مسافراً، ثم نُسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾، وصار الصوم واجباً عليه، من غير تخيير.

أما أنا فأتبنَّى الرأي الذي يقول بأن هذه الآية مُحكمة لا نَسْخَ فيها، وأنَّها تتناول الشيخ الكبير والمرأة المسنَّة الكبيرة الذين يصعب عليهم الصيام، وكلَّ من يشقُّ عليه الصيام ليس لمرض أو لسفر [2].

---

[1] البقرة: ١٨٤.

[2] أخرج الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وعلى الذين يُطيقونه فديةٌ طعامُ مسكين﴾ بسنده عن عليّ ﷺ قال: الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم يفطر ويطعم مكان كل يوم مسكيناً.

إذن هناك رخصة للمريض ورخصة للمسافر ورخصةٌ للذين يطيقونه، أي الذين يؤدُّونه ولكن ببذل غاية الطاقة، لأنَّ قولي: أطاق فلانٌ الأمر، أي قام به وهو في أشد حال يمكن أن يبذل فيها الجهد.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾:

أي: وعلى الذين يصومون، ولكنَّهم في صيامهم يبذلون طاقةَ الجهد؛ على هؤلاء فدية، وليس عليهم عدَّة من أيام أخر، لأنَّ الشيخ الكبير لا يتوقَّع منه أن ينتظر أياماً أخرى يعود فيها إلى صباه حتى يقضي الذي فاتَه.

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا ما تبنَّيتُه:

هذه الآية ليست منسوخة، وإنما تتعلق بالشيخ الكبير المسنِّ الذي يصعب عليه أن يصوم وهو في هذه السنِّ المتقدمة [٣].

﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾:

(فديةٌ): مبتدأ مؤخَّر.

(وعلى الذين يُطيقونه): خبر مقدَّم.

(طعامُ مسكينٍ): بدلٌ من فدية.

وكأنَّ سائلاً يقول: ما الفدية ؟

جاء الجواب: طعام مسكين؛ وجبتين مُشبعتين، تقدَّر قيمتهما وتدفع هذه القيمة للفقير.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

---

[٣] أخرج الطبري في تفسيره بسنده عن ابن عباس ﷺ ... قال: هو الشيخ الكبير والمرء الذي كان يصوم في شبابه، فلما كبُر عجز عن الصوم قبل أن يموت، فهو يطعم كل يوم مسكيناً

لقد أثار هذا النصُّ من الآية أيضاً مثل ما أثار ما قبله من نقاش وخلاف بين العلماء في فهم المراد.

هناك فريق يقول: إنَّ قوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، متعلق بالصَّوم التطوعيِّ الذي كان قبل فرض صيام رمضان، إذ كان المسلم مُخيَّراً في الواجب عليه بين أن يصوم وبين أن يدفع الفدية، وأنَّ هذه الآية تبيِّن أن الصوم أفضل من الفدية.

وما أظنُّ الأمر كذلك، خاصةً وأنَّ الكلام هنا جاء تابعاً لقول الله تعالى: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، المتعلِّق بأصحاب الأعذار الذين يضعفون عن صيام شهر رمضان.

وهناك فريق ثان يقول:

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾: هذه الآية ليس لها علاقةٌ بأفضلية الصيام، وإنما هي في مقدار الفدية، أي: إنَّ الذي يزيد على إطعام مسكين واحد فيطعم مسكينين أو ثلاثة أو أكثر ... فهو خيرٌ له [٤].

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: هذا بالنسبة للمسافر، وبالنسبة للمريض والكبير الذي يُطيق الصوم بشيء من الجُهد الذي لا يؤثر في صحته. أي: إنَّ صيامكم ولو بذلتم فيه شيئاً من الجهد والمشقة هو خيرٌ لكم.

---

[٤] قال أبو حيَّان الأندلسي في "البحر المحيط": ﴿فمن تطوّع خيراً فهو خيرٌ له﴾، أي: من زاد على مقدار الفدية في الطعام للمسكين؛ قاله مجاهد. وعلى عدد من يلزمه إطعامه، فيطعم مسكينين فصاعداً؛ قاله ابن عباس، وطاووس، وعطاء، والسُّدّي. أو جمع بين الإطعام والصوم؛ قاله ابن شهاب.

ولذلك نقول للمريض الذي يؤذيه صيامُه: لا يجوز لك أن تصوم. أمَّا بالنسبة للمريض الذي يستطيع الصيام بلا جُهد فصيامه عزيمة، والله تعالى يحبُّ من عبده أن يكون ذا عزم.

وقولُ هذا الفريق أقرب إلى سياق الآية من قول الفريق الأول.

لكنَّني نظرت في الآية فبدت لي معانٍ وجدتها منسجمةً مع سياق الآية أيضاً، ومتناغمةً مع معانيها، ومتآلفة مع روحها.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ حديثٌ في موضوع جديد لكنَّه ذو علاقة بالصِّيام.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾: كلمة ﴿تَطَوَّعَ﴾ ليس لها علاقةٌ بصيام التطوع كما قلنا، وإنَّما تتناول فريضة الصيام مطلقاً، والتي هي فريضةٌ شاقة إلى حدٍّ ما كما ذكرنا من قبل، بدليل أن الله عزَّ وجلَّ وازاها بالقتال والقصاص فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [٥]، كما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [٦]، وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [٧].

فباعتبار أنَّ الصيام فريضة شاقةٌ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول معقِّباً عليها بعد أن فرضها علينا: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾، أي: مَن عوَّد نفسه الطاعة. فأصل الفعل (تطوَّع) من: طاع يطوع. وتطوّع: تفعَّل، وهو فعل لازم. فـ (تطوّع): أي طوَّع

---

[٥] البقرة: ١٨٣.

[٦] البقرة: ١٧٨.

[٧] البقرة: ٢١٦.

لنفسه من أجل أن تكون طائعة، أي من أجل أن تكون منقادة لطاعة الله عزَّ وجلَّ [٨].

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾: (خيراً) منصوب على نزع الخافض [٩]، وأنا لا أقول: (خيراً) مفعول به.

---

[٨] قال العلامة أحمد بن فارس في معجم "مقاييس اللغة": والعرب تقول: تَطَاوعْ لهذا الأمر حتى تستطيعَه، ثم يقولون: تَطوَّعَ، أي تكلَّفَ استطاعتَه. وقال ابن منظور في "لسان العرب": قال الأَزهري: منَ العرب مَن يقول: طاعَ له يَطُوعُ طَوْعاً، فهو طائِعٌ، بمعنى أَطاعَ، وطاعَ يَطاعُ لغة جيِّدة. قال ابن سِيْده: وطاعَ يَطاعُ وأَطاعَ لانَ وانْقادَ، وأَطاعَه إِطاعةً وانْطاعَ له كذلك. وفي التهذيب: وقد طاع له يَطُوعُ إِذا انقاد له، بغير أَلِف، فإِذا مَضَى لأَمره فقد أَطَاعه، فإِذا وافقه فقد طاوعه... وتَطَوَّعَ للشيءِ وتَطَوَّعه، كلاهما: حاوَله... وتَطاوَعَ للأَمر وتَطَوَّعَ به وتَطَوَّعَهِ: تكَلَّفَ استِطَاعَتَهُ. وفي التنزيل: ﴿فمن تَطَوَّعَ خيراً فهو خيرٌ له﴾؛ قال الأَزهري: ومن يَطَّوَّعَ خيراً، والأَصل فيه يتطوع فأُدغمت التاء في الطاء، وكلُّ حرف أُدغمتَه في حرف نقلته إِلى لفظ المدغَم فيه، ومن قرأَ: ﴿ومن تطوَّع خيراً﴾ على لفظ الماضي، فمعناه للاستقبال. قال: وهذا قول حذَّاق النحويين.

[٩] تقدير الكلام: فمن تطوَّع بخير، فلما حُذفت الباء انتصبت الكلمة بعده. قال أبو حيَّان الأندلسي في "البحر المحيط": وانتصاب ﴿خيراً﴾ على أنه مفعولٌ على إسقاط الحرف، أي: بخير. لأنَّ تطوّع لا يتعدَّى بنفسه. ويحتمل أن يكون ضمَّن ﴿تطوّع﴾ معنى فعل متعد، فانتصب ﴿خيراً﴾ على أنه مفعول به، وتقديره: ومن فعل متطوعاً خيراً. ويحتمل أن يكون انتصابه على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: تطوعاً خيِّراً. ودلَّ وصف المصدر بالخيرية على خيرية المتطوَّع به، وتقدم ذكر قراءة من قرأ ﴿يَطَّوَّعْ﴾، فجعله مضارع أطوَّع، وأصله تطوع فأدغم، واجتُلبت همزة الوصل. ويلزم في هذه القراءة أن تكون: ﴿مَن﴾ شرطية، ويجوز ذلك في قراءة مَن جعله فعلاً ماضياً. والضمير في ﴿فهو﴾ عائد على المصدر المفهوم من ﴿تطوع﴾، أي: فالتطوع خير له، نحو قوله: ﴿اعدلوا هو أقربُ للتقوى﴾ المائدة:٨ أي: العدل. و ﴿خيرٌ﴾ خبرٌ لـ ﴿هو﴾ وهو - هنا - أفعل التفضيل. والمعنى: أنَّ الزيادة على الواجب، إذا كان يقبل الزيادة، خيرٌ من الاقتصار عليه، وظاهر هذه الآية العمومُ في كلِّ تطوُّع بخير، وإن كانت وردت في أمر الفدية في الصوم.

قلت: والقراءة التي أشار إليها أبو حيَّان ﴿فمَن يطَّوَّعْ﴾، هي قراءة حمزة والكسائي وخلَف.

بماذا تَطَوَّع أنت ؟ ... بالخير.

لماذا تجعل نفسك طيِّعة وتعلِّمها الطاعة ؟ ... من أجل الخير.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: أي مَن عوَّد نفسَه الطاعة ومكَّن نفسَه لكي تكون طائعةً من أجل الخير.

ما معنى كلمة (خير) ؟

لقد أمرنا الله بفعل الخير فقال عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠).

فما معنى كلمة (الخير) ؟

الخير هو الاختيار، فإذا كان هذا الاختيار من ربِّك لك فهو خير. أي: فهو النافع والمفيد لك .

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: أي من جعل نفسه طائعةً لله عزَّ وجلَّ فيما اختاره لها.

﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي وافعلوا ما اختارَه للهُ لكم أيُّها الناس، فإنَّ الخِيَرَة لله وحده.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (١١).

---

(١٠) الحج: ٧٧.

(١١) الأحزاب: ٣٦.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾:

أي فمن طوَّعَ نفسه وعوَّدها على الطاعة في اختيار الله عزَّ وجلَّ لها فقد اختار ما هو نافع له، لأنَّ الله لا يختار لك إلا ما فيه نفعٌ لك، فاختيار الله هو اختيار خَيِّرٌ لك.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾:

هذه قاعدة يضعها الله عزَّ وجلَّ أمام أنظارنا بعد أن تحدَّث عن الصيام وفرضيَّته، ليجعلها أصلاً يتفرَّعُ عنه ما بعده.

وما بعده هو قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فأن تصوموا هو اختياري لكم يا عبادي، فإن كان الصَّوم عبادةً شاقة فاعلموا أنَّه الخير لكم من عندي.

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

(أَنْ) حرف مصدري ونصب واستقبال.

(تَصُومُوا) فعل مضارع منصوب وعلامة نصبه حذف النون. (وَأَنْ تَصُومُوا): في موضع رَفْع مبتدأ.

(خَيْرٌ) خبره، والتقدير: وصيامكم خيرٌ لكم.

(لَكُمْ): الجارُّ والمجرور متعلقان بنَعْت محذوف لخير.

(إنْ كُنْتُم) شَرْطٌ محذوفُ الجواب؛ والدالُّ على المحذوف (أنْ تَصُومُوا).

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

إذا اشتغلتم بالعلم، وكنتم عالمين بأوامري ونَواهيَّ.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

جاءت هذه الآية لتقول لنا:

يا عبادي. لقد فرضت عليكم الصوم، وها أنا أعلّل هذه الفريضة وأقول لكم: إن عوّدتم أنفسكم على أن تطيعوني في كلّ سلوككم، وأن تطيعوني في اختيار ما اخترته لكم، فهذا خيرٌ لكم. وقد نكّر كلمة (خيرٌ) ليُفهمنا أنه خيرٌ عميم مطلق.

لو سألني إنسان الآن: ما حكمة الصوم ؟ وأين تكمن الخيرية لي فيه ؟ فسأقول له: الخيريَّة هي في تطويع نفسك لله عزَّ وجلَّ، ولما اختارَه الله لك، هذه هي الخيريَّة.

فحكمةُ الصوم طاعة، لأنَّ الصوم عبادة سريَّة أكثر من غيرها من العبادات، لذا كانت حكمته أن أطوّع نفسي لطاعة الله عزَّ وجلَّ، وأن أجاهد نفسي في هذا التطوّع حتى أصل إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أي أن أكون مخلصاً في تطوُّعي وفي تخلُّقي وفي تعوُّدي على الطاعة لله، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو وحده الذي تجب عليَّ طاعته، وإذا لم نطع الله تعالى فمن ذا الذي نطيع ؟!

لقد أعملت عقلي في البحث عمَّن يأمرني فأستجيب له، وشغَّلته بعلم، فوجدت أن الله خيرُ آمر، فهو الذي يأمرني ويجب عليَّ أن أطيع؛ وهذه قضية محسومة.

ألا تذكرون أهل بدر الذين قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا رسول الله. امضِ لما أمرك الله؛ فوالله لو استعرضتَ بنا البحرَ فخُضته

لخضناه معك. ولا نقول لك كما قال قوم موسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [١٢]، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون ؟!

هذا هو ما يجب أن يكون ديدننا ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾.

تعالوا من أجل أن نضعَ هذه الآية أمام أعيننا حتى ندرك حكمة الصيام والصلاة والزكاة والحج و... و... وكلَّ أعمالنا؛ فمن عوَّد نفسه على الطاعة بدافع اختيار الله، وعلى الخير الآتي من الله عزَّ وجلَّ فهو خيرٌ له، وهذه قضية محسومة كما قلنا.

لو أتاني شخص وسألني: ما حكمة تحريم الخنزير ؟ فسأجيبه بالآية: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ !

الله عزَّ وجلَّ اختار لي ألا آكل الخنزير، فلن آكله، وانتهت المسألة.

أمَّا أن تقول: حكمة تحريم الخنزير هي الضَّرر الحاصل من أكل لحمه، فهذا ليس بحكمة، وإنما هذا كما قلت لبعضهم: تحويم حول الحكمة، وليس هو الحكمة نفسها، لأنَّ الحكمة هي: الامتثال لأمر الله عزَّ وجلَّ.

---

[١٢] المائدة: ١٢. والخبر المذكور من حوادث غزوة بدر الكبرى، وقائل هذا الكلمة: "لا نقول لك كما قال قوم موسى ..." لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هو المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنه، أخرج ذلك البخاري: كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ الأنفال:٩. وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب المغازي، باب غزوة بدر الكبرى، ونسب القول إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه، ثم عاد فذكر القول نفسه للمقداد رضي الله عنه في باب غزوة الحديبية. وأما ابن هشام في السيرة النبوية، فذكر الكلمة للمقداد في حوادث بدر الكبرى، وذكر معها كلاماً آخر لسعد رضي الله عنه.

أسأل اللّهَ أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعَنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علماً وعملاً وفقهاً في الدِّين؛ إنّه أرحم الراحمين.

من لطائف سورة البقرة

يريد الله بكم اليُسر ولا يريد بكم العُسر

وصلنا إلى قول الله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [1].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾: يريد الله عزَّ وجلَّ بنا اليسر فيما يخصُّ إسقاط الصيام عن المريض وعن المسافر، فهذه الآية تقول لهؤلاء المرضى والمسافرين: لا تصوموا. فالصيام غير مفروض عليكم الآن، لأنَّ الله يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العُسر.

قد يقول إنسان: يا ربّ. كيف تريد بنا اليُسر وأنت تفرض علينا الصِّيام ؟!

بعبارة أخرى: هل يريد الله تعالى بنا اليُسر ولا يريد بنا العُسر في كيفية التطبيق، عندما نكون مرضى أو مسافرين ؟ ولكنَّه لا يريد بنا اليُسر في أصل تكليفنا بالصوم ؟!

---

[1] البقرة: ١٨٥.

هذا غير معقول. فكيف يبحث ربُّنا عن اليُسر من أجل أن يكون لنا في كيفيَّة تطبيق الفريضة، ولا يكون هناك يُسرٌ في أصل التكليف ؟

يريد الله تعالى بكم اليسر ولا يريد بكم العُسر - أيها المريض وأيها المسافر - في تطبيق الصيام وتنفيذه، كما أراده لكما في أصل فرض الصيام، وذلك ما أراده بالنسبة لكلِّ إنسان.

يريد الله تعالى بنا اليُسر ولا يريد بنا العُسر في كيفية التطبيق وفي أصل التكليف معاً، ولكنه ذكر المريض والمسافر فقط من باب دلالة الجزء على الكلِّ، ودلالة الصغير على الكبير [٢].

فإذا كان اليُسر موجوداً في الفرع، فهو موجود من باب أولى في الأصل، لأنَّ الفرع لا يمكن أن يكون موجوداً بذاته، بل لابدَّ من أن يكون للفرع أصل، فإذا كان اليُسر في الفرع فاليُسر له أصل، إذن فاليُسر في الأصل أيضاً.

وكأنَّ الله تعالى يطمئن هذا الإنسان الصائم فيقول:

أنا أريد بك اليُسر، ولكن قد لا تعرفه ولا يتجلَّى لك، غير أنني أريده لك؛ أريد بك اليسر في أصل التكليف وفي كيفية تطبيق هذا التكليف،

---

[٢] من خصائص التشريع الإسلامي "يُسر التكاليف". يقول الدكتور محمود عكام في كتابه "الشريعة الإسلامية: رسم أبعاد وتبيان مقاصد": واليُسر مُنْصَبٌّ على أمرين: أصلِ التكليف وطبيعةِ التكليف.

١- أمَّا أصلُ التكليف: فالإنسان بحاجة إلى تكليف، ولو لم يُكلَّف لَعسُرَ عليه الأمر، لأنَّ الإنسان في خَلْقِه نظامٌ، وبالتالي فهو يسعى إلى نظام، ولا تناسبه الفوضى على الإطلاق.

٢- وأمَّا طبيعة التكاليف: فهي في حدود المقدور ومُكنة المستطاع. قال الله تعالى: ﴿لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلا وسعها﴾ البقرة:٢٨٦. وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: (**فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نَهيتُكم عن شيء فَدَعوه**) متفق عليه. وقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (**إنَّ الدِّين يُسرٌ، ولن يُشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غلبَه**) أخرجه البخاري.

ولا أريد بك العسر.

﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾: يجب أن تكملوا العِدَّة سواء أكنتم مرضى أم مسافرين، فصيام شهر رمضان يجب أن يكون بشكل كامل سواء أكان تسعة وعشرين يوماً أم ثلاثين.

فإذا كنَّا أسقطنا عنكم الصيام الآن باعتباركم في حالة مرض أو سفر، فإنَّنا لم نسقطه عنكم أبداً، وإنَّما يجب عليكم عند العودة إلى حالة الصحة أو حالة الإقامة أن تصوموا ما قد أفطرتم.

فالأثر المطلوب لا يتحقّق إلا بالوفاء بالعدد المحدَّد، ولا يجوز إنقاص شيء منه.

﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يجب أن تكبِّروا الله عزَّ وجلَّ وأنتم تصومون، والتكبير يعني أن تقولوا لربكم وأنتم تصومون: آمنَّا بك يا ربّ إلهاً، تأمرنا فنستجيب، حتى ولو لم نفهم من هذا الأمر الذي أمرتنا به أيَّ مصلحة بالنسبة لنا.

مثال: عندما يقول لك الحكيم الفاهم: افعلْ هذا. ولا يبيِّن لك الحكمةَ، فأنت تفعل، وأنت واثق من أنَّه يريد لك الخير ضمناً، حتى ولو لم يكن ذلك الخير واضحاً لك.

وكأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول:

هناك شرطان للصيام من أجل أن يُنتجَ أثرَه:

١- أن تكملوا العدَّة.

٢- أن تكبِّروا الله على ما هداكم، ولعلكم تَشْكرون.

لن تصلوا إلى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وإلى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، إلا إذا أكملتم العدَّة وكبَّرتم اللهَ ربَّكم على ما هداكم، عند ذلك تكونون من المخلصين الشاكرين [٣].

كيف يكون الإنسان شاكراً لربه ؟

يقدِّم الله عزَّ وجلَّ أنموذجاً من خلال الصيام: أن تكمل العدَّة وأن تكبِّر الله في ذلك، بأن تطبق فرض الله الذي فرضه عليك من غير شكٍّ: ما الفائدة ؟ ما المنفعة ؟ ما الحكمة ؟ ما... ما.... إلخ ؟ في فريضة كفريضة الصيام أو فريضة القتال أو فريضة القصاص.

﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

هذه هي المنظومة العامة لآيات الصيام، وإنَّ هذا لَجهد المُقلِّ.

وأسأل اللهَ عزَّ وجلَّ أن يجعلنا من الذين يكملون العدَّة ومنَ الذين يكبِّرون الله تعالى على ما هداهم، فقد هدانا في شهر الصيام إلى القرآن الكريم، وإذا ما تمسَّكنا بالقرآن الكريم فسنكون في الدنيا من السَّعداء وفي الآخرة من الفالحين.

---

[٣] قال أبو حيَّان الأندلسي في "البحر المحيط": وإذا كان التكليف شاقاً ناسبَ أن يُعقَّب بترجِّي التقوى، وإذا كان تيسيراً ورخصةً ناسبَ أن يُعقَّب بترجِّي الشُّكر، فلذلك خُتمت هذه الآية بقوله: ﴿لعلكم تشكرون﴾، لأنَّ قبله ترخيصٌ للمريض والمسافر بالفطر، وقولُه: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾. وجاء عُقيب قوله: ﴿كُتب عليكم الصيام لعلكم تتقون﴾. وقبلَه ﴿ولكم في القصاص حياة﴾، ثم قال: ﴿لعلكم تتقون﴾، لأنَّ الصيام والقصاص مِن أشقِّ التكاليف، وكذا يجيء أسلوب القرآن فيما هو شاقٌّ وفيما فيه ترخيص.

من لطائف سورة البقرة

وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب

بعد أن تقرأ في كتاب الله تعالى آيات تتعلق بالصِّيام، ستصل إلى هذه الآية المحبِّبة المحبَّبة، إلى قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [1].

ورد في سبب نزول الآية أنَّ بعض أصحاب النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم سألوه: أين ربُّنا ؟ فأنزل الله - تعالى ذِكرُه - الآية.

وقال بعضهم: نزلت في سائل سأل النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فقال: يا مُحمَّد أقريبٌ ربُّنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه ؟[2].

ومهما كان السبب فإنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يهمُّنا سببُ النزول كثيراً، وإنَّما الذي يهمُّنا الآن هو الآية.

أولاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾.

١- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾: ذكرنا في لطائف قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، أنَّ الفرق بين (إذا) و(إنْ) هو أنَّ فعل الشرط بعد (إذا)

---

[1] البقرة: ١٨٦.

[2] أخرج هذه الروايات ابن جرير الطبري في تفسيره.

مؤكّد الوقوع؛ أمّا فعل الشرط بعد (إنْ) فهو غير مؤكّد الوقوع، بل هو محتمَل، كما في قول الله تعالى:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [٣].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾: أي سيسألك عبادي عنّي يا مُحمَّد، صلّى الله عليه وآله وسلّم، فسؤالهم واقعٌ بكلّ تأكيد.

ولو قال الله تعالى: (وإن سألك عبادي عنّي) لكان هنالك احتمالٌ في أن يسألوا أو لا يسألوا، لأنَّ الفعل بعد (إن) ليس مؤكّدَ الوقوع.

والتعبير بالسؤال متضمّن لمعنى الحاجة، والعرب تقول للمحتاج: سائل. لأنّه يروم سدَّ حاجته بالسؤال، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، كأنّه بمقام: إذا كان عبادي بحاجة إليَّ [٤].

٢- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾: أجْمَلَ الله عزَّ وجلَّ هنا فقال: ﴿عَنِّى﴾، ولم يقل: عن ذاتي أو عن رزقي أو عن عطائي... إلخ.

والسؤال: ما الذي سيسأل هؤلاء العباد عن ربِّهم؟ هل سيسألون عن هيئة الله سبحانه وتعالى وشكله؟... لا. كيف نعرف ما الذي سيسأل عنه العباد؟

---

[٣] آل عمران: ١٢٠. وعليه: فإن وقوع النصر والفتح أكيد لا شكَّ فيه، وأمّا وقوع المسِّ بالحسنة، أو الإصابة بالسيئة، أو الصبر على ذلك كلّه والتقوى، فكلُّ ذلك محتمل غير مؤكّد.

[٤] قال الراغب الأصفهاني في "مفردات غريب القرآن": السؤال استدعاء... ويُعبَّر عن الفقير إذا كان مُستدعياً لشيءٍ بالسَّائل نحو: ﴿وأمَّا السَّائلَ فلا تنهر﴾ الضحى:١٠، وقوله: ﴿للسَّائل والمحروم﴾ الذاريات:٢٩.

الجواب: نعرف من خلال الصِّفة التي تحقَّقوا بها وهي العبودية، والعبد ليس له وجود مستقل، فوجوده من خلال المعبود، لذا يسأل العبدُ عن ربِّه من أجل أن يلبِّي له حاجاته النابعة من عبوديَّته لهذا الربِّ سبحانه وتعالى.

فيصبح المعنى: وإذا سألك عبادي يا مُحمَّد عنِّي، أنا المعبود، وعن تلبيتي لحاجاتهم وتطلُّعاتهم وكلِّ ما يرغبون فيه، لأنَّ العبد يريد مِن معبوده كلَّ شيء، فإذا سألوك ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

ثانياً: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾:

١- لماذا لم يقل الله عزَّ وجلَّ للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (فقل: إنِّي قريب)، أو (أجِبْهم أني قريب)، وإنَّما قال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ؟

لو قال الله عزَّ وجلَّ غير ما قال لكانت هناك واسطةٌ بين العبد وبين الله تعالى، لذا رفع الله عزَّ وجلَّ كلمة (فقُل) أو (أجبْهم) لكي يستشعرَ العبدُ القُرب على أتمِّه وعلى أحسن ما يمكن أن يكون عليه [٥].

---

[٥] ويسمَّى هذا الفنُّ من فنون البيان (الالتفات)، إذ تحوَّل الخطاب القرآني من الغائب إلى المتكلم. قال العلامة محمَّد علي التَّهانوي في "كشاف اصطلاحات الفنون": الالتفات هو التعبير عن معنىً بطريق من الطرق الثلاثة، منَ التكلُّم والخطاب والغَيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر من الطرق الثلاثة. وقال القزويني في "الإيضاح": مثال الالتفات من التكلُّم إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿وما لِيَ لا أعبدُ الذي فطرَني وإليه تُرجعون﴾ يس:٢٢، ومن التكلُّم إلى الغَيبة قوله تعالى: ﴿إنَّا أعطيناك الكوثر * فصَلِّ لربِّك وانحرْ﴾ الكوثر:١-٢،... ومن الخطاب إلى الغَيبة قوله تعالى: ﴿واللهُ الذي أرسلَ الرِّياحَ فتُثيرُ سحاباً فسُقناه﴾ فاطر:٩، ومن الغَيبة إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدِّين * إياك نعبد﴾ الفاتحة:٤-٥... واعلم أنَّ الالتفات من محاسن الكلام، ووجه حُسنه على ما ذكر الزمخشري هو أنَّ الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن لنشاط السَّامع، وأكثر إيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد.

٢- المراد بالقُرب هنا الإجابة، وقد أراحنا القرآن من التفكير في معانٍ للقُرب قد لا تليق بالذات الإلهية، ففسَّر لنا المراد بالقُرب، والقرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً، فقال: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾. ولكن لماذا قال الله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾، ولم يَقُل: (فإنِّي مُجيبهم ومُعطيهم) ؟

الجواب: لأنَّ التعبير عن المقصود هنا بالقُرب هو أعظم في دلالته وأشمل من التعبير بالإجابة، لأنَّه يشمل في معانيه الإجابة على السؤال وزيادة.

وإليكم مثالاً من أجل تقريب الصورة:

لو أنَّك طلبتَ من إنسان ما أمراً يهمُّك فقال لك: اطمئن، فأنت قريبٌ منِّي.

ألا تشعر أنَّ هذا الأمر الذي تعرضه عليه قد أخذ منه مأخذ الأهمية، وأنَّ قوله: أنت قريب منِّي، هو أوَّل الإجابة بل هو أهمُّ من الإجابة ؟

﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾: يطمئننا الله عزَّ وجلَّ هنا، وكأنه يقول لنا: حاجاتكم مهمَّة جداً عندي لأنَّني معكم، قريبٌ منكم [٦].

هذا القرب الذي يعبِّر عن اهتمام هو قُرب (الياء) المضاف إليه من المضاف (عباد)، أو قرب (ياء) النِّسبة إلى المنسوب (عباد).

وما دام الله عزَّ وجلَّ قد قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، فإنَّه سيقول: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾. ولو قال: (وإذا سألك العباد عنِّي)، ثمَّ قال: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾، لكان هناك استفهام: لماذا لم تقرِّب بيننا وبينك يا ربّ في النِّسبة ؟

---

[٦] قال الشوكاني في تفسيره "فتح القدير": وقيل في الكشاف: إنَّه تمثيلٌ لحاله تعالى في سهولة إجابته لمن دعاه، وسرعة إنجاحه حاجةَ من سأله بمَن قَرُب مكانه، فإذا دُعيَ أسرعت تلبيتُه.

لمَّا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، بدا وكأنَّ الجواب ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ مُتضمَّنٌ في قوله: ﴿عِبَادِي﴾.

ثالثاً: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

١- لماذا لم يقل ربُّنا عزَّ وجلَّ: (أجيب الداعي إذا دعان)، أو (أجيب مَن يدعوني)؛ فجملة ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فيها شيءٌ من التطويل، كما قد يظنُّ بعضهم، والقرآن بليغٌ والبلاغة الإيجاز ؟

الجواب: لا شك في أنَّ كلام الله عزَّ وجلَّ يتضمَّن حِكَماً، ومن الحِكم التي رأيتها في هذه الآية، أنَّ الله عزَّ وجلَّ لو قال: (أجيب من يدعوني) فكأنه يقول أنَّه لا يستجيب لك إلا إذا كنت تدعوه باستمرار، بحيث يكون الدعاء ديدناً لك وعادةً.

وكذلك لو قال: (أجيب الدَّاعي لي)، فإنَّه يُفهم منه أيضاً أنه لا يستجيب إلا لمن كان من عادته أن يدعو الله باستمرار.

لكنَّه تعالى لما قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، علمنا أنَّه يستجيب الدَّعوة ولو كانت من إنسان لا يدعوه باستمرار، فكأنه يقول لنا: أنا مع الدَّعوة لا مع الدَّاعي [٧].

---

[٧] قال أبو حيَّان الأندلسي في "البحر المحيط": وظاهر قوله: ﴿أجيب دعوة الدَّاع﴾ عمومُ الدَّعَوات، إذ لا يُريد دعوةً واحدة، والهاء في: ﴿دعوة﴾ هنا ليست للمرَّة، وإنَّما المصدر هنا بُني على (فَعْلَة) نحو: (رحمة). والظاهر عموم الداعي، لأنَّه لا يدلُّ على داعٍ مخصوص، لأنَّ الألف واللام فيه ليست للعهد، وإنَّما هي للعموم. والظاهر تقييد الإجابة بوقت الدعاء، والمعنى على هذا الظاهر أنَّ الله تعالى يعطي مَن سأله ما سأله.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾: مهما تكن دعوتك فإنِّي سأستجيبها لك، فادعُ أيُّها العبد، فالظرف كلُّه مُهيَّأ لك، فإنَّ الله سبحانه قريب منك، وهو يعدك بالإجابة.

٢- لم يقل الله عزَّ وجلَّ: (إن دعان)، ولكنَّه قال: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾، لأنَّ دعاء العبد ربَّه مؤكَّد عندما يكون الله قريباً من هذا العبد، لأنَّ العبد سيغتنم الفرصة ليسأل ربَّه تعالى حاجاته.

٣- ﴿إِذَا دَعَانِ﴾: أي إذا دعاني أنا، ولم يَدْعُ غيري، وكان معي في دعائه كما الصَّائم في صيامه: مخلصاً في سرِّه وظاهره معاً. أمَّا إذا دعاني من الظاهر فقط فليس بداعٍ أبداً.

٤- ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾.

يقدِّم اللهُ عزَّ وجلَّ في مقام العطاء والرحمة فِعْلَه على فعلنا دائماً، لذا قدَّم القُرب والإجابة لفظاً على ذكر الدعاء، وهو إشعارٌ للمخَاطبين بكَرم الله تعالى مع عباده، وعطائه السَّابق على السؤال، كما في قوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [٨]، وقوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [٩].

يقدِّم الله عزَّ وجلَّ ما عنده من عطاء طيِّب لنا قبل أن يطالبنا بما يجب أن نقدِّمه، وهذا هو المعهود عن ربِّنا، لأن ربَّنا مُتفضِّل دائماً وأبداً.

---

[٨] المائدة: ٥٤.

[٩] التوبة: ١٠٠.

رابعاً: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾: كما أنَّ الله عزَّ وجلَّ قريبٌ منك وسيستجيب لك، فعليك أن تستجيب لله من أجل أن تكون من أولئك الذين سمَّاهم: عبادي [١٠].

هناك قاعدة تقول: "الجزاء مِن جنس العمل"؛ كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [١١]، فإذا كنتَ تريد من الله تعالى أن يجيبكَ فعليك أن تستجيبَ له؛ فشرط الإجابة استجابة: استجبْ لي عبداً على أنَّني ربُّك؛ أُجِبْكَ ربّاً على أنَّك عبدي. استجب لي في عبادتك وفي بيعك وفي شراءك وفي كلِّ حياتك... أُجِبْ دعائك! فإن لم تفعل فأنَّى يُستجابُ لك ؟!

(إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبَلُ إلا طيِّباً... ثمَّ ذَكرَ الرَّجلَ يُطيل السَّفرَ، أشعثَ أغبَرَ، يَمدُّ يَديه إلى السَّماء: يا ربِّ، يا ربِّ. ومَطعمُه حرامٌ، ومَشربُه حرامٌ، ومَلبسُه حرامٌ، وغُذيَ بالحرام؛ فأنَّى يُستجاب له ؟!) [١٢].

---

[١٠] قال أبو حيَّان في "البحر المحيط": ﴿فليستجيبوا لي﴾، أي: فليطلبوا إجابتي لهم إذا دَعَوني، قاله ثعلب. فيكون: (استفعل) قد جاءت بمعنى الطلب، كاستغفر، وهو الكثير فيها. أو: فليجيبوا لي إذا دعَوتهم إلى الإيمان والطاعة كما أنِّي أجيبهم إذا دعَوني لحوائجهم، قاله مجاهد وأبو عبيدة وغيرهما. ويكون: (استفعل) فيه بمعنى (أفعل)، وهو كثير في القرآن: ﴿فاستجابَ لهم ربُّهم أنِّي لا أضيع﴾ آل عمران:١٩٥، ﴿فاستجَبنا له ووهبْنا له يحيى﴾ الأنبياء:٩٠. إلا أن تعديته في القرآن باللام، وقد جاء في كلام العرب معدَّىً بنفسه ...، ومثل ذلك، أعني كون (استفعل) موافقَ (أفعل)، قولُهم: استبلَّ بمعنى أبلَّ، واستحصد الزرع وأحصد، واستعجل الشيء وأعجل، واستثاره وأثاره، ويكون (استفعل) موافقاً (أفعل) متعدياً ولازماً. وهذا المعنى أحدُ المعاني التي ذكرناها لـ (استفعل) في قوله: ﴿وإياك نستعين﴾.

[١١] البقرة: ١٥٢.

[١٢] أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

استجبْ لربِّك، ولتكن الاستجابة على أساسٍ من إيمان باللّه تعالى، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾، ثم قال بعدها: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾.

﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾: الاستجابة على أساس غير الإيمان ليست كافية، بل يجب أن تكون على أساسٍ من إيمانٍ باللّه، على أنَّه هو الواحد الأحد الفرد الصمد الحي الرازق... إلخ، ولذلك قال صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: (مَن صامَ رمضان إيماناً واحتساباً ...) [١٣].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾: القُربُ على أساس العبوديَّة.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾: والاستجابة على أساس الإيمان. هذا يؤدِّي إلى نتيجة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، فإذا رَشَدوا كانوا في المقام الأعلى.

خامساً: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

ما معنى يرشدون ؟ بل ما هو الرُّشد أو الرَّشَد ؟ [١٤].

---

[١٣] متفق عليه. البخاري: كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان. ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان.

[١٤] قال الزَّبيدي في "تاج العروس": رَشَد كنَصَرَ يَرْشُد رُشْداً بضمٍّ فسكون، وهو الأشهر والأفصح. ورَشِدَ يَرْشَد، مثل فَرِح، رَشَداً محرَّكةً وَرَشَاداً...: اهتدى وأصاب وجهَ الأمر والطَّريق، فهو رشيدٌ وراشدٌ. والرَّشاد نقيضُ الضَّلال. ونقل شيخُنا عن بعض أرباب الاشتقاق أن الرُّشد يستعمل في كلّ ما يُحْمد، والغَيّ في كلّ ما يُذَمّ ... وأرشَدهُ اللّهُ تعالى ورَشَّدَه: هداه. والرُّشْد، بالضّم: الاستقامة على طريق الحقِّ مع تَصلُّبٍ فيه. والرَّشيد في صفات اللّه تعالى الهادي إلى سواء الصِّراط فَعيل بمعنى مُفْعِل. والرَّشيد أيضاً: هو الذي حَسُنَ تقديرُه فيما قَدَّرَ، أو الذي تَنْساقُ تدبيراتُه إلى غاياتها على سبيل السَّداد من غير إشارةِ مُشيرٍ ولا تَسديدِ مُسدِّد.

لقد تأمَّلت في مواطن ورود هذه الكلمة بصيَغها المختلفة في القرآن الكريم فوصلت إلى نتيجة هي: الرّشد في القرآن الكريم يعني **فَهْمَ السُّنن**.

الوجود كلُّه قائمٌ على سنن ومعادلات: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [١٥].

الرّشد هو: فَهْم السُّنن، ونحن نقول عن شخص ما: هذا إنسانٌ راشد. إذا فَهِمَ السُّنن والعلاقات الاجتماعية والكونيَّة فهماً متوازناً صحيحاً.

والغَيّ عكس الرّشد، فالغيُّ هو: عدم فهم العلاقات، وهما واضحان لكلِّ ذي بصيرة: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [١٦].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ [١٧].

الغَيِّ غفلة عن آيات الله تعالى وسُننه، والغَوِيُّ هنا هو الذي لا يستجيب لله تعالى على أساسٍ من إيمان، ويقول: (**يا ربِّ، يا ربِّ. ومَطعمُه حرامٌ، ومَشربُه حرامٌ، ومَلبسُه حرامٌ، وغُذيَ بالحرام؛ فأنَّى يُستجاب له**) وقد وَدَعَ السُّننَ وهَجَرها ؟!

أمَّا الراشد فهو الذي يستجيب لله عزَّ وجلَّ على أساسٍ من إيمان بالله،

---

[١٥] فاطر: ٤٣.

[١٦] البقرة: ٢٥٦.

[١٧] الأعراف: ١٤٦.

وعلى أساس مِنْ حِرْصٍ على فَهْم العلاقات ووَعْي السُّنَن التي بثَّها الله عزَّ وجلَّ في هذا الكون.

لذلك أقول: نحن يا إخوتي أمَّة غير راشدة، لأنَّنا لم نفهم السُّنن !

مثلاً: نحن نريد أن ننتصر مع أنَّنا لم نحقِّق سُنن النصر، فكيف نكون أمَّة راشدة ؟!

عندما سقطت بغداد عام ٢٠٠٣، قال الناس لي هنا في جامع التوحيد وفي كلية التربية: يا أستاذ سقطت بغداد!

قلت لهم: بغداد ما سقطت الآن، وإنما سقطت من زمن بعيد !

وإذا كنَّا لم نعرف إلا الآن أنَّ بغداد قد سقطت فلأننا لم ندرس سنن الله في النهوض والسقوط !

بغداد سقطت من مدَّة بعيدة، ولا أريد أن نتحدث عن غير بغداد، لأن أغلب مدننا سقطت من مدَّة بعيدة.

لماذا هذا السقوط ؟ لأننا نتعامل من غير رشد !

عندما اعترض الناس وقالوا لي: لماذا سقطت بغداد ؟ قلت لهم: لأنَّ الله سبحانه وتعالى ظالم ! قالوا لي: لا. نعوذ بالله، لا يمكن أن يكون ربُّنا ظالماً !

قلت لهم: إذن نحن الظالمون، ومِن ظُلمنا غفلتُنا عن السُّنن، فنحن غير راشدين. ولهذا سقطت بغداد وغيرها.

على أي شيء سوف ينصرنا الله أيها الإخوة ؟

أعلى هذه النظافة الموجودة في البلد ؟!

أعلى هذه الأخلاق الرفيعة عندنا ؟!

أعلى تعامل الجيران مع بعضهم ؟!

أعلى هذا السُّوق الذي فيه كلُّ السماحة واللطف والأمانة ؟!

أعلى هؤلاء الأطباء الذين يعملون برحمة ؟!

أعلى هؤلاء الحكّام الذين يحكمون بعدل ؟!

صحيحٌ أنه توجد في كلِّ قطاع قلّة ممّن يقومون بواجباتهم بأمانة وثقة، لكنَّ هؤلاء قلّة صغيرة غير كافية.

لو فهمنا السُّنن ما عَتَبْنا على ربِّنا سبحانه وتعالى، لكنَّنا نعتب عليه الآن لأنّنا غير راشدين.

سمعت منذ مدَّة كلمةً من الشيخ جودت سعيد، ولا زلت أردِّدها لأنها أعجبتني. لقد قال:

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [18]، والمسلمون في العالم اليوم لا يملكون شيئاً؛ حتى ثرواتهم وأراضيهم لا يملكونها، وإذا كان الله سبحانه لم يؤتهم شيئاً من التصرُّف فيها والتحكُّم في مقاديرها فذلك لأنَّهم غير راشدين، وسوف تظلُّ مقدّراتهم وثرواتهم بأيدي غيرهم إلى أن يصبحوا راشدين؛ عندها فقط ستردُّ إليهم أموالهم:

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [19].

نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعلنا من الرَّاشدين، وألا نقتصر في طلب ذلك على الدُّعاء فقط، بل أن نسعى لنكون ممّن استجاب لله تعالى على أساس من إيمان، وعندها سوف نصل إلى الرُّشد.

---

[18] النساء: ٥.

[19] النساء: ٦.

من لطائف سورة السَّجدة

وجعلنا منهم أئمةً يهْدون بأمرنا

استرعت انتباهي آيةٌ كريمة في سورة السَّجدة، وهي قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1].

قرأتُها وقلت: من هو الإمام ؟ وكيف يكون الإنسان إماماً ؟

السؤال الأول:

من هم الأئمة ؟

ها هي الآية تجيب قائلة: إنَّهم الذين ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

كلُّ إنسان يمكنه أن يكون إماماً، ولكن يجب عليه من أجل أن يكون إماماً أن يكون هادياً، وأن يتبيَّن إلامَ يدعو وإلى أي شيء يهدي؛ فالإمام الحقُّ المصطفَى مِنْ الله عزَّ وجلَّ هو الذي يهدي بأمر الله[2]:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

---

[1] السجدة: ٢٤.

[2] قال الراغب الأصفهاني في "مفردات غريب القرآن": ويُقال لكلِّ ما كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه: أُمٌّ. قال الخليل: كلُّ شيءٍ ضُمَّ إليه سائرُ ما يليه يُسمَّى أُمّاً. ... والإمامُ: المُؤتمُّ به؛ إنساناً كان يقتدي بقوله أو فعله؛ أو كتاباً أو غيرَ ذلك؛ مُحقّاً كان أو مُبْطلاً. وجَمْعُه: أَئِمةٌ. وقوله تعالى: ﴿يومَ ندْعُوا كُلَّ أُناسٍ بإمامهم﴾ الاسراء:٧١. أي بالذي يقتدون به. وقيلَ: بكتابهم.

أتريد أن تكون إماماً ؟ إذن عليك أن تهدي بأمر الله !

ولكن: ما هو أمر الله ؟

كلمة (الأمر) هنا تحتمل معنيين، وكلاهما مرادٌ ومقصود:

المعنى الأول: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي بتكليفنا إيَّاهم حينما نكلِّفهم، فقد قام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالتبليغ تنفيذاً لأمر الله عزَّ وجلَّ عندما قال له ربُّه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [٣].

فالمعنى الأول لكلمة (الأمر) هو التكليف. آمرك بشيء: أي أطلب منك، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: بطلبنا منهم وتكليفنا لهم [٤].

المعنى الثاني: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي بشريعتنا وليس بشريعة أخرى، فوسيلة الهداية مشروعة من عند الله عزَّ وجلَّ وليست الوسيلة من عندك [٥].

إذن الإمام في الاصطلاح الإسلامي: هو الذي يهدي بتكليفٍ من الله تعالى، وبمضمونِ شريعة الله.

وأريد هنا بمناسبة الحديث عن معاني كلمة (الأمر) أن أوضح نقطة طالما

---

[٣] الحجر: ٩٤.

[٤] قال الراغب في "المفردات": الأمرُ الشّأنُ. وجَمْعُه أمور. ومصدرُ أمرتُهُ إذا كلّفتُه أن يفعلَ شيئاً. وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها. وقال الطبري في تفسيره المسمَّى "جامع البيان": أئمة، وهي جمع إمام، والإمام الذي يؤتمّ به في خير أو شرّ، وأريد بذلك في هذا الموضع أنه جعل منهم قادةً في الخير، يؤتمُّ بهم، ويُهْتَدى بهديهم. كما حدثنا بِشْر... عن قتادة: ﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأمْرِنا﴾ قال: رؤساء في الخير. وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأمْرِنا﴾ يقول تعالى ذِكره: يهدون أتباعهم وأهل القبول منهم بإذننا لهم بذلك، وتقويتنا إياهم عليه.

[٥] كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جعلناك على شريعةٍ منَ الأمر فاتَّبعها ولا تتبعْ أهواء الذين لا يعلمون﴾ الجاثية:١٧.

أثارت تساؤلات عند الناس، وهي تتعلق بحديث شريف، يقول فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (**إنَّ الله يبعث لهذه الأمَّة على رأس كلِّ مئة سنة من يُجدِّد لها دينها**) [٦]. وفي رواية: (**من يُجدِّد لها أمرَ دينها**).

لقد أخذ الناس اليوم يطالبون بالتجديد، فهم يقولون: نريد أن نجدِّد. أو: نريد مَن يجدِّد. وهم جميعاً يردِّدون هذا الحديث، ويؤيِّدون به دعوتهم إلى التجديد.

ولو سألتهم: ما الذي سنجدِّده ؟ فسيقولون: علينا أن نجدِّد دين الله !

فيجيبهم آخرون: وهل يُجدَّد دين الله ؟!

لقد بحثت عن حلٍّ لهذا الإشكال الواقع بين هذين الفريقين، ووصلت إلى ما يلي:

ينقسم الدِّين من حيث حاجته إلى التجديد إلى:

- دينٌ منزَّل: من عند الله تعالى: يمثله القرآن الكريم والسُّنَّة الثابتة المبيِّنة.
- ودين مُمارَس: يتجلَّى بالنَّاس على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم.

أيُّ هذين الدِّينين يحتاج إلى تجديد ؟

إنَّه الدِّين الممارَس، أما الدِّين المنزَّل فلا يحتاج إلى تجديد.

ولكن ما هو التجديد ؟

التجديد هو أن أرفع من الدِّين الممارَس ما لحق به على أنَّه دينٌ منزَّل وهو ليس منه.

بعبارة أخرى: هناك أشياء كثيرة نقوم بها على أساسِ أنَّها من الدِّين

---

[٦] أخرجه أبو داود، والحاكم وصححه، والطبراني في الأوسط بسند رجاله ثقات. كما ذكر العجلوني في كشف الخفا.

المنزَّل، وهي ليست من الدِّين، فيأتي العالم ليجدِّد لهذه الأمَّة أمرَ دينها المارَس وليجعله أقرب إلى الدِّين المنزل، فيرفع منه ما علِق به ونُسب إليه على أنَّه من الدِّين وهو ليس كذلك.

فالمجدِّد يخلِّص الدِّين من البدع ومن الزيادات [٧]، والنبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: (**مَن أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**) [٨].

بعض الناس اليوم يريدون أن نجدِّد في الدِّين المنزَّل، فيتحدثون عن عدم ملائمة الصَّلوات أو نظام الإرث للحياة المعاصرة كما يرونها.

هم لا يتحدَّثون بالتفصيل، ولكنهم يقدِّمون كلاماً مُجملاً يرفع نظاماً كاملاً ويريد وضع آخر مكانه.

وهذا أمرٌ لا صلة للتجديد به في اعتقادنا، لأنَّه يتناول الدِّين المنزَّل،

---

[٧] ليست كلُّ زيادة يأتيها الناس بدعةً، وإنَّما البدعة من زيادات الناس وممارساتهم - كما يرى أستاذنا الدكتور محمود عكام - ما مسَّ الدِّين المنزَّل، فنَسب إليه - تحليلاً أو تحريماً أو فرضاً أو ندباً - ما ليس منه، وبذلك يتَّضح الفرق ما بين البدعة والسُّنة، فمن فعل شيئاً مباحاً في أصله، غير وارد في الشرع في صورته، وعلم أنه غير وارد في الشرع، فهذا مباح ولا شيء عليه، ومن فعل شيئاً مباحاً في أصله، غير وارد في الشرع في صورته، واعتبر هذا العمل سنة أو واجباً فهذه بدعة. فالعبرة في التمييز ما بين السُّنة والبدعة بالتصور الذي يحمله الإنسان عن فعلته التي يفعلها، فمن فعل مباحاً على أنه سُنَّة فقد ابتدع، ومن فعل سُنَّة على أنها فرض فهو مبتدع أيضاً، وكذلك من فعل واجباً على أنَّه سُنة... كلُّ هؤلاء قد أحدثوا في الدِّين المنزَّل ما ليس منه، فهو مردود، يُردُّ إلى الاعتبار والوصف الذي وصفه الشارع به. وبالتالي ليس كل جديد بدعة، ما لم يكن الجديد حراماً بدليل شرعي صحيح، فإن كان كذلك فهو مرفوض قطعاً، وإنما البدعة من الجديد ما كان حَدثاً، أي ما أحدثنا له وصفاً شرعياً يجعله مندوباً أو واجباً، أو غير ذلك من الأحكام التكليفية، فأخرجناه عن دائرة المباح التي ينتمي إليها.

[٨] متفق عليه. البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جَور فالصلح مردود. ومسلم: كتاب القضية، باب نقض الأحكام الباطلة.

والتجديد يتعلق بالدِّين الممارَس فقط كما قلت.

أخيراً: على المجدِّد أن يتحمَّل ضريبةَ هذا التجديد، لأنَّ التجديد إصلاح، والناس سوف تسفِّهه وتتَّهمه وتقول له: إنك تُحرِّف دين الله... كما اتهم الناس من قبلهم كلَّ المصلحين. لكنه سيظلُّ يدعو من أجل أن يكون الدِّين الممارَس قريباً أو وَفقاً للدِّين المنزَّل.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: أي بتكليفنا وبطلبنا.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: وأيضاً بشريعتنا؛ بالدِّين المنزَّل وليس بالدِّين الممارَس الذي دخلت فيه أشياء ليست منه.

السؤال الثاني:

لقد عرَفْنا وصفَ الإمام من خلال قوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، فما هو شرطه؟ أي: كيف يكون الإنسان إماماً؟

للإمام شرطان اثنان، هما الصبر والإيقان: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

١- الصَّبر: وهو مثابرةٌ واستمرارٌ وتحمُّلٌ وثباتٌ على المبدأ، ومتابعةٌ وإصرارٌ بالرغم من كلِّ ما يصيبك، حتى إذا ما ألمَّت بك مصائب الدنيا وقفت لتقول: **(إنْ لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي)** [٩]؛ هذا هو الصبر.

٢- الإيقان: وهو من أعلى مراتب الإيمان، ولذلك يطلق الإيقان على

---

[٩] أخرجه ابن هشام في "السيرة النبوية"، في ذِكر سَعي الرسول ﷺ إلى ثقيف.

الإيمان بما هو كائنٌ في المستقبل، بينما يتعلّق الإيمان بما كان في الماضي وبما هو كائنٌ الآن.

وإذا نظرتم إلى المواطن التي جاء فيها تعبير الإيقان واليقين في القرآن الكريم فسترون أنّها تتحدث عن الآخرة أو عن وعد الله بالنصر أو عن وعيده بالعذاب، أو غير ذلك ممّا سيأتي.

الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [١٠].

اليقين هو الإيمان في ما سيأتي. وهو هنا، في قوله تعالى:

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾: الإيقان بوعد الله عزَّ وجلَّ بالتمكين والنصر.

فإنْ لم تكن صابراً فلا يمكن أن تكون إماماً!

وإن لم تكن موقناً بوعد الله عزَّ وجلَّ وبنصره، حتى لو انحسر الناس كلُّهم عنك فلن تكون إماماً!

ولكنَّك إذا كنت صابراً وموقناً بوعد الله تعالى فإنَّ الله سينصرك،

---

[١٠] البقرة: ٢-٤. قال أبو حيَّان في "البحر المحيط" عند تفسير الآيات: وأكَّدَ أمرَ الآخرة بتعلُّق الإيقان بها، الذي هو أعلى وآكدُ مراتب العلم والتصديق...، فذكر أن الإيمان والعلم بالآخرة لا يكون إلا إيقاناً لا يخالطه شيءٌ من الشك والارتياب. وغايرَ بين الإيمان بالمُنْزَل والإيمان بالآخرة في اللفظ لزوال كلفة التكرار، وكان الإيقان هو الذي خُصَّ بالآخرة لكثرة غرائب متعلقات الآخرة... فالآخرة أغرب في الإيمان بالغيب من الكتاب المنْزَل، فلذلك خُصَّ بلفظ الإيقان. ولأن المنْزَل إلى الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مُشاهَد أو كالمشاهد، والآخرة غيبٌ صرف، فناسب تعليق اليقين بما كان غيباً صرفاً.

وهذا النصر آتٍ لا شكَّ فيه.

لقد علمنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم من خلال سيرته الصَّبر والتحمُّل، وليس ثمة داعية إلى الله عزَّ وجلَّ تحمَّل أكثر مما تحمل النبيُّ عليه الصلاة والسَّلام، ولكنه كان موقناً بوعد الله تعالى فصبرَ كما أمره ربُّه:

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [11].

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [12].

فكان صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقف في كلِّ موقف حَرِج ليبشِّر بالفَرَج، وبأنَّ وعد الله بالنصر سيأتي.

عن خبَّاب بن الأرتِّ ﷺ قال: شكَونا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم وهو متوسِّدٌ بُردةً في ظلِّ الكعبة، وقد لَقينا منَ المشركينَ شدَّةً، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو اللهَ لنا؟! فقَعدَ وهو مُحْمَرٌّ وجهُه فقال:

(كانَ الرَّجلُ فيمن قبلَكم يُحفَر له في الأرض فيُجعَل فيه، فيُجاء بالمنشار فيوضَعُ على رأسه فيُشقُّ باثنتين، وما يَصدُّه ذلك عن دينه؛ ويُمشَط بأمشاط الحديد ما دونَ لحمِه من عَظم أو عصَب، وما يَصدُّه ذلك عن دينه. واللهِ ليُتمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسير الراكبُ مِنْ صنعاء إلى حضرموت، لا يخافُ إلا اللهَ أو الذئبَ على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون) [13].

عليك أن توقن بوعد الله عزَّ وجلَّ إياك، وينبغي ألا يكون يقينك بهذا

---

[11] يونس: ١٠٩.

[12] الأحقاف: ٣٥.

[13] أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

الوعد قائماً على معطيات متغيِّرة، حتى إذا ذهبتْ هذه المعطيات ذهب يقينك ولم تكن على مستوى الإيقان.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾:

إذا أردتم أن تكونوا أئمةً فالباب مفتوح، وأعتقد أنه بإمكان كلِّ واحد منَّا أن يكون إمامَ هدى، لأنني أؤمن بأنَّ في كل واحد منَّا منَ الصِّفات ما يكفي لئن يكون الرجلَ الأول في أيِّ أمر يريد أن يمشي فيه، فالقدرات التي أعطاها ربِّي لأبي بكر ﷺ هي القدرات نفسها التي أعطاك إيَّاها، ولكنَّ الفرق بينك وبين أبي بكر ﷺ، أنَّ أبا بكر وظَّف هذه القدرات بأمر الله تعالى وأنت توظِّفها على هواك.

كلُّ واحد منَّا يملك القدرات من أجل أن يكون إماماً، لكنَّ المشكلة في التوظيف، فنحن نعطي الطعام مثلاً من الاهتمام النفسي، ومن الناحية الحرفيَّة التقنية والمهارة، ونبذل له من القدرات ما لو وُضعت في مكانها المناسب لصنعت آلة دقيقة، أو لألَّفت كتاباً مثل كتاب الرازي.

نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعلنا أئمة هدى، وألا يجعلنا من الخاسرين يوم يفصل بين الأئمة الحقيقيين والأئمة المزيَّفين.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٥﴾.

من لطائف كلمات القرآن

كلمتا الرؤيا والحُلْم

نحن اليوم أمام كلمتين وردتا في القرآن الكريم، لعلنا نجد اختلاطاً في أذهاننا نحوهما، وهما كلمتا (الرؤيا) و (الحُلْم)، بسكون اللام، أو الحُلُم بالضمِّ، وكلاهما بمعنى واحد، ولكنَّا نسكّن اللام تفريقاً عن (الحُلُم) بمعنى الاحتلام، أي بلوغ سنِّ التكليف [1].

وكلمة (الرؤيا) التي نتحدث عنها هي (الرؤيا) بالألف، أي ما تراه في نومك، وليست هي (الرؤية) بالتاء، لأنَّ هذه تعني الرؤية البصرية.

والسؤال الآن: ما الفرق بين (الرؤيا) و (الحلْم) ؟

---

[1] قال ابن منظور: الحُلْمُ والحُلُم: الرُّؤْيا، والجمع أَحْلام. يقال: حَلَمَ يَحْلُمُ إذا رأى في المَنام. ابن سيده: حَلَمَ في نومه يَحْلُمُ حُلُماً واحْتَلَم وانْحَلَمَ،... وحَلَمَ به وحَلَمَ عنه وتَحَلَّم عنه: رأى له رُؤيا أو رآه في النوم. وفي الحديث: (**من تَحَلَّم ما لم يَحْلُمْ كُلِّفَ أَنْ يَعقِدَ بين شَعيرتين**)، أي قال إنه رأى في النوم ما لم يَرَهُ. وتَكَلَّفَ حُلُماً لم يَرَه. يقال: حَلَم، بالفتح، إذا رأى، وتَحَلَّم إذا ادعى الرؤيا كاذباً، قال: فإن قيل كَذِبُ الكاذبِ في منامه لا يزيد على كَذبه في يقَظَتِه، فلِمَ زادت عقوبته ووعيده وتكليفه عَقْدَ الشعيرتين ؟ قيل: قد صح الخبرُ أن الرؤيا الصادقة جُزْءٌ من النُّبوَّة، والنبوةُ لا تكون إلا وحياً، والكاذب في رؤياه يدَّعي أن الله تعالى أراه ما لم يُرِه، وأعطاه جزءاً من النبوة ولم يعطه إياه، والكاذبُ على الله أعظم فِرْيَةً ممن كذب على الخلق أو على نفسه. والحُلْمُ: الاحتلام أيضاً، يجمع على الأحلام. وفي الحديث: (**الرؤيا من الله والحُلْمُ من الشيطان**)، والرؤيا والحُلْمُ عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء، ولكن غَلَبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلبَ الحُلْمُ على ما يراه من الشر والقبيح؛ ومنه قوله عزَّ وجلّ: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ يوسف:٤٤، ويُستعمل كلٌّ واحد منهما موضعَ الآخر، وتُضَمّ لامُ الحُلُمِ وتسكّن.

أقول: وردت كلمة (الرؤيا) [٢] عدَّة مرات في القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي

---

[٢] قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة": الراء والهمزة والياء أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارِ بعينٍ أو بصيرة. وقال الراغب الأصفهاني في "مفردات القرآن": والرُّؤْيا مَا يُرى في المنام وهو فُعْلَى. وقد يُخَفَّفُ فيه الهمزة فيُقال بالواو. وقال الجوهري في "الصحاح": الرؤيةُ بالعين تتعدَّى إلى مفعول واحد وبمعنى العلم تتعدى إلى مفعولين. يقال: رأى زيداً عالماً. ورأى رَأْياً ورُؤْيَةً وراءَةً، مثل راعَة... ورأى في منامه رُؤْيا، على فُعْلى، بلا تنوين. وجمع الرُؤْيا رُؤى بالتنوين. لكنَّ الخليل بن أحمد الفراهيدي قال في "العين": ولا تجمع الرُّؤيا.

[٣] يوسف: ٤-٥.

[٤] يوسف: ٤٣.

[٥] يوسف: ١٠٠.

[٦] الإسراء: ٦٠.

أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [٧].

وقال الله تعالى عن الحُلْم: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [٨].

هناك فرقٌ دقيق بين الرؤيا والحلم، فالرؤيا إيحاءٌ من الله عزَّ وجلَّ للنائم بأمر سيحدث؛ ولأنَّ الرؤيا إيحاء أو وَحي، فهي أمرٌ ممدوح، كما إنَّ لها تأويلاً، بمعنى أنها سوف تتحقق، فبعدما رأى سيدنا يوسف عليه السلام في منامه أحد عشَر كوكباً والشمسَ والقمر له ساجدين، جاء تأويل هذه الرؤيا بعد سنين عندما دخل عليه إخوته مع أبيه وأمه، وخرُّوا له سُجَّداً.

إذن فتأويل الرؤيا هو تحقُّقُ وقوعها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: **(لم يَبْقَ منَ النبوَّة إلا المبشِّرات)**. قالوا: وما المبشرات ؟ قال: **(الرؤيا الصَّالحةُ يراها المسلمُ أو تُرَى له)** [٩].

---

[٧] الصافات: ١٠٢-١٠٥. ومن المواضع الأخرى التي ذكرت فيها الرؤيا في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿إذ يُريكَهمُ اللهُ في منامك قليلاً ولو أراكَهُمْ كثيراً لَفَشلتمْ ولَتنازعتُمْ في الأمر ولكنَّ الله سلَّم﴾ الأنفال:٤٣. وقوله تعالى: ﴿لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحقِّ لَتدخُلنَّ المسجدَ إنْ شاء اللهُ آمنين﴾ الفتح:٢٧.

[٨] يوسف: ٤٤. وهذه واحدةٌ من آيتين لم يذكر الحلم إلا فيهما، وأمَّا الثانية فهي قول الله تعالى: ﴿بلْ قالوا أضغاثُ أحلامٍ بلِ افتراهُ بلْ هو شاعرٌ﴾ الأنبياء:٥.

[٩] أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب التعبير، باب المبشِّرات. ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنه في حديث أطول: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود.

والنبوَّةُ وحيٌ، فلم يبقَ منها إلا المبشِّرات، أي إلا الإيحاء عن طريق النوم.

ومن المعلوم أنَّ أولَ ما بُدئ به النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم منْ أمر النبوَّة الرؤيا، وفي ذلك تقول السيِّدة عائشة رضي الله عنها: (**أوَّلُ ما بُدِئ به رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم منَ الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح**) [١٠]. أي تحقَّقت فكانت مثل فَلَق الصُّبح.

إذن؛ الرؤيا: إيحاءٌ من الله عزَّ وجلَّ للنائم في نومه عن أمر سيحدث أو سيقع.

وتأويل الرؤيا هو: وقوع هذا الحدث وتحقُّقه.

والذي يُؤوِّل الرؤيا - أي يبيِّن كيف ستتحقَّق، فيخرجُها منَ الصيغة الرمزيَّة إلى الصيغة الواقعية، كما في مثال سيدنا يوسف ﷺ الذي ذكرناه - هم الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام والعلماء المختصُّون بهذا الأمر.

فتفسير الرؤيا علمٌ قائم بذاته، يُدرَس ويُعلَّم ويُلقَّن وليس أمراً عشوائياً، ولذا سمِّيَ الذين يُؤوِّلون الرؤيا "عابرين" [١١] لأنهم يعبُرون من الصيغة الرمزية

---

[١٠] متفق عليه. البخاري: كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي. ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

[١١] والشائع استعمال "معبِّرين" وهو خلاف الأفصح. قال التوحيدي في "البصائر والذخائر": جاء رجلٌ إلى عابر رؤيا. هكذا يُقال، والمعبِّر ضعيف، يقال: استعبرتُه فعبَر، وفي القرآن الكريم: ﴿إنْ كُنتم للرؤيا تَعبُرون﴾ هكذا؛ مِن غير مُحقِّقة. يعني بضمِّ الباء من غير شدَّة. وقال ابن جنِّي في "التمام في تفسير أشعار هذيل" عند شرحه لأحد شواهد كتاب سيبويه، وهو قول الشاعر: "هذا سراقَةُ للقرآن يدرُسُهُ...": أي يدرس درساً. ألا ترى أنَّ قوله "للقرآن" هو مفعول "يدرس"، فإنْ قلتَ: فإنَّ هذا الفعل لا يتعدَّى باللام، ألا تراك لا تقول: درستُ للقرآن. فإنَّه لما قدَّمه جاز إلحاقُ اللام به، لأنَّ تقديم المفعول يُضعف الفعل شيئاً. ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿إنْ كُنْتُمْ للرؤيا تَعْبُرون﴾. أي: تعبُرونها. وقال المبرِّد في "الكامل في اللغة والأدب"، عند تفسير قول أبي النجم العَجلي الراجز: "سُبِّي الحَمَاةَ وابْهَتِي عليها، وإنْ دَنَتْ فَازدلفي إليها": إنَّما يريد "ابْهَتيها"، فوضع "ابْهتِ" في موضع "اكذِبي"، فَمِنْ ثَمَّ وصلَها بـــ "على". والذي يُستعمل في صِلة

إلى الواقعية، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

هنا تبرز مشكلة:

عندما نتحدث عن الإسراء والمعراج نقول: إنَّهما وقعَا بالروح والجسد، حقيقةً يقظةً لا مناماً، والله عزَّ وجلَّ يقول وهو يتحدَّث عن الإسراء والمعراج: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (١٢).

فربما قال المستمع هنا: إنَّ الإسراء والمعراج كانا مناماً، لا يقظةً بالروح والجسد، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ﴾.

وفي الجواب عن ذلك نقول:

لمَّا أوقعَ الله عزَّ وجلَّ الإسراء والمعراج في الليل، الذي هو الوقت المعهود للنوم، سمَّى الله تعالى هذا الحادث (رؤيا)، وليس على أنه أمرٌ حدث في

الفعل اللام، لأنَّها لام الإضافة، تقول: "لزيدٍ ضربتُ ولعمرو أكرمتُ"، والمعنى: عَمْراً أكرمتُ، وإنَّما تقديره: إكرامي لعمرو، وضَرْبي لزيد، فأجرى الفعلَ مجرى المصدر. وأحسنُ ما يكون ذلك إذا تقدَّم المفعول، لأنَّ الفعل إنَّما يَجيء وقد عملت اللام، كما قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿إِنْ كنتُم للرؤيا تَعبُرون﴾. وإن أخَّر المفعولَ فهو عربيٌّ حسَن، والقرآنُ محيطٌ بجميع اللغات الفصيحة؛ قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿وأُمِرْتُ لأنْ أكونَ أوَّلَ المسلمين﴾ الزمر: ١٢. والنحويُّون يقولون في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ عسَى أنْ يكونَ رَدِفَ لكُم﴾ النمل: ٧٢؛ إنَّما هو: رَدِفَكم.

(١٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَما جَعَلْنا الرُّؤْيا التي أرَيْناكَ إلاّ فِتْنَةً للنَّاس﴾. اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: هو رؤيا عين، وهي ما رأى النبيُّ ﷺ لَمّا أُسري به من مكة إلى بيت المقدس...، عن ابن عباس ... قال: هي رؤيا عين أُريَها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به، وليست برؤيا منام... وقال آخرون: هي رؤياه التي رأى أنه يدخل مكة... وقال آخرون ممَّن قال: "هي رؤيا منام": إنما كان رسول الله ﷺ رأى في منامه قوماً يَعْلون منبرَه... وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: عنى به رؤيا رسول الله ﷺ ما رأى من الآيات والعبر ... ليلة أُسري به.

المنام، وإنَّما وقع فعلاً يقظةً لا مناماً، وتعلمون أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أُسري وعُرِجَ به ليلاً، أو في جزء من الليل، فهو يشبه الرؤيا من حيث زمان وقوع الرؤيا، وما فعلَ الله سبحانه ذلك إلا ليختبرَ الناس، ومن أجل ذلك قال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [١٣].

فما دمتَ يا محمَّد قد تركت الناسَ وذهبت إلى بيتك ونِمْتَ في فراشك فأنت بالنسبة لهم نائم، ولما جئتَ في اليوم التالي وحدَّثتهم عمَّا وقع لك حقيقةً ويقظةً كان ذلك اختباراً ومحكّاً لهم.

فهي إذن معجزة سمَّاها الله عزَّ وجلَّ رؤيا بناءً على تصوُّر الناس، ولو أنَّ الله تعالى جعل الأمر مناماً لم يكن هناك أي اختبار، بل كان ذلك مجرَّدَ إخبار من الله عزَّ وجلَّ وانتهى الأمر، وكما نعلم فإنَّ الإخبار يُبطل الاختبار.

وأمَّا الاختبار فلا يكون إلا عندما تخالف الحقيقة الظاهر، فنبوة النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، مثلاً، هي اختبار بحدِّ ذاتها، لأنَّه يقول للناس: أنا أتَّصل بربكم تعالى؛ والظاهر أنَّه واحد من مثل البشر العاديين.

هذا بالنسبة للرؤيا، وأمَّا الحُلْم فهو عبارةٌ عن أُمنيات أو مخاوفَ أو توقُّعات، تفكّر بها الحالم حال اليقظة، ثمَّ انتقلت بالنوم منَ التخيُّل إلى التمثُّل.

---

[١٣] قال أبو حيَّان في "البحر المحيط": وسمَّاه (رؤيا) لوقوعه في الليل وسُرعة تَقضِّيه كأنَّه منام. وقال الشوكاني في "فتح القدير": ولو كان ذلك مجرَّد رؤيا - كما يقوله مَن زعم أن الإسراء كان بالروح فقط وأنَّ رؤيا الأنبياء حقٌّ - لم يقع التكذيبُ منَ الكفرة للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلَّم عند إخباره لهم بذلك، حتى ارتدَّ مَن ارتدّ ممَّن لم يشرح بالإيمان صدراً، فإنَّ الإنسان قد يرى في نومه ما هو مُستبعَد، بل ما هو محالٌ؛ ولا ينكر ذلك أحدٌ.

فالحلم إذن أمرٌ تفكّر به، أو تخافه، أو تريد تحقيقه كأمنية وتتطلّع إليه، فتتخيّله وأنت يقظ، وعندما تنام يتمثّل أمامك، لأنَّ الخيال يتحول إلى شريط يجري أمام عينيك النائمتين.

ولأجل ذلك نقول الحلم: لا تأويل له، وهو ما ظنَّه الملأ في رؤيا الملك، لمَّا لم يدركوا تأويلها، فقالوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

مثلاً:

لو أنَّ أحدهم كان يدرس للامتحان فرأى في منامه أنَّه في ساحة كبيرة، وأنَّ أحدهم يلقي عليه أسئلةً؛ فهذا أمرٌ طبيعيٌّ جداً، لأنَّ ما كان يتخيَّله في اليقظة تمثَّل أمامه في المنام.

ولو تخيَّل أحدهم أنه سيصبح وزيراً فهو يستشرف لذلك، فرأى في منامه أنه يجلس في مجلس الوزراء؛ فهذا أمر عاديّ، ولا يجوز أن يقول: إنَّ الرؤيا التي رأيتها سوف تتحقّق، لأنَّ هذا الحلم عبارةٌ عن تخيلات.

ولو أنَّ إنساناً منَّا قال: رأيت في منامي أنَّ وحشاً يلحقني ويريد قتلي؛ فهذا أمر طبيعيٌّ أيضاً، لأنَّنا نعيش الاضطراب والخوف، فنحن نخاف من بعضنا، ومجتمعنا مجتمعُ خوف... وهكذا.

في النهاية أقول:

ما أكثرَنا اليوم حالمين، وما أقلَّنا رائين لرؤيا، فأكثرُ ما نراه أضغاثُ أحلام وتخيُّلات، وما هي إلا أوهام ومخاوف وتطلُّعات واستشرافات وأمنيات كانت في عالم اليقظة من الخيال، فأصبحت في النوم من المتمثَّلات، فاللهمَّ إنَّا نسألك أن توفِّقنا، وأن تجعلنا مِن أهْل الرؤيا المبشِّرة.

من لطائف كلمات القرآن

الشَّرْح والضيق والحرَج

كنت أقرأ قول الله عزَّ وجلَّ في سورة الشَّرح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، فتوقفت عند اسم السُّورة، وعند هذه الآية، وتساءلت:

السؤال الأول: ما هو الشَّرح، وما دلالته في القرآن الكريم ؟

ذهبت فتتبَّعتُ الآيات القرآنية التي تذكر (الشَّرح)، فوجدتُها خمسَ آيات:

١- ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [1].

٢- ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [2].

---

[1] الأنعام: ١٢٥.

[2] النحل: ١٠٥-١٠٦.

٣- ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [٣].

٤- ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [٤].

٥- ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [٥].

قلت في نفسي: كثيراً ما نستخدم كلمة (الشَّرْح) في صيغة المصدر، كما نستخدم الفعل فنقول: شَرَح يشْرَح، فما الذي تدلُّ عليه هذه الكلمة ؟

وصلت بعد الدراسة إلى ما يلي:

الشَّرح هو: التوسعة وإظهار المحتوى، أي إظهار ما احتوى عليه هذا الذي وسَّعته، فالشرح إذن هو: تبيينُ ما استُودع في هذا الذي وسَّعتَه [٦].

خطرَ في بالي أنَّنا نستخدم عبارة: "شرح الكلمات"، وشرحُ الكلمة يعني توسيعَ الكلمة واستخراج المعنى الذي استُودع فيها، فالشَّارح ينظر إلى حروف الكلمة، وينظر إلى جذرها واشتقاقها، وإلى موقعها في الجملة

---

[٣] طه: ٢٥-٢٦.

[٤] الزمر: ٢٢.

[٥] الشرح: ١-٢.

[٦] يوضح ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" أنَّ الشين والراء والحاء أصلٌ لغوي قليلةٌ اشتقاقاته، يدلُّ على شرح اللحم أي تقطيعه. وهو حقيقة في هذا المعنى مجازٌ فيما سواه. قال الخليل في "العين": الشَّرْح: السَعَة. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَه للإسلام﴾ أي وسَّعَه فاتَّسَعَ لقول الخير. والشَرْحُ: البيان. وقال الزَّبيدي في "تاج العروس": شَرَحَ كَمنع: كَشَفَ، يقال: شرحَ فلانٌ أمرَه، أي أوضحَه. وشرح مسألةً مشكلةً: بيَّنها، وهو مجاز... شَرَحَ الشَّيْءَ يَشْرَحُه شَرْحاً: فتَحَ وبيَّنَ وكشفَ... تقول: شرحْتُ الغامضَ، إذا فسَّرْته...من المَجَاز: شَرَحَ الشَّيءَ، مثل قولهم: شرحَ اللهُ صدرَه لقَبول الخير يشْرَحه شَرْحاً فانشرحَ، أي وَسَّعَه لقَبولِ الحَقِّ فاتَّسعَ.

وترابطها مع ما حولها من كلمات، ويستخرج بذلك ما استُودع في هذه الحروف من معنى؛ هكذا يكون شرحُ الكلمة.

مثلاً، إذا أراد إنسان أن يفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [٧]، فلا بدَّ من أن يأتي إلى كلمة (بوراً) ويفكّكها ويوسّعها، وسوف يجد عندها أنَّ (بُوراً) جمع لـ (بائر). يقال: بار يبور فهو بائر، أي فاسدٌ هالك [٨].

في النتيجة نقول: إنَّ الشرح يدلُّ على أمرين اثنين:

١- التَّوسعة.

٢- استخراج ما استُودع في هذا الشيء الذي وسَّعته.

السؤال الثاني:

إذا كان الشَّرح هو التوسعة فما هو موضوع هذه التوسعة ؟

لاحظوا الآيات التي ذكرناها:

﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾. ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾. ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾. ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾. ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

الحديث كلُّه عن (شرح الصَّدر)؛ إذن فالصَّدر هو موضوع الشَّرح والتوسعة.

---

[٧] الفتح: ١٢.

[٨] قال الرازي في "مختار الصحاح": قال الله تعالى: ﴿وكنتُم قوماً بوراً﴾ وهو جمع بائر، مثل حائل وحُوْل. وقيل إنَّه لغةٌ لا جمْعَ لبائر، كما يقال: أنت بشر وأنتم بشر. وقال الزَّبيدي في "تاج العروس": قال الفرّاء في قوله تعالى: ﴿وكنتُم قوماً بُوراً﴾: البُور مصدرٌ يَستوي فيه الاثنان والجمعُ والمؤنَّثُ. قال أبو عبيدة: رجلٌ بُورٌ، ورجلان بُورٌ، وقومٌ بُورٌ، وكذلك الأُنثى، ومعناه هالك.

والسؤال الآن: ما هو عكس (شرح الصَّدر).

رجعتُ إلى القرآن الكريم باحثاً، وكان مفتاحُ الجواب في أول آية من الآيات السابقة: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

نجد في مقابل معنَيي كلمة (الشَّرح) كلمتين اثنتين هما: (الضِّيق) و(الحرَج)، وقد ذُكرت هاتان الكلمتان مقرونتين بالصَّدر في خمس آيات هي:

١- ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٩].

٢- ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٠].

٣- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [١١].

٤- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [١٢].

---

[٩] الأنعام: ١٢٥.

[١٠] الأعراف: ٢.

[١١] هود: ١٢.

[١٢] الحجر: ٩٧-٩٩.

٥- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [١٣].

ذكرنا أنَّ كلمة (الشَّرح) تدلُّ على أمرين هما التوسعة واستخراج المحتوى، وها نحن نجد مقابل كلمة (الشرح) كلمتين: (الضِّيق) و(الحرَج).

وإذا شئنا التفصيل قُلنا: نجدُ مقابل التوسعةِ: الضيقَ؛ ومقابل استخراجِ المحتوى: الحرَجَ.

سنعيدُ الآن قراءةَ الآيات السابقة حتى نرى ذلك:

١- ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

حرَجاً: ضيقاً غير مُتَّسع، وبالتالي لا يُستَخرج منه المكنونُ الفطريُّ، وإنَّما يُستخرج منه شيء لا يلائم الصَّدر، لأنَّ غير الفطرة لا يمكن أن يَقِرَ في الصَّدر: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [١٤]

٢- ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

لم يَقُل الله عزَّ وجلَّ (في صَدرك ضيق)، لأنَّ صدر النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم اتَّسع هنا لهذا الأمر، فالله عزَّ وجلَّ أوحى إلى النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام

---

[١٣] الشعراء: ١٢-١٣.

[١٤] النمل: ١٤.

أمراً اتَّسع صدره له، ولكنَّه لم يستخرجْه، ولذلك قال له الله تعالى: استخرجْه يا محمَّد ولا يكن في صدرك حرَجٌ منه؛ أخْرِجْه ولا تَخشَ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [١٥]

٣- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾:

يحذِّر اللهُ عزَّ وجلَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم هنا أن يفتنَه كلامُهم وطلبُهم المتواصل للآيات عن أن يتَّسع صدره لاستقبال بعض ما يُوحى إليه [١٦].

٤- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾:

من الطبيعيِّ أن يضيق صدرُ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بما

---

[١٥] الأحزاب: ٣٧.

[١٦] قال الشوكاني في "فتح القدير": فلعلك لعِظَم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب، واقتراح الآيات التي يقترحونها عليك... تاركٌ بعض ما يُوحى إليك مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه، مما يشقُّ عليهم سماعه... قيل: وهذا الكلام خارجٌ مخرجَ الاستفهام: أي هل أنت تارك ؟ وقيل: هو في معنى النفي مع الاستبعاد: أي لا يكون منك ذلك، بل تبلِّغهم جميعَ ما أنزل الله عليك، أحبُّوا ذلك أم كرهوه، شاءوا أم أبوا. وقال الراغب في "المفردات": وقولُهُ تعالى: ﴿فلعلك تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليك﴾ أي يظُنُّ بكَ الناسُ ذلك. وقال أبو حيان في "البحر المحيط": وليس المعنى أنه ﷺ هَمَّ بشيء من ذلك ثم خرج عنه، فإنه لم يُرد قط تَرْكَ شيء مما أوحي إليه، ولا ضاق صدره به، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبُعدهم عن الإيمان... قال الزمخشري: فإن قلتَ: لم عدَل عن ضيِّق إلى ضائق ؟ قلت: ليدلَّ على أن ضيِّق عَارٍ غيرُ ثابت، لأنَّ رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدراً. ومثله قولك: سيِّد وجَواد، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرَّين، فإذا أردتَ الحدوثَ قلت: سائد وجائد. انتهى. وليس هذا الحكم مختصاً بهذه الألفاظ، بل كلُّ ما يُبنى من الثلاثي للثبوت والاستقرار على غير وزن فاعل رُدَّ إليه إذا أُريد معنى الحدوث، فنقول: حاسن مِنْ حَسُن وثاقل من ثَقُل، وفارح مِنْ فَرِح.

يقوله السُّفهاء، ولا يتَّسعَ لقبول ما يقولون، لذا يقول الله تعالى له: أنا أعلم أنَّ صدرك لا يتَّسع لهذا الذي يقولون، فكنْ معي ولا تلتفت إلى عنادهم واستهزائهم وتكذيبهم [١٧].

٥- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾

يطلب سيِّدنا موسى عليه السلام من ربِّه أن يرسل معه هارون عليه السلام لأنَّه أفصح منه لساناً، فقد كان في لسان موسى عليه السلام حَبْسَةٌ فلا يستطيع أن يعبِّر عمَّا في صدره، وهذا سببُ ضيق صدره؛ يضيق صدره على ما فيه لأنَّه لا يُخرَج.

إذن الشرح هو: التوسعة واستخراج المكنون الحقِّ، ويقابلها: الضِّيق، وعدم استخراج المكنون، وهو الحرَج.

يقول الله تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾

أي: وسَّعناه وأخرجنا الحقيقةَ الفطريَّة المستقرَّة فيه، والتي أودعناها نحن أودعناها في صدرك يا مُحمَّد.

هكذا يقول الله عزَّ وجلَّ وهذه من أفضل النِّعم التي أنعم بها الله على النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وعلى كلِّ عبد من عباده.

أمَّا استعمال كلمة الشرح في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ

---

[١٧] قال الشوكاني في "فتح القدير": وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم بمقتضى الجبلَّة البشرية والمزاج الإنساني، ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله سبحانه وحمده... فإنك إذا فعلت ذلك كشف الله همَّك وأذهب غمَّك وشرحَ صدرك.

صَدْرًا﴾، فهو من باب "المشاكلة" [١٨]، فليس من المعقول أن يتَّسع الصَّدر للكفر فيخرجَ منه ما ليس بفطرة، فالأصل أنَّ الصَّدر يتسع للإيمان ولا ينشرحَ للكفر، ولكنَّ الله عبَّر بلفظ الشَّرح زيادةً في تبكيت هؤلاء وتقريعهم فقال: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

فإذا وسَّع الإنسان صدرَه لما يناقض الفطرة فكان الخارج منه كفراً، فعلى هذا الإنسان غضب من الله عزَّ وجلَّ، لأنَّه يخالف الحقيقة كلياً.

ألخِّص فأقول: الشرح هو التوسعة واستخراج المكنون الفطريِّ الذي أودعه الله عزَّ وجلَّ فيك؛ ويقابله: الضِّيق والحرَج، فالضيق في مقابل التوسعة، والحرَج في مقابل استخراج المكنون.

انظروا كيف كان الصحابة الكرام مشروحي الصُّدور مع النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فكانت صدورهم متَّسعةً للكلمة، ولم يكن النبيُّ يُشعرهم بالإحراج إذا أرادوا إخراجها !

---

[١٨] قال التهانوي في "كشاف اصطلاحات الفنون" في تعريف المشاكلة: وعند أهل البديع هي من المحسِّنات المعنوية، وهي ذِكرُ الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صُحبته تحقيقاً أو تقديراً، أي لوقوع ذلك الشيء في صُحبة ذلك الغير وقوعاً محققاً أو مُقدَّراً، فالأوَّل كقوله تعالى: ﴿تعلمُ ما في نفْسي ولا أعلمُ ما في نفسك﴾ المائدة:١١٦، وقوله: ﴿وَمكَرُوا ومكرَ الله﴾ آل عمران:٥٤، فإنَّ إطلاق النفس والمكر في جانب الباري تعالى إنَّما هو لمشاكلة ما معه... وقال الجلبي: إن كان بين الشيء وبين غيره علاقةٌ مجوِّزة للتجاوز من العلاقات المشهورة فلا إشكال، وتكون المشاكلة موجبةً لمزيد حُسْنٍ كما بين السيئة وجزائها في قوله تعالى: ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها﴾ الشورى:٤٠، وقوله تعالى: ﴿فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ البقرة: ١٩٤. لما بين الفعل وجزائه من المشاكلة المعنوية والمماثلة الباطنية.

أرأيتم على سبيل المثال إلى الحُباب بن المنذر ﷺ لما وقف يوم بدر فقال: يا رسول الله. أرأيتَ هذا المنزل؛ أمنزلٌ أنزلكَهُ اللهُ ليس لنا أن نتقدَّمه ولا نتأخَّر عنه، أم هو الرأيُ والحرب والمكيدة ؟ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: (**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**). فقال: يا رسول الله، فإنَّ هذا ليس بمنزل، فانهضْ بالناس حتى نأتيَ أدنى ماءٍ منَ القوم فنَنزله، ثم نُغوِّرَ ما وراءه من القُلُب، ثمَّ نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: (**لقد أشرتَ بالرأي**). فنهض رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ومن معه من الناس فسار فنزل حيث أشار الحُباب [١٩].

لقد استوعب النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مَن أمامه، فانشرح صدره لما في صدورهم فعبَّروا عمَّا في داخلهم بلا حرج. ولقد قلت مرَّةً: القوي هو مَن يُورِّث القوة، والضعيف هو الذي يُورِّث الضَّعف.

ما الفرق بيننا وبين غيرنا ؟

الفرقُ هو أن صدورهم مشروحةٌ بغضِّ النظر عن المكنون، أمَّا صدورنا فغير مشروحة، لا الزوج مع زوجته، ولا الولد مع والده، ولا الأب مع ابنه، ولا التلميذ مع أستاذه، ولا المريد مع شيخه، ولا المسؤول مع مَن هو مسؤول عنهم... إلخ؛ لا أحد منشرح الصَّدر مع أحد.

أرأيتم لو أنَّ أباً أو أستاذاً أو مديراً أو مسؤولاً أو وزيراً قال للناس أمامه: ماذا أنتم فاعلون إن رأيتم اعوجاجاً ؟ ماذا سيجيبونه ؟ سيقولون: لا. لا تقل مثل هذه الكلمة؛ فليس من المعقول أن يظهر منك اعوجاج. كلُّنا يمكن أن

---

[١٩] أخرجه ابن هشام في "السيرة النبوية"، في ذكر غزوة بدر الكبرى.

يعوجَّ ويخطئ، أمَّا أنت فلا يمكن أن تعوجَّ.

نحن لا نستطيع أن نقول لواحد منَّا: أنت مخطىء. وإن قلناها فليس على سبيل النُّصح وإرادة الخير، وإنَّما على سبيل النكاية والانتقام والشماتة... والواعي يقول لمن أخطأ، كائناً من كان: أنت مخطىء !

لقد وقف رجلٌ أمام عمر بن الخطاب ﷺ فقال له: اتَّقِ اللّٰه. فنهاه رجلٌ آخر عن قولته تلك. فماذا كان ردُّ فعل عمر ﷺ ؟

قد نتصوَّر نحن أن عمر ﷺ يُحرجنا ولا يسمح لنا أن نتكلم بكلمة، والحقيقة عكس ذلك، لأنَّ سيِّدنا عمر قويٌّ، والقويُّ يورِّث القوة، وأمَّا الضعيف فهو الذي يورِّث الضعف.

لقد قال عمر ﷺ لهذا الرَّجل الثاني: دَعْهُ. لا خيرَ فيكم إذا لم تقولوها، ولا خيرَ فينا إذا لم نسمعها ![٢٠]

اللهمَّ اشرح صدورَنا لك ولِدينك وللقرآن ولنبيِّك مُحَمَّد صلَّى اللّٰه عليه وآله وسلَّم، ولا تجعل فيها حرَجاً ممَّا قضيتَ.

---

[٢٠] ورد هذا الخبر بصيغ متقاربة في معاجم اللغة وكتب الأدب، وأقدم المصادر المطبوعة ذِكراً له أبو منصور الأزهري المتوفى سنة /٣٧٠/ هجرية، في "تهذيب اللغة" قال: روي عن عمر ﷺ أنَّ رجلاً قال له: اتَّق الله يا أمير المؤمنين. فسمعها رجل فقال: أتألِتُ على أمير المؤمنين ؟! فقال عمر: دعْه؛ فلن يزالوا بخير ما قالوها لنا... قال ابن الأعرابي: معنى قوله: "أتألتُهُ": أتحطهُ بذلك ؟ أتضَع منه ؟ أتنقِصُه ؟ قلت: وفيه وجه آخر، وهو أشبه بما أراد الرجل؛ روى أبو عُبيد عن الأصمعي أنه قال: أَلَتَه يمِيناً يَألِتهُ أَلْتاً إذا أحلفه، كأنه لما قال له: "اتَّقِ الله" فقد نشده الله. تقول العرب: أَلَتُّكَ بالله لما فعلت كذا، معناه نَشَدْتُك بالله. وأمَّا التوحيدي في "البصائر والذخائر" فروى: قال رجل لعمر بن الخطاب ﷺ: اتَّق الله يا أمير المؤمنين. فقال له رجل: لا تَألِتْ أميرَ المؤمنين. فقال عمر: دَعْهُم؛ فلا خيرَ فيهم إذا لم يقولوها، ولا خيرَ فينا إذا لم تُقَل لنا. قال التوحيدي: ومنه قوله تعالى: ﴿وما ألتناهم مِنْ عملهم﴾ الطور:٢١: أي ما نقصناهم.

من لطائف كلمات القرآن

حول كلمتي السَّنَة والعام

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [1].

فما الفرق بين السَّنة والعام ؟

هل هما كلمتان مترادفتان تدلاَّن على المعنى نفسه ؟ أم إنَّ هنالك فرقاً في الدلالة ؟

نظرت في بعض الآيات التي ذُكرت فيها (السَّنة)، إنْ على سبيل الإفراد، أو على سبيل الجمع، وإليكم بعض هذه الآيات على سبيل المثال، وأريد أن ننتبه إلى الكلمات التي تأتي مع كلمة سنة:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [2].

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ

---

[1] العنكبوت: ١٤.

[2] الآيات على التوالي من السور: المائدة: ٢٦. الحج: ٤٧.

رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [٣].

أمَّا الآيات التي فيها لفظ (العام) فهي:

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [٤].

---

[٣] الآيات على التوالي من السور: يوسف: ٤٢. الأحقاف: ١٥. الأعراف: ١٣٠. الكهف: ٢٥.

[٤] الآيات على التوالي من السور: البقرة: ٢٥٩. يوسف: ٤٩. لقمان: ١٤. التوبة: ٢٨. العنكبوت: ١٤.

هذه بعض الآيات التي ذكرت فيها السَّنة أو العام، فما الفرق بينهما إذن ؟

لقد رأيت بعد البحث والتدقيق أنَّ كُلاً منَ السَّنة والعام مُفردة زمنية، وكلتاهما متماثلتان من حيث عدد الشهور ومن حيث عدد الأيام:

فالعام اثنا عشر شهراً، وكذلك السَّنة اثنا عشر شهراً.

والعام ثلاثمئة وخمسة وخمسون يوماً، وكذلك السَّنة ثلاثمئة وخمسة وخمسون يوماً [٥].

لكنَّ الفرق يكمن في أنَّ (السَّنة) في اللغة القرآنيَّة تطلق على ما كانت فيه معاناة وشدَّة من الأزمنة.

فإذا مرَّ عليك اثنا عشر شهراً وعشتَ فيها معاناة، سواء أكانت نتيجة المعاناة وموضوعها خيراً أم شراً، فإنَّك تقول: مرَّت عليَّ سنة [٦].

---

[٥] لا يخفى على القارئ أن المقصود هو السنة أو العام القمري. حيث يُتمُّ القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض في: /٣٥٤/ يوماً و /٨/ ساعات و /٤٨/ دقيقة و /٣٤/ ثانية.

[٦] وعليه توسَّعت العرب في استخدام الكلمة، فاشتقوا الفعل (أسنت)، إذا أتت على الشيء السِّنون فغيَّرته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إلى طعامك وشرابك لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ البقرة:٢٥٩، أي لم يصر كالشيء الذي تأتي عليه السنُون فتغيّره، والنَّخْلة السَّنْهاء: التي أصابتها السنة المجدبة. وقالوا: أصابتهم السَّنة، أي قحطوا وأجدبوا. وقال الشاعر، وهو مطرود بن كعب الخزاعي، يذكر هاشم بن عبد مناف ﷺ جدَّ رسول الله ﷺ:

عَمرو الذي هَشَمَ الثَّريدَ لقَومِهِ ورجالُ مكَّةَ مُسنتونَ عِجافُ.

فإن قيل: ما تقول في قول الله تعالى: ﴿أفرأيتَ إنْ متَّعناهم سنين﴾ الشعراء: ٢٠٥، فقد نسب المتعة، وهي رخاء ورفاهية، إلى السنين ؟ قلنا: ليس استعمال الفعل (متَّعناهم) هنا على ظاهره، بل هو من باب المشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿فبشِّره بعذاب أليم﴾ لقمان:٧. أو قد يقال: إنَّه تعالى نسب المتعة إلى السنين إشارةً إلى ما صرَّح به بعد ذلك، أنَّ هذه المتعة زائلة ومن ورائها عذاب مقيم، ومتعةٌ هذه عاقبتها هي نقمة في حقيقتها، فناسب أن يجعل مدَّها بالسنين، قال تعالى: ﴿أفرأيتَ إنْ متَّعناهم سنين* ثمَّ جاءهم ما كانوا يوعدون* ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتَّعون﴾ الشعراء:٢٠٥-٢٠٧.

وإذا مرَّ عليك اثنا عشر شهراً لم تعانِ فيها وكنت في رخاء، سواء أكان الرَّخاء مشروعاً أم غير مشروع، خيِّراً أم غير خيِّر، فإنك تقول: مرَّ عليَّ عام [٧].

ولاحظوا هذه المعاني في الآيات التي ذكرناها:

- الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والتِّيه معاناة.

- وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ لأنَّ الكلام جاء وصفاً لأيام العذاب الذي يستعجل به المجرمون.

- وقال عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ في كلِّ سنة هو يتعلَّم ويعاني، فلم يبلغ أشدَّه إلا بمعاناة الشدَّة، بعد أن كان أساس حَمْله ووضعه كُرهاً ووهناً.

- وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ بالأيام الشديدة الصعبة.

- وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ لأنَّهم لم يكونوا ميتين، فقد كان الله عزَّ وجلَّ يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، حتى طالت أظافرهم وشعورهم، فهم في معاناة لأنهم نائمون، ولم يكونوا ميتين.

وللمقارنة انظروا ماذا قال الله عزَّ وجلَّ عندما أمات الإنسان؛ لقد قال: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾. لم يقل: مئة سنة، لأنَّ الموت فيه رخاءٌ له

---

[٧] هذا الفرق ما بين دلالة السنة ودلالة العام هو في نطاق اللغة والبيان القرآنيّ كما أشار أستاذنا المؤلف، لأنَّ اللغويين أشاروا إلى فروق أخرى لاحظوها ما بين العام والسنة، فقال أبو هلال العسكري في "الفروق في اللغة": ويجوز أن يُقال العام يفيد كونه وقتاً لشيء، والسنة لا تفيد ذلك، ولهذا يقال عام الفيل ولا يقال سنة الفيل، ويقال في التاريخ سنة مئة وخمسين ولا يقال عام مئة وخمسين، إذ ليس وقتاً لشيء مما ذُكر من هذا العدد.

وليس فيه معاناة. وكذلك هو العام: لا تشعر به، ففيه رخاء سلبي أو إيجابي.

- وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾؛ سمَّاه عاماً لأنَّ الرخاء عمَّ فيه، وأغيث الناس بعد سبعِ سنينَ شدادٍ زرعوا فيها دأباً.

- وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾، وربما قال قائل هنا: أما كان يجب بحسب المعنى الذي مرَّ أن يقول الله عزَّ وجلَّ: (وفصاله في سنتين)، باعتبار أنَّ الإرضاع فيه معاناة ؟

فنقول: المرأة ترضع ولدها لكنها في حالة سرور، فكأنَّ الله تعالى يقول للمرأة: أرضعي ولدك عامين، لأن الإرضاع لمصلحتكما وأنتما به في حالة سرور، فالطفل الرضيع يُسَرُّ والأم المرضع تُسَرُّ أيضاً، وهذه دعوة خفيَّةٌ للإرضاع الطبيعي.

- وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ فعدَّ الفترة التي لَبِثَ فيها نوح عليه السلام يدعو قومه بالسِّنين، لأنَّ فيها معاناة، وأمَّا الفترة التي لم يكن يدعوهم فيها فقد عدَّها بالأعوام، فسيِّدنا نوح عليه السلام لبث في قومه ألف سنة يدعوهم، إلا خمسين عاماً لم يكن يدعو فيها [٨]، فكان في

---

[٨] للباحث الأستاذ علي كيالي فَهْمٌ في قوله تعالى: ﴿فلبثَ فيهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً﴾، إذ يقول: إنَّ نوحاً عليه السلام لبث في قومه يدعوهم ألف سنة كاملة بلا نقصان، وهي المدَّة التي عدَّها القرآن بواحدة (السنة) لما كان يلقاه فيها عليه السلام من العنَت، وأمَّا الخمسون التي عدَّها القرآن بواحدة (العام) فقد كان نوح عليه السلام فيها في سلام، وهي التي عاشها عليه السلام بعد الطوفان، فإنَّ اختلاف واحدة العدِّ يوجب اختلاف المعدود، وعليه لا يصح طرح خمسين عاماً من الألف على سبيل الاستثناء المتصل، لأنَّ المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، فهو إذن استثناء منقطع، وبه يكون مجموع العمر المذكور في الآية ألفاً وخمسين.

فترة الدعوة في معاناة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[٩].

فكرة ثانية:

لو نظرتم إلى القرآن الكريم لرأيتم أنَّ (السَّنة) وردت تسع عشرة مرة؛ منها سبع مرات مفردة واثنتا عشرة مرة بصيغة الجمع (سنين).

أمَّا (العام) فقد ورد مفرداً ثمانيَ مرات، وبصيغة المثنى مرةً واحدة في قول الله تعالى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، لكنه لم يرد بصيغة الجمع أبداً، فكلمة (أعوام) غير موجودة في القرآن الكريم، فما السرُّ في ذلك ؟

الجواب: كأنَّ السرَّ في ذلك رسالةٌ يوجِّهها القرآن إلى الإنسان:

أن يا إنسان؛ لا تستكثر من الرخاء (اللامعاناة)، فلم يذكر الله تعالى العام بلفظ الجمع (أعوام) حتى لا تُكثر على نفسك من أعوام السُّرور؛ بل اعمل فإنَّ الذي لا يعمل لا يذوق طعم الراحة !

لننظر إلى أنفسنا الآن: هل نعيش أيامنا أعواماً أم سنوات ؟

نحن نعيش أيامنا أعواماً لأننا نمضيها في رخاء، فمنه رخاء ايجابي وأكثره رخاءٌ سلبي لأننا لا نشتغل، وإلا هاتوا أروني المعاناة التي نعيشها !

---

[٩] نوح: ٥-٩.

المعاناة لا تكون إلا في السَّعي من أجل هدف كبير، فقل لي ما الذي يهمُّك أقلْ لك من أنت، فإن كان همك كبيراً فأنت تعاني، لكن إن كان همك صغيراً فهذه ليست بمعاناة.

يقول لي بعضهم بحزن: لقد أمضيت ثلاث سنوات وأنا أبحث عن بيت أرقى من البيت الذي أسكن فيه، ولكنَّني لم أعثر عليه.

أهذه معاناة ؟! في حدود البيت والسيارة وجهاز الموبايل واللباس والطعام ؟!

نحن أمَّة تَستهتر بزمنها، والأمَّة التي تستهتر بزمنها ليست بأمَّة حضارية !

الأمة التي يقول أفرادها: سبحان الله ! البارحة كان جمعة واليوم جمعة، إنَّ الأيام تتقلب بسرعة... أمَّة تتدحرج دحرجةً نحو القبر.

هل يمكن لهذه الأمة التي لا تعمل والتي تستهتر بزمنها أن تنتصر على أعدائها ؟! أم إنكم تنتظرون أن يهلك الله عزَّ وجلَّ الأعداء بدون أي جهد منَّا، على مبدأ: "اللهمَّ اضرب الكافرين بالكافرين، وأخرجنا من بينهم سالمين ؟!

لن نكون أمَّة منصورة ولا أمَّة متحضِّرة بدون أي عمل أو جهد.

لن نكون كذلك بمجرد الدعاء من غير عمل، لأنَّ سُنَّة الله عزَّ وجلَّ في الكون لا تسمح بذلك !

سُنَّة الله تعالى التي تجسَّدت في رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، كان دائم الفِكرة، متواصل الأعمال:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[10].

نسأل اللهَ أن يوفِّقنا لما فيه الخير، وأن يعصمنا عمَّا فيه الشرّ.

---

[10] الشرح: ٧-٨.

من لطائف سورة الإنسان

ويطعمون الطّعام على حبِّه

يقول الله عزَّ وجلَّ في سورة الإنسان، أو سورة الدهر كمَّا تسمَّى أيضاً: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [1].

السؤال الأول:

الملاحظ أنَّ القرآن عبَّر بلفظ الإطعام، فقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، وكذلك فعَلَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في قوله: (**تُطعم الطعام**) [2]، ولكننا كثيراً ما نستخدم تعبير (تقديم الطعام)، فما الدلالات التي نستوحيها من هذه الآية ؟ أي لماذا لم يقل القرآن الكريم: (ويقدِّمون الطعام) ؟

أقول في الجواب:

١- عندما عبَّر القرآن الكريم بهذه الكلمة، فقد دلَّ على أن المُطعَم، وهو الذي يأخذ الطعام، إنَّما يأخذه ليتناوله ويأكله، لا ليتصرف به ببيع أو ما شابه، لأنَّه بحاجة إليه، وأكبرُ الخيرِ أن تقدِّم الطعام للإنسان الذي يحتاج إليه ليقيم به حياته، أي للإنسان الجائع؛ فَعليك - لِكَيْ تكون ممَّن يطعمون

---

[1] الإنسان: ٨.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب إطعام الطعام من الإسلام.

الطعام - أن تبحث عمَّن يحتاج للطعام لتطعمه إياه.

٢- لكي يتحقَّق المعطي للطعام بوصف ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، فعليه أن يقدِّم الطعام لمن يحتاجه جاهزاً للأكل وللتناول.

ومن هُنا نقول لمن يقدِّم الطعام: إذا قدَّمت لحماً أو أرزاً أو أي شيء آخر، فقدِّمه جاهزاً للتناول، وإن لم تفعل فقدِّم معه أجر طبخه وثمن إدامه لتتحقق بوصف ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

٣- يشير قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، إلى أنَّ هؤلاء المطعِمين الذين قدموا للسائل الطعام، قد قدَّموا طعامهم الذي كانوا سيأكلونه، لأنَّ (ال) في كلمة (الطعام) هنا هي العهدية الذهنية، فهم يُطعمون ممَّا يَطعمون، أي ممَّا يأكلون عادةً، من نوعه وجنسه، لا ممَّا لا يَطعمون، أي من نوع أدنى.

ويمكن هنا أن نذكر دليلاً على ذلك الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٣].

السؤال الثاني:

ما معنى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾؟

الجار والمجرور هنا متعلِّق بحال مقدَّر محذوف، والتقدير: حالَ كونهم محبِّين لتناوله. أي إنَّهم بحاجة ماسَّة إليه، لأنَّ الطعام لا يحتمل أن يكون موضوعاً للحبِّ، لكنَّه عبَّر بقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ ليشير إلى أنَّهم مُحتاجون

---

[٣] آل عمران: ٩٢.

إليه كحاجة المحبِّ إلى محبوبه ليُطفئ ما في داخله !

وقول الله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ لا يشير إلى الحاجة المادِّية، بل إلى الحاجة النفسية، كحاجة الأم إلى ولدها البعيد عنها، فالتعبير بالحبِّ يشير إلى هذا.

والسؤال الآن: هل نحن ممَّن يطعم الطعام على حبِّه ؟

نحن كما قال بعض علمائنا: نريد أعلى الجنَّات بأبخس الأسعار؛ فهل يقدِّم الغنيُّ ما أمامه من طعام أعدَّه ليتناوله مع أسرته، إلى فقيرٍ طرق بابه ؟

نحن نقدِّم ما زاد عن حاجتنا وفضَلَ عن استخدامنا، ونريد بعد ذلك أن نكون ممَّن يطعم الطعام !

فالآية: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ ...﴾ تعرض صورة راقية جدًّا، صورةَ الذين ينفقون ممَّا يحبُّون؛ مِن كرائم أموالهم، فـ (**إنَّ الله طيِّبٌ لا يَقبل إلا طيِّباً**) [٤].

أتريد أن تصفَ بالطيِّب ما تأكله، وهو كذلك، وأنْ تصفَ بالطيِّب ما تنفقه، وهو ليس كذلك؛ لأنك أنت نفسك لن تصفه بالطيب إذا ما قدِّم إليك ؟!

السؤال الثالث:

مَنْ هو المسكين واليتيم والأسير ؟

المسكين: هو مَنْ سَكَنَ فلم يستطع التحرُّك لعلَّة في ذاته، لا لعلَّة عابرة.

اليتيم: هو من سَكَن فلم يستطع التحرُّك أيضاً، لكن ليس لعلَّة في ذاته، وإنَّما لعلَّة عابرة، وهي علة مركَّبة من أمرين:

١- فقدان المُعيل. ٢- الصِّغر.

---

[٤] أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

الأسير: هو كاليتيم، سَكَن فلم يستطع التحرُّك لكن ليس لعلة في ذاته، وإنما لعلَّة عابرة، وهذه العلَّة هي: منعُ الآخر له من أن يتحرك [٥].

فالثلاثة إذن مساكين؛ فاليتيم مسكين والأسير مسكين أيضاً، إلا أنَّ العلَّة في سكونهما علة عابرة.

فاليتيم مسكين، لكنَّ مسكنته ستزول بزوال السبب، والسبب هو: الصغر وفقد المعيل، وسيزول هذا السبب عندما يكبر هذا الصغير.

والأسير مسكين أيضاً، وستزول مسكنته بزوال السبب، والسبب هو: المنع، وسيزول السبب عندما يطلق من منعه ويغدو حراً.

أمَّا من كان سبب سكونه علَّة في ذاته فهو من نسميه مسكيناً بالمعنى الصحيح.

قد يقال: هذه السورة نزلت في مكة في وقت لم يكن فيه غزو [٦]، فمن أين أتى الأسير؟!

---

[٥] وباعتبار هذا المنع ذهب المفسرون في معنى الأسير مذاهب شتى؛ قال الشوكاني في "فتح القدير": قال قتادة ومجاهد: الأسير المحبوس. وقال عكرمة: الأسير العبد. وقال أبو حمزة الثُّمالي: الأسير المرأة.

[٦] قال أبو حيان الأندلسي في "البحر المحيط": هذه السورة مكية في قول الجمهور. وقال مجاهد وقتادة: مدنية. وقال الحسن وعكرمة: مدنية، إلا آية واحدة فإنها مكية وهي: ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾. وأخرج البيهقي في "السنن الكبرى" كتاب السِّيَر، باب بيع السبي من أهل الشرك؛ عن الحسن في قوله: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ قال: كانوا من أهل الشرك. وأخرج البيهقي في "شعب الإيمان" فصل في المكافأة بالصنائع، عن أبي عبيد القاسم بن سلام عن ابن جريج في قوله عزَّ وجل: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ قال: (لم يكن الأسير على عهد رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إلا من المشركين). قال أبو عُبيد: فأرى أن الله قد أثنى على من أحسن إلى أسير المشركين. فحمل أبو عبيد هذا على ابتداء الإحسان إلى كل واحد.

يقول المفسرون:

المقصود بالأسير في الآية أسيرُ المشركين، وليس أسير المسلمين، أي مَنْ أسره المشركون في عداوة مع مشركين آخرين.

السؤال الرابع:

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

فمن هو قائل هذا الكلام، وما الفرق بين الجزاء والشكور ؟

١- هذه الجملة في محل نصب على الحال، بتقدير قول محذوف، أي: "يقولون: إنَّما نطعمكم"، أو: "قائلين: إنما نطعمكم". فهل قال المطعِمون هذا القول ؟

أنا أتبنَّى ما قاله بعض المفسرين، بأنَّ هؤلاء الذين يطعِمون الطعام لم يقولوا هذا الكلام بألسنتهم ، وإنَّما كان حالهم معبِّراً عن القول، فلمَّا علم الله عزَّ وجلَّ - الذي يعلم منهم السرّ وأخفى - أنهم يطعمون لوجهه تعالى، فقد أخبر عنهم بذلك، والله عزَّ وجلَّ لا يحكي عن أناسٍ مزوّرين أو مدَّعين، وإنما يحكي عن أناس متحقِّقين [٧].

إذن لا يجوز أن يقول المطعِم للمسكين ولليتيم وللأسير: إنما نطعمكم لوجه الله. فإذا قال هذا، فهذا يعني أنه لا يطعمهم لوجه الله.

---

[٧] قال الراغب الأصفهاني في "محاضرات الأدباء": وقول الله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله﴾. قال: فتقديره "يقولون: إنما نطعمكم". قال مجاهد: لم يكن ذلك منهم مقالاً، وإنما أخبر عمَّا كان لهم اعتقاداً.

٢- معنى الجزاء[٨] والشكور[٩]:

الجزاء: هو الثواب الماديّ، والشكور: هو الثناء المعنوي.

أي: نحن لا نريد منكم جزاء مادياً ولا ثناء معنوياً.

ولذلك قال بعض العارفين الفاهمين: نحن نأبى الاحتجاب بالأعراض والأغراض. أي نحن لا نحتجب بالجزاء ولا بالشكور.

---

[٨] قال الراغب الأصفهاني في "مفردات غريب القرآن": والجزاءُ ما فيه الكفاية من المقابلة؛ إنْ خيراً فَخيرٌ وإن شرّاً فَشَرٌّ. يقال: جزيته كذا وبكذا... ويقال: جزيته بكذا وجازيته؛ ولم يجِيءْ في القرآن إلا جَزَى دون جازَى، وذاك أن المجازاة هي المكافأة، وهي المقابلةُ من كلِّ واحد منَ الرجلين، والمكافأة هي مقابلة نعمة بنعمة هي كفؤها، ونعمةُ الله تعالى ليست من ذلك، ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة في الله عزَّ وجلَّ؛ وهذا ظاهر.

[٩] قال الراغب في "المفردات": الشُّكْر تَصور النعمة وإظهارُها، قيلَ: وهو مقلوبٌ عن الكَشْر أي الكَشْف، ويُضادُّهُ الكُفْر وهو نسيان النعمة وسَتْرُها. قال ابن منظور في "لسان العرب": ... شُكُوراً: يحتمل أن يكون مصدراً مثل قَعَدَ قُعُوداً، ويحتمل أن يكون جمعاً مثل بُرْدٍ وبُرُود وكُفْرٍ وكُفُورٍ.

من لطائف سورة الإسراء

ومن الليل فتهجَّد به نافلة لك

يخاطب الله عزَّ وجلَّ نبيَّه الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فيقول له:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [1].

يريد الله تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم المقام المحمود، لذلك يدلُّه على الطريق المؤدِّي إليه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

فهل تريد أيُّها الإنسان أن يكون مقامك محموداً في الدُّنيا والآخرة؟

ومَن منَّا لا يريد ذلك؟!

إذن كيف تصل إلى المقام المحمود؟

بالطريق نفسها التي أرشد الله عزَّ وجلَّ نبيَّه المصطفى إليها.

أتريد أن يكون مقامك محموداً في النهار؟ اُنظرْ ليلك.

أتريد أن تكون في النهار جيداً؟ اعتنِ بليلك.

أخبرني عن ليلك أخبرْك عن نهارك؛ قل لي ماذا تفعل في الليل أقُلْ لك كيف سيكون نهارك!

لكلِّ نبتةٍ جذر مَخفيٌّ، ولها شكلٌ ظاهر هو السَّاق والثمرة، وكذلك يومك أنت أيُّها الإنسان، فيه أساسٌ مخفيٌّ وجذرُ ظاهر، فالليل هو الجذر وهو

---

[1] الإسراء: ٧٩.

أساس النهار؛ الليل مخفيٌّ ومستور مثل الجذر، فإذا كان جذرك جيداً فسوف تكون نبتتك جيِّدة وقوية.

الليل هو الجانب الخفيُّ فيك، وهو مزرعة لما ستجنيه في النَّهار، فمَن حَسُنَ ليلُه حَسُنَ نهاره، لأنَّ الليل هو السَّريرة والنَّهار هو العلانية، وكان النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يدعو: **(اللهمَّ اجعلْ سَريرتي خيراً من عَلانيتي، واجعلْ علانيتي صالحةً)** [٢].

هذا أمر يدركه العقلاء جميعاً، ولقد عرَفت مَثَلاً فرنسياً يشبِّه الليل بالخزانة السرِّية التي يضع الإنسان فيها رصيده الذي لا يعرفه سواه؛ فهيَّا ليراجع كُلٌّ منَّا رصيده. ولذلك جاء الأمر من الله عزَّ وجلَّ للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾.

أتريد يا مُحمَّد أن يبعثك ربُّك مقامك محموداً ؟ [٣] إذن فتهجَّد من الليل نافلة لك.

---

[٢] أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب: في دعاء يوم عرفة.

[٣] ذهب المفسِّرون في معنى المقام المحمود إلى أقوال، أشهرها: هو مقام الشفاعة العامَّة التي يشفعها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يوم الحساب، وقد ورد ذلك في الحديث الصحيح. وقال آخرون: الآية شاملة لكلِّ ما هو مقام محمود، الشفاعة فما دونها؛ قال أبو حيان في "البحر المحيط": قال الزمخشري: معنى المقام المحمود "المقام الذي يحمده القائم فيه، وكلُّ من رآه وعرَفه. وهو مطلقٌ في كلِّ ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات". قال أبو حيان: وهذا قولٌ حَسَنٌ، ولذلك نكَّر ﴿مقاماً محموداً﴾ فلم يتناول مقاماً مخصوصاً، بل كلَّ مقام محمود صدَقَ عليه إطلاق اللفظ. وعلى هذا الرأي جرى أستاذنا المؤلف في هذه اللطيفة؛ وبه يكون معنى ﴿يبعثك﴾ أي في النهار، كما في قوله تعالى: ﴿وهو الذي يَتوفَّاكمْ بالليل ويعلمُ ما جَرحتُم بالنَّهار ثمَّ يَبعثكُم فيه﴾ الأنعام:٦٠.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾: أي من بعض الليل، وليس كلّه، والليل يمتدُّ من بعد العشاء إلى قبل الفجر.

﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾: الهجود هو النَّوم، والتهجُّد مصارعةُ النوم ومغالبتُه [٤].

﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾: بأي شيء تصارع النوم ؟ صارع النوم وقُمْ بالقرآن، من خلال تلاوته في الصَّلاة.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: نافلةً: حال. أي عندما تقوم في الليل حالَ كون هذا التهجد نافلةً، فمصارعة النوم بالقرآن ينبغي أن تكون على سبيل النافلة، فإذا صارعت النوم من أجل أن تصلي العشاء الذي لم تصله قبل النوم، فتلك مصارعة مفروضة، فلا تدخل تحت هذه الآية [٥].

(لك) جار ومجرور متعلقان بصفة مقدَّرة لنافلة.

---

[٤] يقال هجد هجوداً إذا نام. وتهجَّد تهجُّداً إذا استيقظ. ومنه حديث ابن عمر ﷺ: (أخَّر رسول الله ﷺ صلاةَ العشاء حتى نام الناس وتهجَّد المتهجِّدون واستيقظ المستيقظ فخرجَ فأقيمت الصلاة). أخرجه أحمد. قال الراغب الأصفهاني في "مفردات غريب القرآن": الهجود النوم، والهاجد النائم. وهَجَّدتُه فتَهَجَّدَ أزَلْتُ هُجُودَه، نحو مَرَّضتُه. ومعناه أيقظتُه فتيقّظ، وقوله: ﴿ومنَ الليل فتهجَّدْ به﴾ أي تَيَقّظ بالقرآن. وذلك حثٌّ على إقامة الصلاة في الليل. وقال أبو علي المرزوقي في كتابه "الأزمنة والأمكنة": معنى ﴿تهجَّد﴾: أسْهِر. يريد استيقظ، ومعنى ﴿به﴾: أي بالقرآن. ويقال هجَد أيضاً بمعنى نام... ومثل هجَدَ وتهجَّد قولهم: حنَث وتحنَّث. لأن معنى حنَث لم يبرَّ في اليمين، ومعنى تحنَّث ألقى الحِنْثَ - أي الإثم - عن نفسه.

[٥] قال أبو حيان في "البحر المحيط": وقال ابن عباس: ﴿نافلة﴾ زيادة لك في الفرض؛ وكان قيام الليل فرضاً عليه. وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون على جهة الندب في التنفل، والخطاب له والمراد هو وأمته، كخطابه في ﴿أقم الصلاة﴾. وقال مجاهد: إنما هي نافلة له فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ...، فإنما كانت نوافله واستغفاره فضائلَ من العمل وقُرَباً أشرفَ من نوافل أمته لأن هذه - أعني نوافل أمته - إما أن يجبر بها فرائضهم، وإما أن يحطّ بها خطيئاتهم.

﴿عَسَىٰٓ﴾: "عسى" هنا فعل تامٌّ، وهي تأتي للترجِّي، وتقدير الكلام: لتكون على رجاء من أن يبعثك. وقيل: هي بمعنى كي.

﴿أَن يَبْعَثَكَ﴾: المصدر المؤوَّل في محل رفع فاعل لـ (عسى).

﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾: (مقاماً) مفعول مطلق لمعنى (يبعثك)، والتقدير: عسى أن يُقيمك ربك مقاماً محموداً، (محموداً): صفة للمفعول المطلق [٦].

في النهاية: أتريد أن تكون صاحب مقام محمود ؟! هيا إذن لترعى ليلك.

أتريد أن تكون صاحب مكانة رفيعة حقيقية ؟! أرِني ليلَك.

يا أبناءنا، يا شبابَنا، يا أيها المسؤولون: الليلَ الليل ! ليلُنا مهدور، ليلُنا ملوَّث، ليلُنا يعجُّ بالفساد وبالترَّهات وبالضَّياع وباللهو، ولذلك لن يكون نهارنا محموداً.

صحيح أنَّ الغرب لا يصارع الليل بالتهجُّد، لكنَّه يصارعه بالاستقرار وبالنوم المهيِّئ للعمل، فالليل عندهم للنوم وللراحة، ولذلك تراهم يعملون في النهار بشكل جيد، أمَّا نحن فلم نسترح في الليل ولم نعمل في النهار، وكلنا يشكوا التأخرَ وعدم التحضر !

---

[٦] في إعراب ﴿مقاماً﴾ وجوه عدَّة ذكرها أبو حيان الأندلسي في "البحر المحيط"، قال: ﴿مقاماً﴾ الظاهر أنه معمول ليبعثك، وهو مصدر من غير لفظ الفعل لأن يبعثك بمعنى يقيمك؛ تقول: أقيم من قبره وبُعث من قبره. وقال ابن عطية: منصوب على الظرف، أي في مقام محمود. وقيل: منصوب على الحال، أي ذا مقام. وقيل: هو مصدر لفعل محذوف التقدير فتقوم مقاماً. ولا يجوز أن تكون ﴿عسى﴾ هنا ناقصة، وتقدَّمَ الخبرُ على الاسم فيكون ﴿ربُّك﴾ مرفوعاً اسم ﴿عسى﴾ و﴿أن يبعثك﴾ الخبرَ في موضع نصب بها إلا في هذا الإعراب الأخير. وأمَّا في قبله فلا يجوز، لأن ﴿مقاماً﴾ منصوب بـ ﴿يبعثك﴾ و﴿ربك﴾ مرفوع بـ ﴿عسى﴾ فيلزم الفصل بأجنبي بين ما هو موصول وبين ما هو معمول. وهو لا يجوز.

لا أريد أن أتكلم عن السلبيات لكني أعود فأقول: أتريد أن يكون مقامك محموداً ؟ إذن:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾.

من لطائف سورة الإسراء

وقُلْ ربِّ أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق

لا زلنا في الحديث عن بعض لطائف آياتٍ من سورة الإسراء، وقد وصلنا إلى قوله تعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [1].

والسؤال هو:

ما "مُدْخَل الصِّدق" ؟ وما "مُخرَج الصِّدق" [2] ؟ وما "السُّلطان النَّصير" ؟

وها أنا ذا أضرب مثالاً لتوضيح المقصود، ثمَّ نعود إلى الآية الكريمة:

---

[1] الإسراء: ٨٠.

[2] قال ابن قتيبة الدينوري في "أدب الكاتب"، باب مُفْعَل ومَفْعَل بضم الميم وبفتحها، مع فتح العين: ما جاوز بناتِ الثلاثة فلَكَ فيه وجهان؛ تقول (مُخْرَج صدْق) و(مُدْخَل صدْق)، إن جعلتَه مِن: أخْرَج يُخْرِج وأدْخَل يُدْخِل. وإن جعلته من: خَرَجَ ودَخَلَ قلتَ: (مَدْخَل) و (مَخْرَج). وكذلك (مُمْسَى ومُصْبَح) و (مَمْسَى ومَصْبَح). وقال أبو حيان في "البحر المحيط": وقرأ الجمهور: ﴿مُدخَل﴾ و ﴿مُخرج﴾ بضمِّ ميمهما، وهو جار قياساً على (أفعل) مصدراً، نحو أكرمته مُكرَماً أي إكراماً. وقرأ قتادة وأبو حيوة وحميد وإبراهيم بن أبي عبلة بفتحهما. وقال صاحب اللوامح: وهما مصدران من دخل وخرج، لكنه جاء من معنى ﴿أدخِلني﴾ و ﴿أخرِجني﴾ المتقدِّمَين دون لفظهما، ومثلهما: ﴿أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ نوح:١٧، ويجوز أن يكونا اسم المكان وانتصابهما على الظرف. وقال غيره: منصوبان مصدرين على تقدير فِعل، أي: أدخلني فأدخلَ مَدخل صدق وأخرجني فأخرج مَخرج صدق.

لو أنَّ إنساناً قام ليُصلّي الظهر أو العصر، ثمَّ أخبرنا أنَّه صلَّى بدون وضوء، فهل نقول عن هذا الإنسان: إنه دخل إلى الصلاة مَدخل صدق ؟

لا. لم يدخل إلى الصَّلاة مُدخل صدق؛ لأنَّه لم يحضِّر لها عدَّتها المناسبة، ولم يَستَوفِ شروطَها المطلوبة.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾: اجعلني أتحلّى في كلِّ موقف أدخل إليه بالعدَّة المناسبة؛ في عملي... في ذهابي... في إيابي... في دراستي...!

عندما أدخل إلى الصَّلاة وأنا مستعدٌّ لها، وقد هيَّأت نفسي كما يجب، عندها يمكنني أن أقول: ربِّ تقبل منِّي صلاتي؛ وهذا هو مُخرج الصدق.

فمُدخل الصِّدق: أن تحضِّر لكلِّ أمر ما يجب له من عُدَّة وشروط وأركان.

ومُخرَج الصِّدق: أن تخرج بالثمرة المرجوَّة من العمل.

فمُدخل الصِّدق في الامتحان: الدراسة والاجتهاد والاعتماد على الله.

ومخرج الصِّدق فيه: أن تكتب بشكل جيِّد، وأن تنجح.

وهنا نربط بين هذه الآية وما قبلها:

﴿... عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾.

المقام المحمود في الدُّنيا: أن تَدخل إلى أمورك مُدخل صدق، وأن تَخرج منها مُخرج صدق.

مَن منَّا لا يريد أن يدخل إلى صلاته مُدخل صدق، بأن يكون مستعداً لها وقد استوفى شروطها وأركانها ؟! وأن يَخرج منها مُخرج صدق؛ وقد حصَّل الثمرة المرجوة منها ؟! وقِس على الصَّلاة بقيَّة الأمور كلِّها.

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾:

مَن الذي يجعل الأمور مُنتجةً لآثارها ؟

إنَّه الله عزَّ وجلَّ؛ ومن الله تعالى يجب أن تسأل السُّلطان النصير، تعدَّ لكل أمر عدَّته؛ فسؤالك اللهَ تعالى السلطانَ النَّصير يعني أن تطل والتأييد من الله عزَّ وجلَّ ليوفِّقك في قيامك بالعمل، وليمنحَك الثمرة ما

وهذا المعنى مطابق لمبدأ **(اعقلها وتوكل)** [٣] ... فأنت تدخل إلى وقد حضَّرت ودرست، ثمَّ تقول: اللهمَّ اجعل لي من لدنك سلطاناً نص

فسلطان الله تعالى النَّصير ينصبُّ على الدراسة والعمل والص كلِّ أمر تقوم به فيجعلُه منتجاً لآثاره المرجوَّة.

ولو أنك دخلت إلى الصلاة وأنت على غير وضوء، فهل سيتقبَّ وجلَّ منك ؟ وهل ستتقبَّل أنت عملك من نفسك ؟

لقد دخل عمرو بن العاص على مسيلمة الكذَّاب، ومسيلمة ها النبوة مَدخل كذب لا مَدخل صدق ولن يخرج منها إلا مخرج كَ مسيلمة على عمرو بعضاً من وحيه المزعوم، وسأله: ما تقول في فقال عمرو: يا مسيلمة. أمَا والله إنَّك لكاذب، وإنَّكَ لتع الكاذبين"! [٤]

---

[٣] يروي أنس بن مالك ﷺ أنَّ أعرابياً سأل النبيَّ ﷺ عن ناقته: أعقلُها وأتوكَّل، أو أطلقُ ﷺ: (اعْقِلها وتوكَّل). أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب منه.

[٤] ذكر هذا الخبر الذهبي في "سير أعلام النبلاء" في ترجمة عمرو بن العاص. وأورده المعري والشاحج" بألفاظ أخرى، وفيه: "أن عَمْراً قال له: إنَّك لتَعلم أني أعلم أنك تكذب".

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾: يا ربِّ. أنت تخلق النتيجةَ، وتجعل العمل مُنتجاً لأثره، فاجعل عملي مقبولاً عندك منتجاً لأثره المطلوب.

والسؤال الآن: ما الفرق بين "السُّلطان" و "السُّلطان النَّصير" ؟

قد يحقق المُجِدُّ سلطاناً من الله، ولكنَّه لن يكون بالضرورة سلطاناً نصيراً.

بعض الناس يَصدُقون في تبنِّيهم للباطل والعمل من أجله، ويبذلون له ما ينبغي من عمل وسعي، ويتفاعلون معه، وهؤلاء سيأتيهم من الله تعالى سلطان، ولكنه لن يكون سلطاناً نصيراً، بل هو خاذل لهم، وستكون عاقبته السوء.

لقد سمع مسيلمة الكذاب أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم تمضمض في بئر كانت في مياهه ملوحة، فانقلب الماء عذباً فراتاً، فأراد أن يقلِّد ذلك، فبصق في بئر لقومه فانقلب ماؤها ملحاً أجاجاً [٥].

متى يكون السُّلطان سلطاناً نصيراً ؟

عندما تكون مخلصاً الله عزَّ وجلَّ في عملك الذي أتقنته، ولذلك قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: **(إنَّما الأعمال بالنِّيات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نَوى)** [٦].

---

[٥] أخرج ابن أبي الدنيا في كتابه "الإشراف في منازل الأشراف" عن الشَّعبي قال: بلغ مسيلمةَ أنَّ النبي ﷺ كان إذا تفل في بئر عَذُب، فتفل في بئر فصارت أجاجاً. قال: وبلغه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يحنِّك الصبيان، فحنَّك صبياً فخرس. وبلغه أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أُتي بصبي مسح رأسه، قال: فمسح رأس صبي فقرع.

[٦] متفق عليه. البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. ومسلم: كتاب الإمارة، باب قول النبي ﷺ: (إنما الأعمال بالنيَّة).

من لطائف سورة الإسراء

وقل جاء الحقُّ وزهَق الباطل

وصلنا إلى قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [1].

وكنَّا قد تحدثنا عن بعض لطائف الآية السابقة: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾.

وقلنا: إنَّ مدخل الصِّدق أن تدخل كلَّ أمرٍ تريد الدُّخول فيه بكفاءة مناسبة مشروعة. وأنَّ مخرج الصِّدق: أن تخرج بالثمرة المرجوَّة من الأمر أو العمل.

ولذلك قال العلماء في تفسير: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ...﴾: إنَّ الآية خطابٌ عامٌّ للرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في كلِّ أموره [2].

فمن سعى من أجل يدخله ربُّه في هذه الحياة مُدخل صدق، فأتى أمورَه

---

[1] الإسراء: ٨١.

[2] قال أبو حيان في "البحر المحيط": ولما أمره تعالى بإقامة الصلاة والتهجد ووعده بعثه ﴿مقاماً محموداً﴾ ... أمرَه بأن يدعوَه بما يشمل أموره الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿وقُل ربِّ أدخلني مُدخلَ صدق وأخرجني مُخرَج صدق﴾، والظاهر أنه عامّ في جميع موارده ومصادره دنيويَّةً وأخرويَّة. وقال الشوكاني في "فتح القدير": وقد اختلف المفسرون في معنى الآية، فقيل: نزلت حين أُمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة... وقيل: المعنى أمتني إماتة صدق وابعثني يوم القيامة مبعث صدق... وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق، وأخرجني بالصدق. وقيل: الآية عامة في كل ما تتناوله من الأمور فهي دعاء، ومعناها ربِّ أصلح لي وِردي في كل الأمور وصَدري عنها.

جميعاً على أساس من كفاءة ومن مناسبة مشروعة؛ أي على أساس من إيمان وعمل صالح، فسوف يُخرَج منها مُخرج صدق؛ مُخرج الإنسان الناجي من عذاب الآخرة ومن ويلاتها ومِنْ ومنْ.... إلخ

ولقد دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في حياته كلّها وفي أعماله جميعاً مَدخل صدق، فأُخرج منها جميعاً مُخرج صدق.

لقد دخل ﷺ بالهجرة مَدخل صدق إذ كانت هجرته لله، فأُخرج منها مُخرج صدق، فعاد منتصراً وجاء مكة فاتحاً، وكان حول الكعبة المشرفة ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يطعن هذه الأصنام بعود في يده ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

ومعلوم أنَّ هذه الآيات قد نزلت بمكة قبل الهجرة، يوم اشتدَّ بأس قريش على المسلمين، وهمُّوا بإخراج الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أو بقتله، فنزلت هذه الآيات لتعلن أنَّ العاقبة وأنَّ مخرج الصِّدق لمن دخل في أموره مدخل صدق:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

فالباطل زاهق وإن استعلى ظاهراً، وهذا من أسرار التعبير بصيغة الفعل

الماضي في قوله تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

وكأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وهو يتلو هذه الآية مراراً يوم دخوله مكة، يقدِّم المثال العملي لمن أقام الصلاة فتهجَّد بالقرآن، داخلاً في أموره جميعاً مدخل صدق، خارجاً منها مخرج صدق، فلا بدَّ من أن يجلِّيَ الله تعالى من خلاله الحقَّ ظاهراً والباطل زاهقاً.

السؤال الآن: لماذا قال ربيِّ: ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ ولم يَقُل: (وذهب الباطل) ؟

أقول: ليس الحقُّ والباطل شيئين متقابلين؛ أعني: ليس هناك شيء اسمه الحق، وشيء اسمه الباطل، وهما يتصارعان !

الموجود هو الحقُّ وحدَه، وأمَّا الباطل فليس له وجود !

أتدرون ما هو الباطل ؟

إنَّه غياب الحقِّ، فإذا غاب الحقُّ فإنَّ هذا الغياب يسمَّى باطلاً [٣].

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: إذا أتى الحقُّ فسوف يتلاشى الباطل.

﴿زَهَقَ﴾: تلاشى مثل السَّراب [٤]، وهل للسَّراب وجود ؟ قد يبدو بأنَّ له

---

[٣] قال ابن فارس في معجم "مقاييس اللغة": الباء والطاء واللام أصلٌ واحد، وهو ذهاب الشيء وقِلَّة مُكثه ولُبْثه. يقال: بَطَلَ الشيء يَبطُل بُطْلاً وبُطُولاً. وسُمِّي الشيطانُ الباطلَ لأنه لا حقيقةَ لأفعاله، وكلُّ شيءٍ منه فلا مَرْجُوعَ له ولا مُعَوَّل عليه.

[٤] قال الشريف الرَّضي في "تلخيص البيان في مجازات القرآن": وقوله سبحانه: ﴿وزهق الباطل﴾ وهذه استعارة، لأنهم يقولون: زهَقت نفْسُ فلان إذا خرجت، ومنه قوله تعالى: ﴿وتَزهقَ أنفسُهم وهم كافرون﴾ التوبة:٥٥، فالمراد - والله أعلم - وهلك الباطل إنَّ الباطل كان هَلوكاً. تشبيهاً له بمن فاضت نفسُه وانتقضت بُنيته؛ لأنَّ الباطل لا مِساكَ لِذمائه ولا سِماكَ لِبنائه.

وجوداً، ولكنَّه في الحقيقة غير موجود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [٥].

الباطل لا شيء، وإنَّما هو غيابُ الحقُّ، فالأصل في الوجود هو الحقُّ فقط، ونِسبةُ الباطل إلى الحقِّ - من باب التقريب إلى أذهانكم - كنِسبة وجود الصنم إلى وجود الله سبحانه وتعالى، فأيُّ وجود للباطل إذن ؟!

ليس له من الوجود شيء، فإنْ كان له شيء حسب الظاهر فإنَّ هذا الشيء الظاهر لا يسمى شيئاً، بل على العكس، هو يدلُّ على أنه لا شيء أكثر ممَّا لو لم تكن للباطل صورة ظاهرة بالمرة !

أحياناً قد نُشخِّص الذي ليس له وجود "المعدوم"؛ نشخصه تشخيصاً ضعيفاً هو أقوى في نِسبة الضعف إليه ممَّا لو لم نشخِّصْه أبداً.

ومثال ذلك ما ورد في الحديث القدسي: (**يا عبادي: لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيد واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كلَّ إنسان مسألتَه، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلا كما ينقُصُ المِخْيَط إذا أُدخل البحرَ**) [٦].

فهل ينقص شيءٌ ممَّا عند الله ؟... لا. لكنَّ ربي قال هذا من أجل التقريب إلى الأذهان، فلا ينقص شيء ممَّا عند الله عزَّ وجلَّ في الحقيقة.

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾: فالحقَّ هو الحقيقة، أمَّا الباطل فهو صورة وليس له حقيقةٌ على الإطلاق؛ وقد خطبتُ في يوم من الأيام فقلت: إن الأصل هو الحقيقة والصورة ليس لها شيء، كمثل لعبة نُفخت على صورة أسد، فإنَّ قطةً صغيرة

---

[٥] النور: ٣٩. ويقول الله تعالى: ﴿والله يقْضي بالحقِّ والذين يَدْعُون مِنْ دونه لا يقْضُون بشيء﴾ غافر:٢٠، فليس هناك في مقابل الحق الذي يقضي به الله تعالى شيء، فهو وَهْمٌ كما أنَّ الأنداد وَهْمٌ.

[٦] أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم.

ستأتي وتسقطه، لأنَّ الصور ليس لها وجود؛ فالحق هو الأصل والباطل لا شيء.

﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: لم يذهب الباطل لأنَّه لا وجود له، وإنما زهقَ، أي اضمحلَّ وتلاشَى.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾: هذه هي حقيقة الباطل أيُّها الناس، فطَبْعُ الباطل أنَّه زهوق مُضمَحلٌّ وليس له وجود، وهل كنتم تفهمون الباطل غير هذا ؟!

قد يسأل سائل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ولَمْ يكتفِ بقوله: ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ ؟

أقول: هذا تأكيد على القضية التي يريد تقريرها، وهو من باب "التذييل" في البلاغة [٧]، فقد ذيَّل الكلام بأمر يجب أن يكون معروفاً عند الناس.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾: لأنَّ الباطل في طبيعته مُضمحلٌّ وليس له وجود، فكأن القرآن الكريم يقول: سأذكركم للمرة الثانية والثالثة بأن الباطل كان زهوقاً، كان وسيبقى وسيظل زهوقاً، وطبعه الزهوق والاضمحلال، ولا يأخذ

---

[٧] قال التهانوي في "كشاف اصطلاحات الفنون" معرِّفاً التذييل: عند أهل المعاني نوعٌ من أنواع إطناب الزيادة، وهو أن يؤتى بجملة عقيب جملة، والثانية تشتمل على معنى الأولى لتأكيد منطوقه أو مفهومه ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، ويتقرَّرَ عند من فهمه. وهو ضربان -نوعان- : ضربٌ أُخرج مخرج المثل بأن تكون الجملة الثانية حكماً كُلياً منفصلاً عمَّا قبلها، جارياً مجرى الأمثال في الاستقلال وفشوّ الاستعمال كقوله تعالى: ﴿وقُل جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً﴾، فقوله: ﴿إنَّ الباطلَ كان زهوقاً﴾ تذييلٌ لقوله: ﴿وزهقَ الباطلُ﴾ وتأكيدٌ لمنطوقه وهو زهوق الباطل. وضربٌ لم يخرج مخرج المثل، بأن لم يستقلَّ بإفادة المراد، بل توقَّف على ما قبله، أو كان حكماً جزئياً أو كلياً لكنَّه لم يفشُ استعمالُه، نحو قوله تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾ سبأ:١٧، على وجه وهو أن يكون المعنى: وهل نجازي ذلك الجزاء المخصوص ؟ فيكون متعلقاً بما قبله.

وجوده إلا من غياب الحقِّ...؛ نقول هذا من أجل أن ننبِّه أنفسَنا إلى أمرين اثنين:

الأمر الأول: كُنْ مع الحقِّ المطلق حيث ما كان ولا تخشَ.

الأمر الثاني: كُنْ مع الحقِّ النِّسبيِّ في حياتك.

وإياك وأن يخدعك الباطل، فالباطل لا وجود له: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [٨].

لن ينفعك الباطل في الدُّنيا ولا في الآخرة، وسوف يتبرأ منك:

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [٩].

لقد جعل الشيطانُ الناسَ تكفر، ولكنَّه لم يكفر ابتداءً، وهذا دليلٌ على أن الكفرَ شيءٌ غير موجود، ولو كان الكفر أمراً مقبولاً لكفر هو، ولكنَّه لم يكفر ابتداءً، وإنَّما أبَى واستكبر:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [١٠].

لحساب مَنْ يكفرُ الذي يكفرُ ؟ لا أعرف ! فكفرُه ليس لحساب الشيطان، ولذلك سيتبرأ الشيطان منه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [١١].

---

[٨] البقرة: ١٦٦.

[٩] الأنفال: ٤٨.

[١٠] البقرة: ٣٤.

[١١] الحشر: ١٦.

من لطائف سورة الإسراء

وننزِّل منَ القرآن ما هو شفاء

لا زلنا في سورة الإسراء عند لطائف قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾.

بيَّنا بعض ما يمكن بيانه من لطائف الآيات الثلاثة الأولى، ونحن الآن مع الآية الأخيرة:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾.

وأريد أن نجعل مدخلنا إلى فهم هذه الآية من خلال الإعراب، لأنَّه يساعد على فهم المعنى كما يفيد فهم المعنى في الإعراب، فهناك علاقة جدليَّة بينهما.

ولتكن محطتنا الأولى عند (مِنَ) في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

والسؤال هو: ما معنى حرف الجر (منَ) هنا ؟ هل هو للتبعيض أم للتعليل أم لشيء آخر ؟

هناك أقوال كثيرة للعلماء حول هذه الآية، ولها قراءة أخرى بتخفيف الزاي:

﴿وَنُنَزِّلُ﴾ [1]، لكنّي أريد الإشارة إلى قولين في معنى حرف الجرّ (من):

الأول: (مِن) هنا تبعيضية، ويكون المعنى عندها: وننزل بعضاً من القرآن ما هو شفاء ورحمة.

الثاني: (من) هنا بيانية وليست تبعيضية، والمعنى: نحن ننزل على عبادنا ما هو شفاء ورحمة، وهذا الشِّفاء والرحمة هو القرآن.

وهذا هو الرأي الذي أميل إليه، لأنَّ المعنى الأول يقتضي أن يكون بعض القرآن شفاءً وبعضه ليس بشفاء، وهذا غير مقبول عندي، فكلُّ القرآن شفاء ورحمة، وتكون جملة: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ على المعنى الثاني حالاً، والتقدير: وننزل ما هو شفاءٌ ورحمة حال كونه من القرآن الكريم [2].

---

[1] قرأ بها أبو عمرو بن العلاء ويعقوب الحضرمي؛ انظر: محمد فهد خاروف "الميسر في القراءات الأربعة عشرة". وقال أبو حيان في "البحر المحيط": وأجاز الكسائي: ﴿وَرَحْمَةً﴾، بالنصب، عطفاً على ﴿ما﴾... وقرأ زيد بن عليّ: ﴿شفاءً ورحمةً﴾ بنصبهما، ويتخرَّج النصب على الحال، وخبر ﴿هو﴾ قوله: ﴿للمؤمنين﴾، والعامل فيه ما في الجار والمجرور من الفعل، ونظيره قراءة من قرأ ﴿والسَّمواتُ مطويَّاتٌ بيمينه﴾ الزمر:٦٧ بنصب ﴿مطويات﴾... وتقدمُ الحال على العامل فيه من الظرف أو المجرور لا يجوز إلاّ عند الأخفش، ومَن منَعَ جعلَه منصوباً على إضمار (أعني).

[2] قال أبو البقاء العكبري في "التبيان في إعراب القرآن": قوله تعالى: ﴿مِنَ القُرآن﴾: (مِن) لبيان الجنس؛ أي كلّه هدىً من الضلال. وقيل: هي للتبعيض؛ أي منه ما يشفي من المرض. وقال أبو البركات الأنباري في كتابه "الأضداد": وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ونُنَزِّلُ من القُرآنِ ما هو شِفاءٌ﴾، فـ (مِنْ) لَيْسَتْ ههنا تبعيضاً؛ لأنّه لا يكون بعض القرآن شفاءً وبعضُه غيرَ شفاء، فـ (مِنْ) تحتمل تأويلين: أحدهما التحنيس، أي نُنَزِّل الشفاء من جهة القرآن، والتأويل الآخر أن تكون (من) مزيدة للتوكيد، كقوله: ﴿قُلْ للمُؤْمِنين يَغُضُّوا من أَبْصارِهِمْ﴾ النور:٣٠، وهو يريد يغُضُّوا أبصارهم. وقال أبو حيان في "البحر المحيط": ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ القرآن﴾ لابتداء الغاية. وقيل: للتبعيض، قاله الحوفي؛ وأُنكر ذلك لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه... وقيل: لبيان الجنس؛ قاله الزمخشري وابن عطية وأبو البقاء. وقد ذكرنا أن (من) التي لبيان الجنس لا تتقدَّم على المبهم الذي تبيِّنه وإنما تكون متأخرة عنه.

السؤال الثاني: ما المقصود بالشِّفاء والرَّحمة ؟

أنا أفهم أنَّ القرآن الكريم له مهمَّتان:

الأمر الأول الذي يتوجَّه القرآن إلى تحقيقه هو: **الشِّفاء**.

الأمر الثاني الذي يتوجَّه القرآن إلى تحقيقه هو: **الرَّحمة**.

هذا القرآن الكريم هو شفاءٌ للناس من الأمراض التي تعتري قلوبهم وعقولهم، فالقرآن يشفيك من أمراضٍ ألَمَّتْ بك، أعني هو يهيِّئك ويجهِّزك، لأنَّ الشفاء أمرٌ ذاتيٌّ يتعلق بك.

القرآن يشفيني ويُصِحُّني من أمراض ألَمّت بي؛ من أمراض ألَمَّتْ بعقلي كالشكِّ أو الرَّيب أو التِّيه أو الضَّياع، ومن أمراض ألَمَّتْ بقلبي كالقلق والاضطراب والحُزن والكآبة.

فالقرآن يشفيني و يُهيِّئ مني إنساناً سليماً، ويرحمني أيضاً؛ وهذه هي المهمة الثانية للقرآن الكريم، فالقرآن له مهمَّتان: الشفاء والرحمة، ولقد قلنا يوماً عند الحديث عن ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [٣] قلنا:

إنَّ الرَّحمة هي: عطاءٌ نافعٌ برِفْق.

فالقرآن يشفيك: أي يُصحُّك ويسوِّيك ويجعلك في حالة استعدادية فائقة.

والقرآن يرحمك أيضاً: أي يُبيِّن لك قواعد العطاء النافع من أجل أن تتبنَّاها وأن تقوم بها؛ فالقرآن الكريم لم يأت من أجل أن يجعلك إنساناً سليماً فقط، ولكن جاء من أجل أن يجعلك سليماً في ذاتك، وأيضاً من أجل أن يجعلك نافعاً لغيرك خيِّراً.

---

[٣] الأنبياء: ١٠٧.

﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾: ذاتٌ جيدة، فالشفاء هو التكوين الذاتي لك.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾: قواعد العطاء النافع وأسلوبه.

لأنَّك إن كنت سليماً في ذاتك، ولكنَّك لم تكن مُعطياً فأنت نصف إنسان؛ والقرآن جاء للأمرين معاً، ليسويِّك في ذاتك وليجعل منك إنساناً معطياً نافعاً، لأنَّ القرآن يريدك أن تعطي مَن حولك وما حولك عطاء نافعاً برفق.

هكذا نفهم قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾.

وانظروا إلى ما قاله الله عزَّ وجلَّ بعد ذلك: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

السؤال الثالث: ما معنى الظلم ؟

الظلم هو: التجاوز [٤]. علماً أنَّ (الظالمين) في الآية: مفعول به أول للفعل (يزيد) والفاعل يعود على (القرآن)، و (خساراً): مفعول به ثان.

فهذا القرآن لا يزيد من تجاوزه ولم يأخذ به إلا خساراً.

لقد اعترضت هذا الظالمَ في الأصل بعضُ الأمراض في عقله وقلبه، فلمَّا تجاوز القرآن ولم يأخذ به على أنه شفاء لأمراضه العقلية والقلبية، ازداد خساراً، فهو كان خاسراً أصلاً، فلما تجاوز القرآن ازداد خسارة.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾: الظالمون هم المتجاوزون للحدود، ومن جاوز القرآن على أنَّه كتاب الإنسان الذي يشفيه ويرحمه في حياته، وعلى أنَّه كتاب الإنسان الذي يشفع له في آخرته... من جاوزه فهو ظالم، ولا يزداد

---

[٤] قال الراغب في "مفردات القرآن": والظلمُ يُقال في مُجاوزة الحقِّ الذي يَجْري مَجْرى نقطة الدائرة. ويُقَال فيما يَكثُر وفيما يقِلُّ منَ التجاوز، ولهذا يستعملُ في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير.

الظالمون بتجاوزهم للقرآن الكريم إلا خساراً، لأنهم كانوا مرضى في الأصل قبل أن يتلَقّوا القرآن، فلما تجاوزوه ازدادوا مرضاً على مرضهم.

وكأنَّ النداء عامٌّ لكل البشرية:

يا أيُّها الناس. إن سألكم أحد أو إن سألتم: ما مهمة القرآن الكريم ؟ فإنَّ الجواب: للقرآن مهمَّتان:

الأولى: شفاء؛ أي تهيئةٌ لذاتك من أجل أن تكون صالحاً.

والثانية: رحمة؛ أي بيان لقواعد العطاء النافع، من أجل أن تكون إنساناً صالحاً في ذاتك ومصلحاً غيرك.

السؤال الرابع: ربما قال لي بعض الناس: أليس في هذه الآية دليلٌ على جواز قراءة القرآن الكريم على المرضى ؟

من قرأ القرآن على يده التي تؤلمه أو على رأسه، استناداً إلى قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾، فإني أقول له:

هذه الآية ليست نصاً في هذا الذي تريد أن تصل إليه، ولا تدلُّ عليه؛ على أنَّنا لا نمنع من أن تفهم هذا الذي فهمتَه أنت من دلالات هذه الكلمة، لكنها ليست دلالة النص المقصودة أولاً.

بعبارة أخرى: ليس ثمَّة مانع من صحة هذا الذي فهمتَه أنت من دلالات هذه الكلمة، لأنَّ كلمة (شفاء) عامة، لكنها ليست نصاً في ما تقول به من القراءة على المرضى، وإنَّما تنصرف الدلالة الأولى للآية إلى ما ذكرناه من معاني الشفاء.

نحن لا نمنع من هذا الفهم، ولكننا لا ننادي به على أنَّه الدلالة النصِّيَّة لهذه

الآية، فهذه القضية - قضية قراءة القرآن على المرضى - هي لمن يَقتنع وليست من أجل أن تُقنع، فنحن نريد أن نُقْنِع الناس بالأمر الأول الذي ذكرته، وهو أن القرآن شفاءٌ لأمراضنا الإنسانية التي ألمت بنا، والتي نحن بحاجة للشفاء منها، من أجل أن يكون كلٌّ منَّا إنساناً صالحاً وإنساناً خليفة في الأرض.

أقول هذا لأنَّ بعض الناس بالغوا في رفض قراءة القرآن الكريم على المرضى، كما بالغ بعضهم في المقابل في المناداة والدعوة إلى اعتماد قراءة القرآن الكريم على المرضى، ونحن لا نمنعُها ولا ننادي بها.

من لطائف سورة يوسف

ولقد همَّتْ به وهمَّ بها لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه

في سورة يوسف عليه السلام آيات يتوقّف الناس عندها كثيراً، ويختلفون فيها، وهذه الآيات هي قوله تعالى:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [1].

يسألني كثيرٌ من الناس: ما معنى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ ؟

ويضيف بعض الشباب: إذا كان سيِّدنا يوسف عليه السلام قد همَّ بها فنحن معذورون قليلاً ؟!

وقد يذكر هؤلاء وهؤلاء بعضاً من الروايات المختلَقة والإسرائيليات التي وردت في بعض كتب التفاسير على جلال قدْر مؤلفيها.

السؤال الأول:

ما هي المراودة، وما معنى: (راودته عن نفسه) ؟

---

[1] يوسف: ٢٣-٢٤.

المراودة هي المحاصرة بالإغواء، حاصَرَتْه طالبةً منه الفاحشة، إلا أنَّ القرآن عبَّر عن ذلك بـ ﴿رَٰوَدَتْهُ﴾ [٢] فلماذا لم يَقُل: حاصرته ؟

لأنَّ الحصار ينصرف إلى الأمور الماديَّة، كتغليق الأبواب في الآية، وهو غير المراودة، التي هي المحاصرة المعنوية، فهي لم تحاصره في مكان ماديٍّ فقط، ولكنَّها حاصرته معنىً؛ حاصرته في تطلعاته، وفي رغباته، ودعَتْه بإغراء وإغواء.

﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾: كانت المراودة في بيتها، وهو المكان الذي تستطيع التحكُّم فيه، وبدون ذلك لا يتمَّ معنى المراودة، فهي لا تستطيع أن تراود أحداً عن نفسه إذا لم تكن في مكان تسيطر هي عليه، وهذا من أسرار التعبير بإضافة البيت إليها دون زوجها هنا.

أين هي إذن المراودة التي يتخيَّلها بعضهم في الشارع، والشارع مكان مفتوح لا محاصرة فيه، لأنك تملك فيه كما يملك الطرف الآخر الذي تزعم أنَّه يراودك. وأرجو أن يكون المعنى واضحاً، فشبابنا اليوم يظنُّون أنهم يُراوَدون عن أنفسهم ويتوهَّمون ذلك، ليس بدعوة صريحة لكن بدعوة موهومة، فإذا مشَى أحدهم ورأى فتاة التفتت نحوه قال: ولقد راودتني عن نفسي. ثمَّ يقول لي: أعطني قوة سيدنا يوسف حتى أصمد !

---

[٢] قال ابن فارس في "مقاييس اللغة": الراء والواو والدال معظمُ بابه يدلُّ على مجيءٍ وذَهاب من انطلاقٍ في جهة واحدة. تقول: راودْتُه على أن يَفعل كذا، إذا أردْتَه على فِعله. وقال أبو حيان في "البحر المحيط": المراودة: المطالبة برفق، مِنْ: راد يرود، إذا ذهب وجاء، وهي مفاعَلة من واحد، نحو: داويت المريض. وكنَّى به عن طلب النكاح والمخادعة لأجله. كأنَّ المعنى: وخادعتْه عن نفسه، ولذلك عدَّاه بـ (عن).

أين هي المراودة ؟ هذه ليست مراودة يا أخي، وما أنت إلا موهوم.

﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾: أي إنَّها طلبت نفسه، وهو تعبير يُراد منه الإيحاء بما أرادت، فقد طلبته رجلاً لها كامرأة.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾: تستعين بالمحاصرة الماديَّة لتصل بالمراودة إلى أعلى حدٍّ لها.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [٣]: اكتملت المراودة بالدَّعوة، ولو لم تَقُلْ ذلك لكانت المراودة ناقصة، والمحاصَرة غير كاملة.

﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾: السيطرة على المكان.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾: إحكام المكان.

---

[٣] قرئت هذه الكلمة على بضعة أوجه، فمنها: ﴿هِيْتَ لك﴾ وممن قرأ بها نافع، وهي مروِّية عن عليٍّ كرَّم الله وجهه، وقرأ عاصم وأبو عمرو والكسائي وغيرهم: ﴿هَيْتَ لك﴾، بفتح الهاء والتاء، وقُرئت بفتح الهاء وضم التاء أو كسرها أيضاً، قال العكبري في "إعراب القرآن" في معنى هذه الأوجه: والكلمةُ اسمٌ للفعل؛ فمنهم من يقول: هو خبرٌ معناه تَهيَّأت، وبُنِي كما بُني شتّان، ومنهم من يقول: هو اسمٌ للأمر؛ أي أقْبِل وهَلُمّ؛ فمَنْ فتح طلب الخفَّة. ومَنْ كسر فعلى التقاء الساكنَين. ومنهم مَنْ ضَمّ، شبَّهه بحيث. واللام على هذا للتبيين مثل التي في قولهم: سُقْياً لكَ. انتهى. وذُكر عن عليٍّ وابن عباس أنهما قرآ: ﴿هِئْتُ لك﴾ بكسر الهاء وهمزة ساكنة وضَمّ التاء، من الهَيْئة. قال العكبري: وهو على هذا فِعْلٌ مِنْ: هاءَ يَهَاءُ، مثل: شاء يَشَاءُ، ويَهِيء مثل: فاء يفيء. والمعنى: تَهيَّأت لك،... واللاّم متعلّقة بالفعل. وقال أبو حيان في "البحر المحيط": ﴿هيت﴾ اسم فعل بمعنى أسرع. و ﴿لك﴾ للتبيين، أي: لك أقول. أمرَته بأن يسرع إليها. وزعم الكسائي والفراء أنها لغة حورانية وقعت إلى أهل الحجاز فتكلموا بها، ومعناها: تعال... وقال ابن عباس والحسن: بالسريانية، وقال السدي: بالقبطية...، وقال مجاهد وغيره: عربية، تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمة حثٍّ وإقبال... ولا يبعد اتفاق اللغات في لفظ، فقد وُجد ذلك في كلام العرب مع لغات غيرهم.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾: الدعوة الصَّريحة.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [٤]:

هذه كلماتٌ يجب أن تسجَّل على جباهكم يا شباب، ليقول كلُّ واحد منكم: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، أنا لستُ من أولئك الذين يُراوَدون عن أنفسهم بالإغراءات، فيقَعون في الحرام بهذه السُّهولة.

لستُ من أولئك، بل كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: (**سبعةٌ يظلّهمُ الله في ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: ... ورجلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذات مَنْصبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخافُ اللهَ**) [٥].

﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾: أحسن مكانتي وجعلني أرتبط بالأنثى عن طريق شرعه.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: إن كنت سأستجيب لكِ فأنا ظالم، ظالمٌ لنفسي وظالم لكِ وظالمٌ للأمانة.

السؤال الثاني:

نصل الآن إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

---

[٤] ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾: (معاذ) منصوب على المصدر؛ أي: أعوذ بالله مَعاذاً. يُقال: عِذْتُ به عَوْذاً، وعِياذاً، وعِياذَة، ومَعاذاً. (الله) مضاف إليه. وقال محيي الدين الدرويش في "إعراب القرآن الكريم وبيانه": ﴿إنَّه ربِّي أحسنَ مثواي﴾: (إنَّه ربِّي) إنّ واسمها وخبرها، وجملة (أحسن مثواي) حال. ويجوز أن يعود الضمير - الهاء في (إنَّه) - إلى الشأن والحديث، و (ربِّي) مبتدأ وجملة (أحسن مثواي) خبر، والجملةُ خبر إنّ.

[٥] متفق عليه. البخاري: كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش. ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.

لقد ذهبت آراء المفسرين مذاهب شتَّى في فهم (الهمِّ) الذي كان من يوسف عليه السلام، والمسألة بسيطة مفهومة إذا نظرنا إلى الكلمة في سياقها، آخذين بالاعتبار ما قبلها وما بعدها.

انظروا ما قال الله تعالى في الآية السابقة، وهو ما يوضِّح لنا الهمَّ الذي همَّت: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

لقد همَّت به بثلاثة أشياء: المراودة وهُمَا في بيتها، وتغليق الأبواب، والدَّعوة الصريحة.

لم يصفها ربِّي عزَّ وجلَّ بأنَّها همَّت به إلا بعد أن قامت بهذه الأمور الثلاثة.

أما هو فماذا فعل؟ هل استجاب وقال نعم؟

لا. لكنَّه قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وهذا هو همُّه الذي همَّ بها.

ولا يمكننا أبداً أن نقول: إنَّ ﴿هَمَّ بِهَا﴾ مثل ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾.

فهمُّها به كان بأن راودته في بيتها وغلَّقت الأبواب وقالت هيت لك.

أمَّا همُّه بها فكان أن قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ فكيف يصحُّ أن يُقال إنَّه استجاب لها؟! ... هذا غير معقول.

السؤال الثالث:

ما معنى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾؟

(لولا) في اللغة العربية "حرف امتناع لوجود"، أقول مثلاً: (لولا أنَّك صائمٌ لأطعمتك)، فأنا لم أطعمك لأنَّك صائم، فامتنع الإطعام لوجود الصِّيام.

وكذلك هي (لولا) في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، إذ أثبتت وجود شيء وامتناع شيء؛ أثبتت وجود البرهان، فامتنع لوجوده وجود شيء آخر.

ما هو الشيء الذي امتنع وجوده وحصوله من يوسف عليه السلام لوجود برهان ربِّه ؟

هناك احتمالان:

الأول - أن يكون تقدير الكلام: ولقد همَّت به، بالمراودة والتغليق والدعوة لما تريد، فلما رأى برهانَ ربِّه امتنع أنْ يكون همُّه بها كهمِّها به، فكان همُّه بها رفضاً قاطعاً لما دعت إليه. وهذا ما بيَّناه آنفاً.

الثاني - أن يكون تقدير الكلام: ولقد همَّت به بما ذكرنا، فلما رأى برهانَ ربِّه امتنع أنْ يكون له همٌّ بها، أي امتنع الهمُّ لأنه رأى برهان ربِّه، فهو لم يهمَّ بها أصلاً، بل هرب منها محاولاً أن يسبقها إلى الباب.

بعبارة أخرى: لدينا (لولا) حرف امتناع لوجود، ولدينا معها ﴿هَمَّ بِهَا﴾ و ﴿رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، فأيُّ الأمرين وُجد ؟ وأيُّهما امتنع وجوده بسبب وجود الآخر ؟

لا شكَّ في أنَّ يوسف عليه السلام قد رأى برهان ربِّه، إذن فقد وجد البرهان؛ وهذا يؤدي إلى أنَّ الممتنع وجوداً هو همُّه بها، فلم يوجد الهمُّ منه أصلاً.

مستوى الهمِّ في درجات الفعل الإرادي:

من المناسب هنا، بناء على هذا الاحتمال الثاني الذي ذكرناه، أن نبيِّن معنى (الهمِّ) وموقعه بين درجات الفعل الإنساني، فكلُّ فعل من أفعالنا الإراديَّة له ثلاث مراحل: الهمُّ العزم والشروع.

الهمُّ: هو المرحلة أولى، ويعني التفكير والتحضير النفسيَّ للأمر.

ثمَّ يأتي العزم: وهو اتخاذ القرار والتهيئة لمباشرة الفعل.

ثمَّ يليه الشروع: وهو مباشرة تنفيذ الفعل.

فما قامت به امرأة العزيز ينطوي في إطار الهمِّ والعزم والشروع، أمَّا سيِّدنا يوسف عليه السلام فلم يكن منه همٌّ، ولا عزم ولا شروع من باب أولى [٦].

ولذلك أخبر الله عزَّ وجلَّ عنها بصيغة التأكيد فقال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾، فأكَّد الكلام بـ (اللام) التي هي جواب القسم المحذوف، والتقدير: والله لقد همَّت به.

لقد همَّتْ به وتأكد همُّها. كيف تأكَّد همُّها ؟ من خلال ثلاثة أمور: المراودة في بيتها، وتغليق الأبواب، وقولها: هيت لك.

بينما قال الله تعالى مُخبراً عن يوسف: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِ﴾،

---

[٦] قال أبو حيَّان في "البحر المحيط": والذي أختاره أنَّ يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ بها البتة، بل هو منفيٌّ لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفتَ لولا أن عصمك الله. ولا تقول: إنَّ جواب لولا متقدم عليها. وإنْ كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريحُ أدوات الشرط العاملة مختلَفٌ في جواز تقدم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد. بل نقول: إنَّ جواب لولا محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلتَ. فيقدِّرونه: إن فعلتَ فأنت ظالم. ولا يدلُّ قوله: "أنت ظالم" على ثبوت الظلم، بل هو مُثبَت على تقدير وجود الفعل. وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربِّه لهمَّ بها. فكان يوجد الهمُّ على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنَّه وُجد رؤية البرهان فانتفى الهمُّ... قوله: ﴿وهمّ بها﴾ [ليس] هو جواب لولا، ونحن لم نقل بذلك، وإنما هو دليل الجواب، و ... من ذهب إلى أن قوله: ﴿وهمَّ بها﴾ هو نفس الجواب لم يبعد... وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب؛ قال الله تعالى: ﴿إنْ كادَت لَتُبدي به لولا أنْ ربَطنا على قلبها لتكونَ من المؤمنين﴾ القصص:١٠، فقوله: ﴿إنْ كادت لَتُبدي به﴾، إمَّا أن يَتخرَّج على أنَّه الجواب، على ما ذهب إليه ذلك القائل، وإمَّا أن يتخرَّج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به... ومساقُ الآيات التي في هذه السورة مما يدلُّ على العصمة، وبراءة يوسف عليه السلام من كلِّ ما يَشين.

فلم يقل (ولقد همَّ بها)، لأنَّه لم يحصل منه الهمُّ أصلاً لما سبق له من رؤية برهان ربِّه.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾: ما البرهان الذي رآه ؟

البرهان في اللغة: هو الدليل الثابت بالعِيان، أو ما فيه قوةُ إثباتِ الدليل كقوة العين؛ فكأنَّ أمرَ الله عزَّ وجلَّ ليوسف عليه السلام في أن يحفظ نفسَه، ونهيَه له عن الفاحشة قد تمثَّلا أمامه ووضَحَا، وضوحاً كأنه قد رآهما بعينيه.

السؤال الرابع:

ما الفرق بين السُّوء والفحشاء، وما معنى (المخلَصين)، في قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ؟

السُّوء: هو الهمُّ بالفاحشة والعَزم عليها.

أما الفحشاء: فهي القيام بالفِعلة الفاحشة.

فهَمُّ الإنسان وعزمه على ارتكاب الفاحشة سوء، وتنفيذه لما عزم عليه فاحشة، وكلاهما لم يحصلا من يوسف عليه السلام بما صرف الله تعالى عنه ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ﴾ [٧].

---

[٧] قال أبو حيان في "البحر المحيط": قال الزمخشري: الكاف منصوبة المحل، أي: مثل ذلك التثبيت ثبَّتناه. أو مرفوعة، أي: الأمر مثل ذلك. وقال ابن عطية: والكاف من قوله: ﴿كذلك﴾ متعلقة بمُضمَر تقديره: جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك لنصرف. ويصحُّ أن تكون الكاف في موضع رفع بتقدير (عصمتُه كذلك لنصرف)... وأقول: إنَّ التقدير "مثل تلك الرؤية – أو مثل ذلك الرأي – نُري براهيننا لنصرف عنه". فتجعل الإشارة إلى الرأي أو الرؤية، والناصب للكاف ما دل عليه قوله: ﴿لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه﴾. و ﴿لنصرفَ﴾ متعلق بذلك الفعل الناصب للكاف.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: عندما تكون عبداً لله مخلِصاً فسوف يستخلصك له، لأنَّ الجزاء من جنس العمل.

كُن مخلصاً للهِ يُخلصْك اللهُ له، وإذا أخلصك الله عزَّ وجلَّ له فسوف يريك براهينه رأيَ العين عندما تقع في مشكلة، وينجِّيك ويجعلك تقول كلمةً تتناسب مع موطن الفتنة التي أنت فيها؛ كلمةً كتلك الكلمة التي قالها يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ما أجمل هذه القصة من أجل أن تُقدَّم لوحةً لشبابنا، مثالاً للمؤمن الذي اعتصم بدينه أمام المغريات، ولم يقابل الجريمة بالجريمة.

لقد قرأت في بعض كتب التفسير أنَّ همَّ يوسف عليه السلام كان بضرب تلك المرأة، وهو معنى لا يتناسب وشخصيَّةَ يوسف عليه السلام وكلّ مؤمن مخلِص.

أيجب علينا أن نضرب كلَّ من عرض علينا فاحشة ؟

أيجب علينا أن نسبَّ كلَّ من سبَّنا ونشتمَ من شتمنا ؟

لقد أصبحنا هكذا أحياناً، بل وكاد معظمنا يكون كذلك !

ما هكذا تورد يا سعد الإبل ! وهذا اللسان يجب أن نحفظه، والمسلم العبدُ لله المنقادُ المخلِصُ محفوظٌ لسانُه، ولا يقابل الإساءة بمثلها:

(لا تكونوا إمَّعةً تقولون: إنْ أحسنَ الناسُ أحْسَنَّا، وإنْ ظلمُوا ظلَمْنا؛ ولكنْ وطِّنوا أنفسَكم: إنْ أحسنَ الناسُ أن تُحسِنُوا، وإنْ أساؤوا فلا تظلموا) [٨].

---

[٨] أخرجه الترمذي: كتاب البرّ، باب ما جاء في الإحسان والعفو. إمَّعة: مُقلِّد يتبع كل دعوة لأنَّه لا رأي له.

ويوسف عليه السلام قال منذ البداية: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

فكيف نقول: إنَّه همَّ بضربها ؟![9]

نسأل الله تعالى أن يُحسِن مثوانا جميعاً وأن يجعلنا من الراشدين ويصرف عنَّا السُّوء والفحشاء.

---

[9] قال فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير "مفاتيح الغيب": إنَّ الذين لهم تَعلُّق بهذه الواقعة هم يوسف عليه السلام، والمرأة، وزوجُها، والنِّسوة، والشهود، وربُّ العالمين، وإبليس؛ وكلهم قالوا ببراءته عليه السلام عن الذَّنب، فلم يبقَ لمسلم توقُّف في هذا الباب. أما يوسف عليه السلام فلقوله: ﴿هيَ راودتْني عن نفسي﴾ يوسف:٢٦، وقوله: ﴿ربِّ السِّجنُ أحبُّ إليَّ مما يدْعونني إليه﴾ يوسف:٣٣. وأمَّا المرأة فلقولها: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ يوسف:٣٢...، وأمَّا زوجها فلقوله: ﴿إنَّه مِنْ كيدكنَّ إنَّ كَيدكنَّ عظيم﴾ يوسف:٢٨. وأمَّا النِّسوة فلقولهنَّ: ﴿امرأة العزيز تُراودُ فتاها عن نفسه قد شغفَها حبًّا إنَّا لنراها في ضلال مبين﴾ يوسف:٣٠، وقولهنَّ: ﴿حاشَ لله ما علمنا عليه مِنْ سوء﴾ يوسف:٥١. وأمَّا الشهود فقوله تعالى: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ يوسف: ٢٦ إلى آخره. وأمَّا شهادة الله تعالى بذلك فقوله عزَّ مِنْ قائل: ﴿كذلك لنصرفَ عنه السُّوءَ والفحشاءَ إنَّه من عبادنا المخلَصين﴾ يوسف:٢٤. وأمَّا إقرار إبليس بذلك فبقوله: ﴿فبعزَّتك لأغوينَّهم أجمعين إلا عبادكَ منهمُ المخلَصين﴾، فأقرَّ بأنه لا يمكنه إغواءُ العباد المخلَصين، وقد قال الله تعالى: ﴿إنَّه من عبادنا المخلصين﴾.

من لطائف سورة آل عمران

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا

نحن مع آية كريمة نردِّدها كثيراً ونستمتع ونحن نردِّدها، لأنها آية تدعو إلى الجماعة، ألا وهي قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [1].

والسؤال الذي أبحث عن جواب له هو:

ما هو الاعتصام؟ ولماذا قال ربُّنا عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: واعتصموا بالله؟ علماً أن الآية التي قبل السابقة لهذه الآية تضمنت هذا التعبير الثاني، وهي قوله تعالى:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ...﴾.

---

[1] آل عمران: ١٠٣.

إذن نحن أمام آيتين كريمتين:

١- ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٢- ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾.

أولاً- ما معنى الاعتصام ؟

الاعتصام: هو التمسك بالكليَّة، فإذا تمسَّكت بالشيء بكلِّيَّتي ظاهراً وباطناً - بقلبي وعقلي ويدي ... - فهذا اعتصام.

إذن كيف نتمسك بالله تعالى بكلِّيتنا تمسكاً مادياً ومعنوياً ؟! كما قال ربُّنا عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

التمسُّك المعنويُّ ممكن هنا، كأن تعتصم بالله في داخلك وتجعل قلبك معلَّقاً بربك، أمَّا التمسُّك الماديُّ فغير ممكن.

لذلك قال ربي عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾: من يُرِدْ أن يعتصمَ بالله تعالى ويتمسَّكَ به.

﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فسوف نهديه إلى شيء يتمسَّك به مادةً ومعنى، قلباً وقالباً، وإذا تمسَّك به كذلك فكأنَّما تمسَّك بالله تعالى.

ثانياً- ما هذا الصراط المستقيم الذي يهدي الله عزَّ وجلَّ إليه من أراد الاعتصام به تعالى ؟

جاءت الآية لِتُبيِّن هذا الصراط المستقيم: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، أي هو القرآن الكريم؛ الصراط المستقيم هو حبل الله، وحبل الله هو القرآن،

ولذلك ورد في الحديث الشريف عن عليٍّ كرَّم الله وجهَه:

سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: (**ألا إنَّها ستكون فتنةٌ**). فقلت: ما المخرجُ منها يا رسول الله ؟ قال: (**كتابُ الله؛ فيه نبأ مَن قَبْلكم وخَبرُ ما بعدَكم وحُكْمُ ما بينكم، هو الفَصْلُ ليس بالهَزل، مَن تركَه مِنْ جبَّار قصمَه اللهُ، ومن ابتغَى الهُدى في غيره أضلَّه الله، وهو حبلُ الله المتينُ، وهو الذِّكر الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيم... مَنْ قالَ به صدَقَ، ومَن عَمِلَ به أُجِرَ، ومَن حكَمَ به عدَلَ، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم**) [٢].

إذن، ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى القرآن الكريم، وإذا اعتصمتم بكلِّيتكم ظاهراً وباطناً بالقرآن الكريم فكأنَّما اعتصمتم بالله عزَّ وجلَّ، لأن القرآن هو حبل الله.

ثالثاً- كيف سُميَّ القرآنُ حبلَ الله ؟

لو أردتُ أن أنقذ شخصاً يغرق في الماء، فإنِّني أرمي له حبلاً، فطرَفُ الحبل في يدي وطرفه الآخر في يد هذا الإنسان الذي أريد أن أنقذه، وكذلك هو القرآنُ حبلٌ ينقذك به الله من التردِّي في النار، وقد ورد ذلك في حديث زيد بن أرقم ﷺ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم قال: (**إنِّي تاركٌ فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلُّوا بعدي، أحدهما أعظم منَ الآخر، كتابُ الله حبلٌ ممدودٌ منَ السَّماء إلى الأرض، وعِترتي أهلُ بيتي، ولن يتفرَّقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض؛ فانظروا كيف تخلفُونني فيهما**)، وفي رواية أخرى: (**كتابُ الله هو**

---

[٢] أخرجه الدارمي: كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن. والترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن.

حبلُ الله، من اتَّبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على الضلالة) [٣] [٤].

﴿جَمِيعًا﴾: أي ليتمسَّك كلٌّ منكم بالقرآن بكلِّيته ظاهراً وباطناً قلباً وقالباً، ولتتمسَّكوا به وأنتم جميعٌ متَّحد، لأنَّ اعتصام كلِّ واحد منكم بالقرآن، ولكن بشكل منفرد عن الجماعة، ومن دون أن تكونوا صفاً واحداً اعتصامٌ غير كافٍ، فالله عزَّ وجلَّ يريد منَّا أن يكون هذا الاعتصام كافياً حتى نحقق ما من أجله اعتصمنا، ولذلك يجب أن نتمسَّك بحبل الله أفراداً، وأن نتمسَّك به كلُّنا جميعاً.

الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، أي تمسَّكوا بالقرآن

---

[٣] أخرجها مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عليّ. والرواية الأولى بلفظ الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ. وأخرجه الدارمي: كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن. والحاكم: كتاب معرفة الصحابة، باب إني تارك فيكم الثقلين، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

[٤] قال الشريف الرَّضي في "مجازات القرآن": وقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله﴾؛ وهذه استعارة، ومعناها: تمسَّكوا بأمر الله وعهده إليكم، والحبال: العهود في كلام العرب. وإنَّما سُمِّيت بذلك لأن المتعلِّق بها ينجو مما يخافه، كالمتشبِّث بحبلٍ إذا وقع في غَمْرة، أو ارتكسَ في هوَّة، فالعهود يُستأمَن بها من المخاوف، والحبال يُستنقَذ بها من المتالف، فلذلك وقع التشابه بينهما. وقال مجد الدين ابن الأثير في "النهاية في غريب الحديث": (كتاب الله حَبلٌ ممدودٌ من السَّماء إلى الأرض) أي نُورٌ مَمدودٌ، يعني نُورَ هُدَاه. والعرب تُشبّه النورَ الممتدَّ بالحبْل والخيط. ومنه قوله تعالى: ﴿حتّى يتبيَّنَ لكُمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود﴾ البقرة:١٨٧، يعني نُور الصُّبح من ظلمة الليل. وفي حديث آخر: (وهو حَبْل الله المَتين): أي نور هُدَاه. وقيل عَهْده وأمانُه الذي يُؤمِّن من العذاب. والحبل: العهد والميثاق... ومنه الحديث: (بيننا وبين القوم حِبال) أي عهود ومواثيق. انتهى.

قلت: وفي التنزيل العزيز: ﴿ضُربت عليهمُ الذلّة أين ما ثُقفوا إلا بحبلٍ منَ الله وحبلٍ منَ الناس﴾ آل عمران:١١٢. وقد وقع المعنى في قوله تعالى: ﴿واعتصموا﴾ مناسباً لما بعده ﴿بحبل الله﴾، لأنَّ العرب تسمِّي العهد والميثاق بأسماء الحبل، فسمَّته حبلاً وسبباً وعِصاماً، وجمعه عُصُم، أو عِصَم كما في قوله تعالى: ﴿ولا تُمسكوا بعِصَم الكوافر﴾ الممتحنة:١٠.

بكلّيَّتكم ولتتمسَّكوا به كلّكم، ولكنْ يجب أن يكون هذا التمسُّك مِنْ قِبَل كلّكم على أساسٍ مِنْ تفاهم؛ على أساسٍ مِن تنظيم؛ على أساسٍ مِن مجتمع؛ على أساس مِن علاقات مؤصَّلة، وليس على أساسٍ مِن فوضى، فإذا تمسَّكتم كلُّكم بكلّيتكم بشكل فوضوي لم تحققوا المراد.

﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾: يؤكّد الله تعالى على الاجتماع ونبذ الفُرقة بصيغتي الإيجاب والسَّلب معاً، فهو يأمرنا بما يحبُّ منَّا وينهانا عن ضدِّه للتأكيد عليه؛ وكان يكفي أن يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، من غير أن يقول: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، لكنَّه عزَّ وجلَّ أمرنا به ونهانا عن ضده لأنه يريد أن يؤكّد لنا أهميَّته.

السؤال الثاني:

يتابع القرآن خطابه لنا فيقول: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

أولاً- ما تعريف النِّعمة ؟ وما هي النِّعمة التي يأمرنا ربُّنا أن نذكرها ؟

لقد تبيَّن لي بعد بحث وتمحيص أن النِّعمة هي: أمرٌ نافع تُعطاه من دون مقابل، فإذا ما رعَيْتَه فإنَّك سوف تكون في النَّعيم [٥].

---

[٥] ورد في القرآن الكريم النِّعمة بكسر النون، والنَّعمة بفتحها، قال ابن فارس في "مقاييس اللغة": النِّعمة: ما يُنعم الله تعالى على عبده به من مالٍ وعيش... والنِّعمة: المنَّة، وكذا النَّعْماء؛ والنَّعْمة: التنعُّمُ وطيبُ العيش، قال الله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ الدخان:٢٧. وقال ابن منظور في "لسان العرب": والنَّعْمةُ، بالفتح: التَّنْعيمُ. يقال: نَعَّمَه الله وناعَمه فتَنَعَّم. وفي الحديث: (كيف ألْعَمُ وصاحبُ القَرْنِ قد الْتَقَمه ؟). أي كيف أتَنَعَّم، من النَّعْمة، بالفتح، وهي المسرّة والفرح والترفُّه.

النَّعيم منَ النِّعمة، فرعاية النِّعمة ستؤدِّي بك إلى النَّعيم في الدُّنيا وفي الآخرة.

ما الأمر النافع الذي أُعطيناه بدون مقابل ؟ ... إنَّه الإسلام !

إنَّه الإسلام الذي أُعطيَه آدمُ وأعطيَه نوحٌ وإبراهيمُ وموسىٰ وكلُّ الأنبياء عليهم الصلاةُ والسَّلام، لأنَّ الأنبياء جميعاً مسلمون، وقد أمروا أقوامهم أن يكونوا مسلمين:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [٦].

النعمة والأمر النافع الذي أُعطيناه بدون مقابل هو الإسلام؛ وحيثما وردت النِّعمة مضافة إلى الله عزَّ وجلَّ فهي الإسلام... النعمة هي دين الإنسان حينما يرضاه الله عزَّ وجلَّ، وهل يمكن أن يرضى اللهُ تعالى لنا أيَّ دين ؟:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [٧].

---

[٦] البقرة: ١٣٠-١٣٣.

[٧] المائدة: ٣.

رضيَ الله لنا الإسلام ديناً، فالإسلامُ هو النعمة التَّامَّة [٨].

ثانياً- ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾:

لقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، ثم قال: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾، ولم يقل: (إذ كنتم متفرَّقين)، فقد ذكر اللهُ تعالى نتيجة التفرُّق وهي العداوة، وذلك من أجل أن ينفِّرنا من التفرُّق.

ثالثاً- ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾:

قد يسأل إنسان: بأيِّ شيء ألَّف الله عزَّ وجلَّ بين قلوبهم ؟

والجواب: بنعمته التي هي الإسلام.

إذن لماذا لم يقُل: (فألَّف بين قلوبكم بنعمته) ؟

والجواب: هذا كلامٌ دلّ آخِرُه على معنى أوَّله، وهو من فنون البلاغة [٩]، فلم يصرح بالمراد لأنَّ الكلام الذي بعد قوله: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ يدلُّ عليه، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾، وتقدير الكلام: فألف بين قلوبكم بنعمته، أي بالإسلام، فأصبحتم بنعمته إخواناً.

وبما أنَّ تكرار الكلمة نفسها (النِّعمة) غير مستحب في اللغة العربية، فقد

---

[٨] نقل الأزهري في "تهذيب اللغة" عن عبد الله بن عباس ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهرةً وباطنة﴾ لقمان:٢٠، قال: النِّعمة الظاهرة الإسلام، والباطنة سترُ الذنوب.

[٩] ويسميِّه أهل صنعة البلاغة (التوشيح)، وسمَّاه آخرون (التسهيم)، وله أنواع شتَّى، منها ما يتصل باللفظ ومنها ما يتصل بالمعنى، وقد عرَّفه ابن أبي الإصبع العدواني في "تحرير التحبير" فقال: هو أن يتقدَّم من الكلام ما يدلُّ على ما تأخَّر منه، أو يتأخَّر منه ما يدلُّ على ما تقدَّم.

اكتفى بذكر هذه الكلمة فيما بعد، لدلالتها على المراد المحذوف فيما قبل.

إذن، فقد ألّف الله عزَّ وجلَّ بين قلوبنا بنعمته علينا، وهي الإسلام، فأصبحنا بهذه النعمة إخواناً، فلا تأليف بين القلوب إلا بدين الإسلام.

لماذا ؟ لأنَّ التجربة الإنسانية العامَّة أثبتت أنَّه لا يمكن أن يأتلف شخصان إلا إذا تآلف قلباهما.

إذا أُودع في القلبين مُشترَك بينهما. وقد أودع الله عزَّ وجلَّ في قلب كلِّ واحد منكم الإسلام، والإسلام في النهاية يتضمن الإيمان والإحسان، ولو أن إنساناً كان مسلماً بلسانه فقط وكان قلبه غير مسلم "غير مؤمن"، عند ذلك يكون هذا الإنسان منافقاً، وبالتالي لا يمكن أن يأتلف مسلم ومنافق، لأنَّ قلبيهما مختلفان من حيث المضمون، ويؤكّد هذا المعنى قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [10].

وبناءً عليه نقول: إنَّ الأُخوَّة في المصطلح الشرعي الإسلامي، تقوم على أساسٍ من اشتراك فيما وقرَ في القلب، فإذا لم تتَّحد القلوب بالمضمون فلا يمكن أن نسمِّيَ هذين اللَذين لم يتَّحد قلباهما في المضمون أخوين.

قد يكون هذا الآخر أخاً لي في الوطنيَّة، أو في الإنسانيَّة، وهذا شيءٌ طبيعي ومقبول، ما دمتُ أقيِّد المصطلح بإطاره، أما إذا أطلقتُ فقلتُ: فلانٌ أخي. فهذا ينصرف إلى الأخوَّة الإيمانية، ويعني أنَّه يؤمن بما أؤمن به.

وهذه دعوةٌ من أجل أن نقيِّد الأمور بصفاتها وسماتها وأبعادها المميزة، أو كما يقول المناطقة: بحدودها، لئلا تكون هناك في المصطلحات فوضى.

---

[10] الحجرات: ١٠.

من لطائف سورة العلق

اقرأ باسم ربِّك الذي خلَق

نحن مع أول سورة أنزلت على النبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، وكلُّنا يعرفها، وهي قوله تعالى:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [1].

السؤال الأول: ما معنى ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وكيف تكون القراءة الصحيحة ؟

ونتساءل أولاً ما معنى كلمة (اقرأ) في أصل دلالتها ؟

تتصرف دلالة (ق ر أ) في أصلها إلى معنى الجمع [2]؛ وبحسب نظرية جدليَّة الحرف العربي، فإن مقلوب (ق ر أ) لا بدَّ وأن يدلَّ على مقلوب معناه، لذلك نجد أنَّ (أ ر ق) تدلُّ على معاني التشتُّت والقلق والاضطراب والبعثرة.

بناءً عليه، نقول:

---

[1] العلق: ١-٣.

[2] قال ابن فارس في "مقاييس اللغة": القاف والراء والحرف المعتل أصلٌ صحيح يدلُّ على جمع واجتماع. من ذلك القَرْية، سمّيت قريةً لاجتماع النَّاس فيها، ويقولون: قَرَيت الماء في المِقْراة: جمعتُه... قالوا: ومنه القُرآن، كأنَّه سمّي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك.

إنَّ ﴿اَقْرَأْ﴾ تعني: اجمع الحروف التي أمامك، والتي تعرفُها وتفهمها، لتستخرج من هذا الجمع معنىً تستقبله باستيعاب فيستقرّ فيك وتطمئن له وتستفيد.

فالمراد من القراءة أمران:

١- أن أجمع بين الحروف: أ ب ت ث... الخ.

٢- أن أستقبل من هذا المجموع دلالته التي تطمئنني.

﴿اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾: فلن يكون جمعك الأحرفَ قراءةً تشكّل كلمةً تفهمها وتستوعبها وتفيدك وتطمئن إليها إلا إذا قرأت باسم ربك، فاقرأ باسم ربك مستعيناً به تكن نتيجة القراءة على الشكل الذي تريده.

وكما تدلُّ القراءة على الجمع بين الحروف لاستخراج كلمةٍ ذات معنى، كذلك تدلُّ على كلِّ جمع بين الأشياء أو الظواهر أو الموجودات لاستخراج معنىً منها يطمئنُّ إليه الإنسان.

والسؤال هنا: لماذا قال تعالى: ﴿اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ولم يقل: باسم الله ؟ [٣]

لأنَّ المطلوب أن تقرأ باسم الذي يربّيك باعتبارك مربوباً حتى تستفيد،

---

[٣] قال الصَّفدي في "تصحيح التصحيف وتحرير التحريف": ومن ذلك أنهم يكتبون (بسم الله) أينما وقع بحذف الألف، والألف إنما حُذفت منه إذا كتب في أول فواتح السور، لكثرة استعماله في كل ما يبدأ به، وتقدير الكلام: أبدأ باسم الله، فإذا بَرَز وجب إثباتها، كقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ ربِّك الذي خلَق﴾. وذكر الحريري في "درَّة الغوّاص في أوهام الخواصّ" وجهاً ثانياً في ذلك، وهو أنَّ حذف هذه الألف إنما هو عند الإضافة إلى اسم الله تعالى خاصة، فإن أضيف إلى غيره من أسمائه الحسنى نحو الرحمن والقهار وجب إثبات الألف.

فاقرأ مستعيناً باسم المربِّي، لأنك تريد من القراءة أن تربِّيَ نفسك وأن تنمِّيَها.

من هو المربِّي ؟ وما الذي يؤهِّله ليكون كذلك ؟

الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أي: إنَّ الذي خلق هو الذي يربِّي، بل هو الأجدر بذلك، فلا ربَّ ولا مربِّيَ لك حقاً إلا الذي خلقك.

ولذلك نقول لكل القارئين:

لا يمكن للقراءة، سواء أكانت قراءة للأشياء أم للأحرف، وسواء أكانت على مستوى الحقيقة أم المجاز؛ لا يمكن لها أن تكون مستوعَبة ومفيدة ومطمئنة إلا إذا قرأها من قرأها مستعيناً بربِّه تعالى، أي بمربِّيه الذي خلقه ولا مربِّيّ له سواه، فهو الله ربُّ العالمين.

وأريد منكم قبل أن ننتقل إلى السؤال الثاني أن نتفحَّص فيما إذا كنَّا قارئين أو غير قارئين ؟

وإذا كنَّا قارئين فهل نحن نقرأ الأحرف والكلمات والأشياء باسم ربِّنا الذي خلق ؟ وهل نقرأ الأشياء ونقرأ الحروف من أجل أن نفهمها وأن نستفيد منها وأن تُطمئننا ؟ أم إنَّنا اليوم نقرأ قراءةً غير مُفهِمة وغير مطمئِنة وغير مستوعَبة مِن قِبَلنا ؟!

السؤال الثاني:

لماذا كُرِّرت كلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ مرتين في الآيات ؟

لأنَّ كلَّ واحدة منهما تتصرف إلى معنى غير الذي تتصرف إليه الأخرى.

أمَّا الأولى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾؛ فهي من أجلك أنت، من أجل أن تتعلَّم.

وأمَّا الثانية: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، فهي من أجل أن تُعلِّم.

فاقرأ أيُّها الإنسان باسم الذي خلقك مِنْ علق، أي اقرأ باسم ربك حتى تتربَّى وتتعلَّم، ثم اقرأ من أجل أن تعلِّم.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾:

يصفُ ربُّنا سبحانه وتعالى بالكرم، بصيغة أفعل التفضيل التي أفادت الإطلاق هنا لما أتى بـ (أل) المعرِّفة [٤].

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾: أي إنَّ أعظم إكرامِ الله تعالى للإنسان كان من خلال تعليمه.

من أين عرفنا أنَّ كرم الله تعالى يُقصد به التعليم ؟

الجواب في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾، فأعظم كَرَمٍ منه سبحانه كان إذ تكرَّم علينا فعلَّمنا.

فعليك أيها الإنسان أن تتخلَّق بأخلاق الله تعالى، ولذلك نقول إن (اقرأ) الأولى من الأجل أن تتعلم، و (اقرأ) الثانية من أجل أن تعلِّم، وعليك أن تعلِّم الآخرين كما علَّمك ربك.

---

[٤] أي إن بناء ﴿الأكرم﴾ جاء على وزن أفعل التفضيل، إلا أنَّه ليس على بابه، فلم يُرد به التفضيل هنا، وإنَّما أراد الدلالة على كمال كرم الله تعالى الذي لا يشاركه فيه أحد. ومن هذا الباب قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وهو أهۡوَنُ عليه﴾ الروم:٢٧. و لم تستعمل العرب أفعل التفضيل إلا جاءت بـ (من)، كقوله تعالى: ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ الكهف:٣٤. و قد تستعمله معرَّفاً بـ (أل) من غير أن تأتي بـ (من)، ومثله المعرَّف بالإضافة كقوله تعالى: ﴿ولتجدنَّهم أحرصَ الناس على حياةٍ﴾ البقرة:٩٦.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾: القلم إشارةٌ إلى الوسيلة، فعلينا - من أجل أن نتعلّم وأن نعلّم - اعتماد الوسائل والأخذ بالوسائط والأسباب، لا أن نعلم ونتعلم من غير سبب، فذاك - إن وُجد - أمرٌ خاص جداً لا يمكن أن نعمِّمه، لأنَّ الله تعالى أمرنا أن نتعلّم بالقلم، أي بالوسيلة أو السبب، فيجب علينا إذن أن نعلّم بالقلم أيضاً كما علّمنا ربُّنا، أي بالوسيلة أو السبب، ولا يجوز أن نعلّم من غير سبب وهو ما يسميه بعض علمائنا بالعلم اللدُّني، وهو أمرٌ لا علاقة لبحثنا به، وإنما نحن مأمورون بأن نعلّم ونتعلّم بالقلم وبالأخذ بالسبب والوسيلة.

نعود إلى الآية:

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾: أي اقرأ معلّماً، لأنَّ ربَّك هو الأكرم معك، وكان الأكرمَ حينما علّمك، ولذلك لم يطلب الله عزَّ وجلَّ من النبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يستزيدَه من شيء كما طلب منه أن يستزيده من العلم، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [٥].

السؤال الثالث:

ما الصلّة بين قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ؟

الآية الأولى تذكيرٌ للإنسان بأصل خلقه، الذي يشترك في صورته مع أدنى الكائنات الحيَّة رتبةً، وإذا أدركنا ذلك فلا بدَّ أن نسأل:

---

[٥] طه: ١١٤.

إذن بمَ ارتفع الإنسان ونال هذا التكريم من الله تعالى ؟

الجواب: بالقراءة، أي بالتعلّم والتعليم وصل الإنسان إلى أعلى رتبة من التكريم، وهي رتبة ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾.

لقد بدأ الله تعالى وجودَك الماديَّ أيُّها الإنسان من الأخسِّ والأدنى حتى وصل بك إلى الأرقى وإلى الأحسن تقويماً.

فاقرأ لتنتقل من الأخسِّ إلى الأكرم؛ إلى ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾؛ إلى التعلُّم والتعليم، الذي هو أعلى وأجمل مظهر للإنسان وأجمل تكريم.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾: بداية الإنسان ومنطلق وجوده.

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: غاية الإنسان ومنتهى سعيه.

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾: بالقراءة ينتقل ابن آدم ويرتقي من موجود مادي ضئيل إلى مرتبة الإنسان الخليفة.

فيا أسفاه على الإنسان إذ يطغى، فيظنَّ في نفسه الغنى عن القراءة باسم ربِّه، فيرتدَّ ليعود أخسَّ مما كان عليه:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾.

أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يوفِّقنا من أجل أن نقرأ لنتعلَّم، وأن نقرأ لنعلِّم، وأن نقرأ ما جاءنا من كلمات ربِّنا عزَّ وجلَّ وما حولنا من مخلوقاته، باسم ربِّنا.

وأن نتذكَّر أنَّ أعظم نعمة وأكرم نعمة هي نعمة العلم من الله عزَّ وجلَّ إلينا، فيجب علينا إذن أن نقدِّم هذه النعمة للآخرين، متخلِّقين بخُلق الله تعالى الذي هو الكرم.

من لطائف سورة الطارق

إنَّه لقولٌ فصلٌ وما هو بالهَزل

مررت على هذه الآيات في سورة الطارق:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [1].

وتساءلت: لقد أقسم الله عزَّ وجلَّ مُخبراً عن القرآن فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، وهذا أمر صحيح؛ فلماذا أعاد التأكيد على هذه القضية بنفي النقيض، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ ؟

كان يكفي، حسب الاعتراض المتوهَّم أن يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ... إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾.

فما هو الفصل من القول، وكيف يكون الكلام هزلاً ؟

أولاً- القرآن قولٌ فَصْل:

ينقسم (القول) من حيثيَّة معيَّنة إلى نوعين: خبر وإنشاء.

---

[1] الطارق: ١١-١٧.

١- الخبر: وهو قولٌ يحتمل التَّصديق والتكذيب، كما لو قلت لك مثلاً: "رأيتُ البارحة رجلاً من فرنسا"... فهذا خبرٌ يحتمل التصديق والتكذيب، فإن كنتُ مصدَّقاً عندك صدَّقتَني، وإلا لم تصدِّقني.

٢- الإنشاء: وهو قولٌ لا يحتمل التصديق ولا التكذيب، وله أنواعٌ منها الأمر والنَّهي والطلب والدُّعاء، وكلُّ ذلك لا يمكن للسامع أن يقول عنه: إنَّه صدق أو كذب، ولكن يمكن أن يستجيب له أو لا يستجيب، فيلتزم بالأمر والنَّهي أو يجيب الطلب والدعاء، أو لا.

فلما وصف الله عزَّ وجلَّ القرآن بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، فقد أبان أنَّ القرآن الكريم فصلٌ من القول في الإخبار والإنشاء معاً؛ أي إنَّه حقٌّ في كلِّ ما يخبر وما يُنشئ، فإذا أخبركم فهو صادق يخبركم عن الحقيقة، وإذا أنشا فأمرَ أو نهَى فهو يُنشئُ عن الحقِّ، فالإخبار عن الحقيقة والإنشاء بحقٍّ وعن حقٍّ، لأنَّه قول فصل في الخبر والإنشاء [٢].

ومن هنا قلت مرةً:

إنَّ القرآن الكريم مصدرنا في التعرُّف على الأديان والملل التي ذكرها، وهو الكتاب الأول والمرجع الرئيسيُّ لنا فيما أخبر به عن النصرانية وفرقها واليهودية ومذاهبها، لأنَّ القرآن الكريم قولٌ فَصْلٌ يتحرك بين الحقيقة

---

[٢] قال ابن فارس في "مقاييس اللغة": الفاء والصاد واللام كلمةٌ صحيحةٌ تدلُّ على تمييز الشَّيء من الشَّيء وإبانته عنه. يقال: فَصَلْتُ الشَّيءَ فَصْلاً. والفَيْصل: الحاكم. وقال الراغب الأصفهاني في "مفردات القرآن": ويُستعمَل ذلك في الأفعال والأقوال؛ نحو قوله: ﴿هذا يوم الفَصْل﴾ الصافات:٢١، أي اليوم يُبيِّنُ الحقَّ منَ الباطل ويفصل بين الناس بالحكم؛ وعلى ذلك:... ﴿وهو خير الفاصلين﴾ الأنعام:٥٧. و ﴿فصْل الخطاب﴾ ص:٢٠ ما فيه قطْعُ الحُكم.

والحقِّ، فهو فَصْلٌ في الإخبار فلا يأتي إلا بالحقيقة، وهو أيضاً فَصْلٌ في الإنشاء فلا يأمر إلا بالحقِّ ولا ينهى إلا عمَّا هو باطل.

ثانياً- ليس القرآن بالهزل [٣]:

يخاطب الله عزَّ وجلَّ الناسَ كافَّة بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾.

ثمَّ يخاطب مَن آمنَ بالقرآن قولاً فصلاً من أجل أن يعتمده وألا يحوِّله إلى هزل: ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾.

كيف تتحوَّل علاقتك بالقرآن الكريم إلى هزل ؟

حينما لا تجعل القرآن الكريم مستقىً للحقائق التي تبحث عنها؛ فأنت تؤمن بحسب الظاهر بالقرآن الكريم، وتقول: إنَّ القرآن كتابٌ أنزله الله على مُحمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ولكنك لا تعتمده عملياً، فأنت هازلٌ في قولك، لأن الهازل يتكلم عن أشياء غير حقيقية.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾: العبرة بالموقف وليس بادعاءاتكم أو أقوالكم، فإيَّاكم وأن تتخذوا القرآن هزلاً، أو أن تحكموا عليه بذلك من خلال مواقفكم، فإذا لم تتخذ القرآن معياراً للحقائق التي تبحث عنها، فقد اتخذتَه هزلاً.

ولذلك قلت في يوم من الأيام:

إذا تعارض ما تراه حقيقة علمية مع حقيقة قرآنية فأنا مع الحقيقة

---

[٣] لم ترد هذه الكلمة في القرآن إلا في هذا الموضع من سورة الطارق. قال ابن فارس في "مقاييس اللغة": الهاء والزاء واللام كلمتان في قياسٍ واحد، يدُلاّن على ضَعف. فالهَزْل: نقيض الجِدّ، والهُزَال: خلاف السِّمَن، يقال: هَزَلْتُ دابتي وقد هُزِلت؛ وهَزَل في مَنطقه. وقال الراغب في "مفردات القرآن": ﴿وما هو بالهزل﴾ الهَزْلُ كُلُّ كلامٍ لا تحْصِيلَ له ولا رَبْعَ = أي ولا ثمرة = تشبيهاً بالهُزال.

القرآنية؛ وإن كنت أعتقد أنه لا يمكن أن تتعارض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة العلمية؛ ولقد قال بعض إخواننا وأساتذتنا الأفاضل: إذا تعارضت حقيقة علمية مع حقيقة قرآنية فأنا مع الحقيقة العلمية. ويتابع هذا الأستاذ الكبير قائلاً: وإن كنت لا أرى إمكانيةً للتعارض بين الحقيقتين.

وأنا أقول الكلام نفسه، إلا أني أقول: أنا مع الحقيقة القرآنية.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾: عندما تعدلون عن القرآن في أخذ الحقائق التي تبحثون عنها فأنتم تتخذون موقفاً هزلياً معه.

حينما تقرؤون القرآن الكريم ولا تستمدون منه الأحكام، فلا تطيعونه حيث يأمركم ولا تجتنبون ما ينهاكم عنه، فموقفكم هزليٌّ.

القرآن قول فَصْلٌ في إخباره عن الحقيقة وفي إنشائه الحقَّ، وعندما تعتقد أن القرآن ينشئ الحقَّ ثم لا تتبع الحقَّ الذي يدعوك إليه فأنت في موقف هزلي.

الهازل مازح، والقرآن لا (مزح) فيه، بل فيه (حزم)، لأنَّ المزاح تفريط وقولٌ لا ثمرة عمليَّة له، والحزم جمعٌ وتآلف ما بين القول والعمل.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ إنهم يجهدون من أجل أن يكون موقفكم مع القرآن الكريم هزلاً.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾: من أجل أن تتخذوا موقفاً فاصلاً مع القرآن.

القضية جادَّة جداً، فهل وقفنا حيال القرآن الكريم موقفَ من يعتقد أنَّه أنزل من أجله، أو كأنَّه أنزل عليه بالذات، فنصدِّق بالحقيقة التي يخبر بها ونعمل بالحقِّ الذي يأمر به، ونكون بذلك من الذين يتخذون القرآن الكريم في مواقفهم كتاباً فصلاً ؟! أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يوفِّقنا لذلك.

من لطائف كلمات القرآن

المحص والتمحيص والفحص

قرأت قول الله عزَّ وجلَّ في سورة آل عمران:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [1].

وتوقَّفت متسائلاً: ما معنى كلمة ﴿لِيُمَحِّصَ﴾ ؟

نجد في قواميس اللغة: المَحْصُ خُلوص الشيء. تقول: مَحَصْتُه مَحْصاً إذا خَلَّصته من كل عَيْب. فالكلمة ثلاثيَّة الأصل (مَحَصَ)، لكنَّهم يضعِّفون الحاء فيقولون: محَّص يمحِّص تمحيصاً، بالتشديد، لأنَّ زيادة المبنى عندهم تدلُّ على زيادة المعنى [2]، والتمحيص هو: التخليص والتنقية.

ولا شكَّ في أنَّ الدارس سيلاحظ ما بين (مَحَصَ) و (فَحَصَ) من تشابه في اللفظ يسمِّيه أهل البلاغة جناساً ناقصاً؛ فهل من تقاربٍ بينهما في المعنى أيضاً ؟!

---

[1] آل عمران: ١٤٠-١٤١.

[2] قال ابن فارس في "مقاييس اللغة": الميم والحاء والصَّاد أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على تخليصِ شيء وتنقيته. وَمَحَصَه مَحْصًا: خلّصَه من كل عيبٍ، ومَحَصَ الله العبدَ من الذَّنْب: طهَّرَه منه ونقّاه، ومَحَّصَهُ.

لقد تبيَّن لي بعد البحث أن الكلمتين (محص) و (فحص) تدلان على معاني الاختبار والكشف والتخليص، إلا أنَّ كلَّ كلمة منهما تتعلق بجانب غير الجانب الذي تتعلق به الأخرى.

المحص: اختبار سرِّيٌّ لما خفي منك فيك.

وأمَّا الفحص: فهو اختبار علنيٌّ لما ظهر منك [٣].

ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ في آية أخرى:

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [٤].

---

[٣] يشير إلى تعلُّق الفحص بما هو ماديٌّ أو ظاهرٌ استعمالاتُ المادة المذكورة في معاجم اللغة؛ قال الأزهري في "تهذيب اللغة": الفَحْصُ: شدَّةُ الطَّلب خلال كلِّ شيء، تقول: فَحَصْتُ عن فلان، وفَحَصْت عن أمره لأعلم كُنْهَ حاله، والدَّجاجة تفحص برجليها وجناحيها في التراب: تتَّخذ لنفسها أُفْحوصةً تبيض أو تجثم فيها... ومنه الحديث المرفوع: (**مَنْ بَنى لله مسجداً، ولو مثل مَفْحص قَطَاة بنى الله له بيتاً في الجنة**)، ومَفْحص القطاة حيث تُفَرِّخ فيه من الأرض، والمطر يفحص الحصى إذا ... قلَّب الحصى ونحَّى بعضه عن بعض. وللراغب الأصفهاني في "مفردات القرآن" رأيٌ في الفرق بين المحص والفحص، لا يبتعد عند التحليل عمَّا ذهب إليه أستاذنا المؤلف، إذ يرى الراغب أنَّ أصلَ المحص تخليصُ الشيء مما فيه من عيبٍ كالفَحْص، لكنَّ الفحص يقالُ في إبرازِ شيءٍ من أثناء ما يختلطُ به وهو منفصلٌ عنه، والمحصُ يقالُ في إبرازه عمَّا هو مُتَّصلٌ به. وفي المعجم كلمات أخرى تشترك مع المحص في شيء من المعنى وتفارقه في جانب آخر، ويلفت النظر منها ما اشترك مع (محص) في فاء الفعل وعينه، مع اختلاف اللام، مثل: محج ومحض ومحك ومحل ومحن ومحو، وكذلك (محق) التي وردت في الآية /١٤١/ من آل عمران المدروسة في هذه اللطيفة: ﴿وليُمحِّصَ الله الذين آمنوا ويمحَقَ الكافرين﴾، والتي تضمَّنت تقابلاً أو مقابلة - كما يقول البلاغيون، وهي عندهم: أن يؤتى بمعنى أو أكثر، ثم يؤتى بالمعنى الذي يقابله أو يناقضه - بين قوله تعالى: ﴿وليمحِّص الله الذين آمنوا﴾ وقوله تعالى: ﴿ويمحقَ الكافرين﴾.

[٤] آل عمران: ١٥٤. وهو الموضع الثاني الذي ذكرت فيه الكلمة في القرآن، ولم تذكر في موطنٍ آخر غيرهما.

فتعلَّق التمحيص بالقلب وانصرف إلى ذات الصُّدور، أي إلى سرِّها وما في داخلها، ولم يكن التمحيص للظاهر.

المحص: اختبار سرّيٌّ لما خفيَ منك فيك، ولذلك كان موضوعُ المحص الإيمانَ والقلب، والإيمان والقلب أمران سرّيان خفيَّان، ولعلَّ ذلك هو سرُّ قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فكان التمحيص للذين آمنوا، لأنَّ الإيمان من للقلب، ولم يَقُل: (الذين أسلموا) لأنَّ الإسلام للظاهر.

نعود إلى الآيتين التي ورد فيهما الفعل (يمحِّص)، لنجد أنَّ الموضوع الرئيسي للآيتين، والذي تدور في فلكه الموضوعات الأخرى، هو الجهاد، والجهاد فيه فَحْصٌ وفيه مَحْص، لكن العبرة فيه لواحد منهما !

العبرة في الجهاد ليست بالفحص وإنما بالمحص، أو بالتمحيص كما عبَّر القرآن، فما دام المحص يتعلق بالسِّرِّ والخفيِّ، فسوف نحتاج إلى كلمة قوية ومضعَّفة لكي نصل بها إلى الداخل، ولذلك نحتاج إلى التمحيص، وليس إلى المحص فقط لأنَّ المحص أضعف من التمحيص، وليس للفحص من بابٍ أَولى، فنحن لا نريد فحص ما يتعلق بالظاهر.

الجهاد فيه فحص وفيه تمحيص، وقد تنجح في الفحص، ولكنَّك قد ترسب مع ذلك في التمحيص، والعبرة هي بالتمحيص وليس بالفحص.

مثال: أنت تجاهد في سبيل الله مقاتلاً بالسَّلاح؛ فإذا نظرت إلى ما تقوم به ظاهراً فسوف تكون نتيجة الفحص أنَّك مجاهد في سبيل الله.

إذن أنت في الفحص ناجح، ولكنَّ الأمر لا يتعلَّق بالفحص وحده، فجهادك محتاج إلى تمحيص، وقد تخسر في التمحيص وإن نجحت في الفحص.

كيف يكون ذلك ؟!

اسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يحدثك عن تمحيص المجاهدين: **(إنَّ أوَّل النَّاس يُقضَى عليه يوم القيامة ثلاثةٌ: رجلٌ استُشهد، فأتى به اللهُ فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عملتَ فيها ؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهدت. قال: كذبتَ. ولكنَّك قاتلت لأنْ يُقال رجلٌ جرئ؛ فقد قيل. ثمَّ أُمِرَ به فسُحب على وجهه حتى أُلقيَ في النَّار)** [٥].

هو ناجح في الفحص لأنَّ ظاهره كان كظاهر المجاهدين، ولكنَّه راسب في التمحيص، لأنَّ النيَّة لم تكن لله تعالى، ولذلك قُلنا:

الإخلاص والصِّحة مبدآن أساسيان من أجل أن تكون عبداً لله صادقاً، فإذا لم تكن النيَّة خالصة لله عزَّ وجلَّ فأنت راسبٌ في التمحيص، وإذا لم يكن العمل موافقاً لشرع الله عزَّ وجلَّ فأنت راسب في الفحص.

فإمَّا أن تكون راسباً في الفحص والتمحيص، وإمَّا أن تكون راسباً في التمحيص ناجحاً في الفحص، وإمَّا أن تكون راسباً في الفحص ناجحاً في التمحيص، وإمَّا أن تكون ناجحاً في الفحص والتمحيص، وهذه هي الصورة المطلوبة لكي يكون العمل صالحاً.

وهنا نقطة هامَّة أودُّ التنبيه إليها:

الفحص في الدُّنيا ممكنٌ من البشر لبعضهم بعضاً؛ وأمَّا التمحيص فهو من اختصاص ربِّ العالمين وحده.

مثلاً: إذا أتاني شخصٌ منافق وقال لي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله؛ فينبغي عليَّ أقبله وهو عندي ناجح في الفحص، وأعامله

---

[٥] أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

كما يُعامَل المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا، وهذا ما فعله رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مع المنافقين في المدينة؛ فقد قبل منهم ظواهرهم وترك دواخلهم لله تعالى لأنَّ التمحيص لله وحده.

وهذا لا يعني أن الواحد منَّا ينبغي أن يتعامل مع نفسه بالفحص من دون أن يمحِّص نفسه !

لا؛ ... بل يجب علينا أن نمحِّص أنفسنا بأنفسنا، فأنا لا أستطيع أن أمحِّصك أنت، ولكنِّي أستطيع أن أمحِّص نفسي، ولذلك ينبغي أن أقول عندما أصلِّي: اللهمَّ اجعل نيَّتي في صلاتي خالصةً لوجهك الكريم؛ وأن أقول عندما أتصدَّق: اللهمَّ اجعل نيَّتي في هذا العمل خالصة لوجهك الكريم.

عليَّ أن أمحِّص الآن نفسي في الدنيا، فإذا لَقيتُ ربِّي عزَّ وجلَّ وقد محَّصت نفسي في الدنيا، فهناك فرصة لأن يكتفي الله عزَّ وجلَّ بتمحيصي لنفسي، حتى ولو كان التمحيص ليس كما يجب، ولكنَّ رحمة الله تقول: هذا عبدٌ محَّص نفسه، ونصَّب من نفسه على نفسه - وليس على غيره - رقيباً، فهو معفوٌّ اليوم من التمحيص، وسوف يُغفر له.

لماذا نقول هذا الكلام ؟

حتى لا يعيش الإنسان في وسوسة تمنعه من متابعة العمل، كأن يقول: أنا أتصدَّق، ولكنِّي لا أعرف إذا كانت نيِّتي خالصةً لله أم غير خالصة ؟

لا تقل مثل هذا، واقطع هذه الوسوسة، وقل لربِّك: اللهمَّ إنِّي أسألك أن تجعل عملي هذا خالصاً لوجهك الكريم يا ربَّ العالمين

عندئذ ستنجح في التمحيص بينك وبين نفسك، لأنَّه يستحيل أن تطلب من الله عزَّ وجلَّ بصدق أن يجعل نيَّتك خالصةً لوجهه؛ ثمَّ لا يجعلها كذلك،

فالله تعالى أكرم من ذلك، وما كان الله ليفتحَ على عبد باب الدعاء ويغلق عليه باب الإجابة.

انظروا إلى هذا الحديث العظيم، الذي يقول فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: **(الكيِّسُ مَن دانَ نفسَه، وعملَ لما بعدَ الموت؛ والعاجزُ مَنْ أتبعَ نفسَه هوَاها، وتمنَّى على الله)** [٦].

ويقول سيِّدنا عمر ﷺ: "حاسبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبوا، وتزيَّنوا للعرض الأكبر؛ وإنَّما يخفُّ الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسَه في الدُّنيا" [٧].

لا يجمع الله عزَّ وجلَّ على عبده حسابين ولا وزنين، فإذا حاسبتَ نفسك في الدُّنيا فإنَّ الله تعالى لن يحاسبك في الآخرة، وإذا وزنت أعمالك في الدنيا فإنَّ الله سبحانه لن يزن أعمالك في الآخرة.

ولكنَّك إذا أنت لم تحاسب نفسك ونسيت التمحيص، وذهبت تجاهد وتتصدَّق ظاهراً، ولكن داخلك لم يوجَّه بشكل كامل من أجل أن يكون خالصاً لوجه الله عزَّ وجلَّ، فهذا يعني أن أمامك تمحيصاً وتمحيصاً قاسياً.

فمحِّصوا قبل أن تُمحَّصوا، وحاسِبوا قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا قبل أن تُوزن عليكم أعمالكم، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ناجحين في الفحص وفي المحص والتَّمحيص.

---

[٦] أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب /٢٥/. وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة. والحاكم: كتاب التوبة والإنابة، باب الكيِّس من دان نفسه. وقال: صحيح الإسناد، وأقرَّه الذهبي. "دان نفسه": حاسبَها.

[٧] أخرجه الترمذي مع الحديث السابق، في الموضع نفسه من السنن.

من لطائف سورة البقرة

يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصَّبر والصَّلاة

نحن اليوم أمام آية أظنُّ أنَّنا نقرؤها ونردِّدها كثيراً وهي قوله تعالى:
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1].

السؤال الأول:

كيف يأمرنا الله عزَّ وجلَّ أن نستعينَ بالصَّبر والصَّلاة ثمَّ ينهانا النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عن الاستعانة بغير الله، كما في الحديث الذي يرويه عبد الله بن عباس ﷺ قال: (**كنتُ خلف رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يوماً فقال: يا غلام إنِّي أعلِّمك كلمات؛ احفظِ اللهَ يحفظْك، احفظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهك، إذا سألتَ فاسأل اللهِ، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله...**) [2] ؟

أقول باختصار:

الاستعانة في اللغة هي طلب العَون، وهي نوعان:

١- استعانةٌ للجسم وحركته، وتسمَّى (استعانة ماديَّة).

٢- واستعانة للقلب وتسمَّى (استعانة معنويَّة).

---

[1] البقرة: ١٥٣.

[2] أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب /٥٩/.

فأمَّا المادية فلا تكون إلا بالإنسان أو بالمادة أو بالأشياء، فأقول للجزَّار مثلاً: استعن بسكّين حادَّة وأنت تذبح. وأقول لمن يتألَّم من رجله: استعن بالعكاز.

وهذه الاستعانة الماديِّة لا إشكال فيها، فعندما أستعينُ ظاهراً بغير الله عزَّ وجلَّ فهذه استعانةٌ ماديَّة، وهي لا تُناقض الاستعانة المعنويَّة القلبيَّة؛ لأنَّ الاستعانة التي تكون بالله إنَّما هي الاستعانة المعنويَّة القلبيَّة.

إذن، الاستعانة المعنوية هي أن أتوجَّه إلى الله عزَّ وجلَّ لأطلب منه العون والمساعدة من حيث القلب، فقلبي لا يتوجَّه إلا إلى الله.

والاستعانة الماديَّة بالأشياء استعانة ظاهرة، وهي مندرجة ضمن الاستعانة بالله تعالى، لأنَّ الله الذي أتوجَّه إليه بقلبي أمرني بالأخذ بالأسباب، فإذا استعنت بالأشياء ظاهراً وكان قلبي متوجِّهاً إلى الله عزَّ وجلَّ فأنا مستعين بالله.

السؤال الثاني:

متى تكون الاستعانة بغير الله؛ وهي الاستعانة المرفوضة ؟

والجواب: إنَّها عندما يتوجَّه قلبي لهذا الشيء الظاهريِّ لأجعل منه مُستعَاناً به من خلال قلبي ومن خلال جوارحي معاً.

أعود فأقول:

الاستعانة الظاهريَّة الماديَّة أمرٌ طبَعي، أمَّا الاستعانة القلبيَّة فيجب ألا تكون إلا بالله، فلا أطلب العون منْ قلبي ومنْ داخلي إلا منَ الله عزَّ وجلَّ، وعندما أتخذ الأسباب واستعين بها، فهي استعانةٌ على سبيل المجاز، وأمَّا الاستعانة الحقيقية فهي لا تكون إلا بالله عزَّ وجلَّ، ولذلك نحن نقول في صلاتنا:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [٣].

نعود إلى الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾.

الصبر معناه: الثبات [٤]، فهو إذن معنى أو قيمة أو شيء مجرَّد وليس ماديَّاً، والسؤال الآن: كيف نستعين بالمجرَّد ؟

على سبيل المثال، لو قلت لعطشان: استعن بالرِّيِّ؛ بدلاً من أن أقول له: استعن بالماء على الرِّي، وكما لو قلت لجائع: استعن بالشِّبَع؛ بدلاً من أن أقول له استعن بالطعام على الشبع، فهذا الكلام غير مستقيم بحسب الظاهر، لأنَّه عَطِش وجائع، فكيف أقول له: استعن بالري والشبع، وهي بدون الماء والطعام مفاهيم مجرَّدة ؟

وكذلك الأمر هنا في الآية؛ كيف يأمرنا الله عزَّ وجلَّ بالاستعانة بالصَّبر، وهو قيمةٌ ومفهوم مجرَّد ؟

الجواب: لو وقف الله عزَّ وجلَّ عند الصَّبر فقط، أو اقتصرت الآية على ذكر الصِّبر في الاستعانة، لَكَان الكلام غير مستقيم كما في مثالنا الذي ذكرناه، ولَكَان السؤال الذي طرحناه وارداً.

---

[٣] الفاتحة: ٥.

[٤] قال ابن فارس في "مقاييس اللغة": الصَّبْر... الحَبْس، يقال: صَبَرْتُ نفسي على ذلك الأمر أي حبَسْتُها. قال – عنترة بن شداد –: فَصَبَرتُ عارفةً لذلك حرَّةً تَرسو إذا نَفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ. انتهى. قلت: ومنه قول الله تعالى: ﴿واصْبِرْ نفسَك مع الذين يَدْعون ربَّهم بالغداة والعَشيِّ يريدون وجهَه﴾ الكهف:٢٨. وإذا كان الصبر ثباتاً، أو حَبْساً كما عبَّر ابن فارس، فإنَّه ليس استكانةً البتة، ولا يعني السكونَ أو القعود بالضرورة، بل معظم الصبر عند أستاذنا المؤلف حركة، فإنَّ (ص ب ر) نقيض (ر ب ص)، والرَّبص والتربُّص انتظار وقعود؛ ولذلك يعرِّف أستاذنا الصبرَ فيقول: هو قوَّة على التمسُّك بالحق والثبات عليه بعد الوصول إليه.

ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أتبعَ الصَّبر بشيء آخر فقال: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، والصَّلاة حركةٌ وفعل وسلوك، وبالتالي فإنَّ لها تجلّياً ظاهراً، ولها وجود عمليٌّ، لأنها حركات مرئيَّة ومشاهَدة.

فلما عطف بالصَّلاة على الصَّبر، الذي هو قيمة وشيء مجرَّد ليس له وجود مستقل، علمنا أنَّ الصبر هنا قيمة يتمُّ تحصيلها بالصلاة؛ فعليكم بالصلاة من أجل أن تحصِّلوا الصبر، فلا صبْرَ من غير صلاة، وكأن الله عزَّ وجلَّ يقول لنا: استعينوا بالصبر، من خلال استمدادكم هذا الصبر من الصلاة، والصلاة كما تعلمون صلةٌ مع الله عزَّ وجلَّ، ولذا كانت وسيلةً للوصول إلى الصبر الذي هو الثبات، والذي هو قيمة ومعنى.

استعينوا بالحركة التي أمرناكم بها، والتي جعلناها لكم عبادة محدَّدة ذات تجلٍّ ووجود سلوكيٍّ ظاهر، وهي الصلاة، لتحصلوا على القيمة والمعنى الذي هو الصبر.

فالصَّلاة مصدر ثرٌّ وعظيم وغنيٌّ للصبر، فإن أردت أيها المسلم صبراً كي تستعين به على البلاء الذي حلَّ بك، إذن فخذه من مستودع الصَّلاة [٥].

السؤال الثالث:

ما الغاية من الاستعانة بالصبر والصلاة ؟

الصَّبر والصَّلاة يلزماننا لكي نتحقَّق بالإخلاص والعمل، وهما الأمران

---

[٥] أخرج أبو داود: كتاب الصلاة، باب قيام النبيِّ ﷺ من الليل، عن حذيفة بن اليمان ﷺ، قال: (**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إذا حَزَبَه أمرٌ صلّى**). وكان صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول، كما أخرج النسائي عن أنس: (**وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة**)، وقرَّة العين اطمئنانٌ وسكينةُ نفسٍ.

اللذان يُطلَب منَّا أن نقوم بهما لنتحقَّق برضا الله عزَّ وجلَّ علينا.

يجب أن تعمل لتكون مرضياً عند الله تعالى، ويجب أن يكون هذا العمل خالصاً لله، فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وابتُغي به وجهه.

منْ أجل أن تعمل لا بدَّ لك مِنَ الصبر أيها الإنسان، ولا بدَّ لك منَ الصلاة من أجل أن تخلص في عملك، فالذي يعلمك الإخلاص هو الصلاة.

ولئن سألتني: كيف تعلِّمني الصلاةُ الإخلاص ؟ قلت: بما أنَّ الصلاة حركات، وهذه الحركات قد تتشابه مع أمورٌ يقوم بها الإنسان بحكم العادة، فلا بدَّ لها من أجل أن تكون قُربةً وعبادة، لا بدَّ لها من الإخلاص، وما فيها إلا الإخلاص أصلاً، فالتكبير والقيام والقراءة والركوع والسجود والتسبيح حركاتٌ وأقوال لا معنى لها إلا من خلال الامتثال لله الذي أمر بها، وهو الإخلاص الذي عَنَيت.

نحن إذن نحتاج من أجل أن يرضى الله عزَّ وجلَّ عنَّا إلى عمل، وعملنا يحتاج إلى الصبر، ونحتاج أيضاً من أجل أن يرضى مولانا عنَّا إلى إخلاص، والإخلاص نكتسبه من الصلاة.

وانظروا معي إلى هذا التقابل الجميل فيما ذكرته لكم:

الصبر قيمة غير مرئيَّة قد غطت العمل المرئيَّ وهذا تقابل جميل كتقابل السالب مع الموجب. وكذلك الصلاة التي لها وجود مرئيٌّ يقابله الإخلاص وهو قيمة غير مرئيَّة.

فأصبح لدينا تقابل بين: الإخلاص والصلاة، وبين الصبر والعمل؛ فقيمة الإخلاص تتجلَّى بالصلاة وقيمة الصَّبر تتجلى بالعمل.

وهكذا يذكر الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية قيمة هي الصبر، ليطلب منَّا

تجسيدها من خلال العمل؛ ثمَّ يُتبع ذلك بذكر عمل هو الصلاة من أجل أن نتوِّجه بقيمة هي الإخلاص.

السؤال الرابع:

لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ولم يقل: مع الصَّابرين المصلِّين ؟

والجواب:

لقد جاء هذا الكلام بعد أن تحول الصَّبر إلى صفة تحلَّى بها الصَّابر العامل، الذي استمد صبره هذا من الصلاة؛ فالمراد بالآية:

إنَّ الله مع الصَّابرين المصلِّين، لأنَّه لا صبرَ إلا من خلال الصلاة، فالصبر غير موجود بمفرده، ولا يمكنك أن تراه، وإنَّما يتجسد الصبر من خلال الصلاة، فالصابر في الآية مُصَلٍّ حُكماً، فكان الاكتفاء بذِكر مَعيَّة الحقِّ جلَّ جلاله للصابرين، مُغنياً عن ذِكْر مثل ذلك للمصلِّين، لدخول هؤلاء حكماً وضرورةً في أولئك.

من لطائف كلمات القرآن

حول الفرق بين الخَلْق والفَطْر

في القرآن الكريم كلمتان متشابهتان هما: (الخَلْق) و (الفَطْر)، فهل هما كلمتان مترادفتان، أم إنَّ بينهما اختلافاً وفَرقاً ؟

هناك على سبيل المثال آيات تتحدث عن الخلق كقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [1].

﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [2].

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ [3].

فهذه آيات تتحدَّث عن الخَلْق؛ وأمَّا ما يخصُّ الفَطْر، فهناك على سبيل المثال قَول الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ [4].

---

[1] العلق: ١-٢.

[2] الإنسان: ١-٢.

[3] السجدة: ٧.

[4] الإسراء: ٥١.

وجاء على لسان السَّحَرة - لما هددَّهم فرعون - قولُه سبحانه وتعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [٥].

والسؤال إذن هو: ما الفرق بين الخَلْق والفَطْر؟

الخَلْق: إيجادُ شيء مِنْ شيء [٦].

وانظروا إلى الآيات التي ذكرناها عن الخلق فسترون ذلك، ففي قول الله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [٧].

ولذلك نُسب الخَلْق إلى غير الله عزَّ وجلَّ، كما في قوله سبحانه وتعالى على لسان عيسى عليه السلام:

﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [٨].

---

[٥] طه: ٧٢.

[٦] هذا القول مأخوذٌ من أنَّ أصل الخلق في حقيقة اللغة هو التقدير، وأمَّا الخلق بمعنى الإنشاء فهو من المجاز. قال ابن فارس في "مقاييس اللغة": الخاء واللام والقاف أصلان؛ أحدهما تقدير الشيء... ومن ذلك الخُلُق، وهي السجيَّة، لأنّ صاحبَه قد قُدّرَ عليه؛ وفلانٌ خَليقٌ بكذا، وَأَخْلِقْ به، أي ما أَخْلَقَهُ، أي هو ممَّن يقدَّر فيه ذلك. وَالخَلاَقُ: النَّصيب، لأنّه قد قُدّرَ لكلّ أحدٍ نصيبُه. ومن الباب رجلٌ مُخْتَلَقٌ: تامُّ الخَلْق. وَالخَلْق: خَلْق الكذب، وهو اختلاقُه واختراعُه وتقديرُه في النَّفس، قال الله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ العنكبوت:١٧. وقال الزمخشري في "أساس البلاغة": ومن المجاز: خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ: أوجده على تقديرٍ أوجبَته الحكمة.

[٧] الحجر: ٢٧.

[٨] آل عمران: ٤٩.

ومن أجل ذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [٩].

فالناس إذن تخلُق شيئاً من شيء، فأنا مثلاً أخلقُ من الحجر عموداً، ومن الصوف سجاداً، ولكنَّ الخالقَ الذي يُعظَّم ويُمجَّد هو الله سبحانه وتعالى، فهو أحسن الخالقين على الإطلاق، لأنَّ الله سبحانه وتعالى هو فاطرٌ فوق كونه خالقاً.

وهذا يعني أنَّك أيها الإنسان قد تخلق شيئاً من شيء، أمَّا أن تكون فاطراً فلا، فسيدنا عيسى عليه السلام كان يخلق، لأنه يصنع كهيئة الطير من الطين، أما أن يَفطُر فلا ؟

لماذا ؟! ... لأنَّ الفَطْر: هو إيجاد شيء من لا شيء [١٠].

ولذلك جاء قوله تعالى إخباراً عن نفسه:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١١].

فالله سبحانه وتعالى فاطرٌ يُوجِد منَ العدَم، كما في قوله تعالى حكايةً لسؤال المشكِّكين بالبعث وجواباً لهم:

---

[٩] المؤمنون: ١٤.

[١٠] قال الزبيدي في "تاج العروس": الفَطْر، بالفتح: الشَّقُّ، وقيَّده بعضُهم بأنه الشَّقُّ الأول، كما نقله شيخنا، ج فُطُورٌ، وهي الشُّقوق، وفي التنزيل العزيز: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ الملك:٣... وفي الحديث: (قامَ رسول الله صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم حتى تَفَطَّرَتْ قَدَماه)، أي انشقَّتا... وفَطَرَ الأمرَ: ابتدأه... وقال ابن عبّاس: ما كُنتُ أدري ما فاطر السَّموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها. أي أنا ابتدأتُ حَفْرَها.

[١١] فاطر: ١.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [١٢].

فالفَطْر كان لأول مرَّة، ولم يكن من شيء آخر، لا مِنْ تراب ولا مِنْ ماء ولا مِنْ صلصال ولا مِنْ طين لازب، ولا مِنْ غيرها.

أعود لأقول:

الله خالق، بل هو أحسن الخالقين؛ والله عزَّ وجلَّ فاطر أيضاً؛ فهو يخلق شيئاً من شيء، وهو يخلق هذا الشيء الأوَّل الذي خَلَقَ منه الشيء الآخر، أي يفطر هذا الشيء.

وستجدون في القرآن الكريم آيات تتحدث عن الخَلْق دون أن تذكر الشيءَ المخلوقَ منه، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [١٣].

وهذا من باب الكلام المطلَق، الذي يُحمَل على ما وردَ مقيَّداً، فلم تكن هنا حاجة لأن يقول: خلق كلَّ شيء من شيء، اكتفاءً بفهم السامعين.

---

[١٢] الإسراء: ٥١.

[١٣] الزمر: ٦٢.

من لطائف سورة النحل

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى

آية كريمةٌ نسمعها باستمرار، ويختم بها الخطباء خُطبتَهم يوم الجمعة، وهي قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [1].

في هذه الآية مقابلةُ ثلاثةُ أمورٍ يأمر الله عزَّ وجلَّ بها بثلاثةٍ أخرى ينهَى عنها: فالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى أولاً، والفحشاء والمنكر والبغي ثانياً، فالله تعالى يأمر بالأولى وينهَى عن الأخرى؛ فثلاثة مقابل ثلاثة.

السؤال الأول: ما معنى العدل ؟ [2]

العدل له شقَّان نظريٌّ وعمليٌّ:

---

[1] النحل: ٩٠.

[2] العين والدال واللام أصل لغوي يدلُّ على الاستواء،... قال ابن فارس في "مقاييس اللغة": والعَدْل: الحكم بالاستواء. ويقال للشيء يساوي الشيء: هو عِدْلُه، وعَدلتُ بفلان فلاناً، وهو يُعادله، والمشرك يَعدل بربه، تعالى عن قولهم عُلواً كبيراً، كأنَّه يسوّي به غيرَه... والعَدْل: قيمة الشيء وفداؤه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ البقرة:١٢٣، أي فدية، وكلُّ ذلك من المعادلة، وهي المساواة. وقال ابن الأثير في "النهاية في غريب الحديث": قد تكرر ذكرُ العِدْل والعَدْل بالكسر والفتح في الحديث. وهما بمعنى المِثْل. وقيل: هو بالفتح ما عَادَلَه من جنسه، وبالكسر ما ليس مِنْ جنسه. وقيل بالعكس.

أمَّا النظري فهو: التحقُّق بنسبة الأقوال إلى قائليها، ونسبة الأفعال إلى فاعليها، ونسبة الحقوق إلى مستحقِّيها، ونسبة الصفات إلى الموصوفين بها.

وأمَّا الشِّقُّ العمليُّ فهو: السعيُ بعد ذلك التحقق النظريِّ وبذلُ الجهد من أجل أن تنفِّذ ذلك عملياً.

السؤال الثاني: ما هو الإحسان ؟

أقول: كلُّ عمل أو قول له مستويان اثنان؛ مستوىً مضمونيٌّ ومستوى أسلوبيٌّ، فالمستوى المضمونيُّ هو الذي سمَّيناه "العدل"، والمستوى الأسلوبيُّ هو الإحسان.

وأضرب لتوضيح هذا الكلام مثلاً: لك عليَّ دَين مقداره ألفٌ، والواجب عليَّ أن أوفي لك الدَّين بالعدل وأن أعطيَك الحقَّ، فإذا حملتُ هذا المبلغ ورميتُه في وجهك وقلت لك: هذا حقُّك الذي لك عليَّ، فقد قمتُ بالعدل؛ أي إنني نسبتُ لك الحقَّ الذي لك عليَّ من الناحية النظريَّة، ثم قمتُ بتنفيذه عملياً ووفَّيتك دَينك، فأنا أعطيتك حقَّك بالعدل، ولكن بمعزل عن الإحسان، لأنَّ العدل يعني تنفيذَ المضمون، والإحسانَ يعني تحسين الأسلوب.

فكلُّ عمل له مستويان: مستوى مضموني ومستوى أسلوبي، فالمضمون هنا: أن أعطيَك الدَّين، وأمَّا الأسلوب: فهو أن أعطيَك هذا الدَّين بشكل يناسب إنسانيَّتك ويناسب إنسانيَّتي، أي بشكل لطيف وأنيس وجميل، كأنْ أعطيَك الدَّين وأقول لك: جزاك الله كلَّ خير.

فالمستوى المضمونيُّ إذن هو العدل، والمستوى الأسلوبيُّ هو الإحسان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾: إنَّ الإحسان أو الأسلوب ليس بنافلة،

وإنما هو فرضٌ كالمضمون، أي كالعدل، بل قد يكون مقدَّماً على المضمون نفسه في بعض الأحيان، فالله عزَّ وجلَّ يقول:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾: الله عزَّ وجلَّ يأمر بالمضمون وبالأسلوب معاً، فكلا الأمرين فرضان ومطلوبان شرعاً، ولذلك يقول النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (**إنَّ الله كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيء، فإذا قَتلتُم فأحسِنوا القِتلةَ، وإذا ذَبحتُم فأحسِنُوا الذِّبح، وَلْيُحِدَّ أحدكم شفرتَه وَلْيُرِحْ ذبيحتَه**) [٤].

سأقف عند هاتين الكلمتين: العدل والإحسان، لأنَّهما محوران هامَّان في حياتنا ويجب أن أؤكِّد عليهما: العدل المضمون والإحسان الأسلوب.

والسؤال الآن: كيف يرعى الإنسان الأسلوب من أجل أن يكون أسلوباً مَرْضِيّاً ومقبولاً ؟

والجواب: عندما يشعر بأنَّه مُراقَب.

فعندما يكون الإنسان خالياً بينه وبين نفسه ويُحِسُّ بأنه غير مراقَب، فإنَّه قد يهمل الأسلوب ولا يرعاه، وإذا أحسَّ بأنه مُراقَب فإنه يرعى الأسلوب ولا يهمله، فالأسلوب يتحسَّن عند المراقبة.

مثلاً: عندما تأكل الطعام بينك وبين نفسك، فلن تراعي آداب الطعام كما تراعيها وأنت في جماعة، فربما أكلتَ بسرعة، ويمكن أن يسقط

---

[٣] البقرة: ٢٦٣.

[٤] أخرجه مسلم: كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل.

منك بعض الطعام على الأرض ولا تنتبه؛ فأنت تهمل الأسلوب لأنك تحسُّ بأنك غير مراقَب.

ولكن كيف سيكون طعامك لو كنت مَدعوًّا للعشاء عند أهل خطيبتك ؟ ألن يكون في أحسن صورة وبالأسلوب الأمثل وعلى أكمل وجه ؟!

وهنا قد يسألني سائل: ما هي الجهة التي تراقبني وأحسُّ بمراقبتها من أجل تحسين الأسلوب لديَّ ؟

أقول له: لقد جاء الإسلام ليقول لك: **(الإحسان أن تعبد اللهَ كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك)** [٥].

الله عزَّ وجلَّ يأمر بالعدل والإحسان، وهو يعطيك مؤيِّد الإحسان.

من هنا أقول: إن الأمر يحتاج منَّا إلى قليل من الحياء، لأننا نستحي من الناس ولا نستحي من الله.

كيف تحسِّن أسلوب الأداء في أعمالك إذا شعرت بأنك مراقَب مِنْ قِبَل الناس، ولكنك تعلم أنَّك مراقب من قبل الله عزَّ وجلَّ - الله شاهدي، الله ناظر إليَّ، الله معي - ولا تُحسِّن، إذن ما قيمة مراقبة الله تعالى ؟!

لقد قلنا: إن العدل أن تنسب الصفة الحقَّة إلى مَن اتصف بها، وبناءً عليه فإنَّ كلَّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا عادلين، لأنَّهم نسبُوا إلى الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الرسالة وآمنوا بأنه رسول الله.

ولكن هل كان كلُّ الصَّحابة على مستوى واحد من الإحسان ؟

لقد كانوا متفاوتين فيه بكلِّ تأكيد، فليس يستوي أبو بكر وعمر ومنْ

---

[٥] متفق عليه. البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبيَّ ﷺ. ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

وصفَهم عليٌّ كرَّم الله وجهه - وقد سُئِلَ: كيف كان حبُّكم لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ؟ فقال: "**كان واللهِ أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمَّهاتنا ومنَ الماء البارد على الظمأ**" ! - ليس يستوي في الإحسان هؤلاء وأولئك الذين كانوا يُنادُون من وراء الجدار: يا محمَّد اُخرجْ إلينا نكلِّمْك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٦].

فالإحسان هو مجال التنافس، ولنضرب مثالاً على ذلك الزكاة، فالمسلمون جميعاً يدفعون الزكاة، وهذا من العدل، وهو ليس مجالاً للتنافس، ولكن التنافس يكون في الإحسان، في أسلوب الأداء، كما في الحديث: (**ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُه ما تُنفقُ يَمينُه**) [٧].

الإحسان هو في الأسلوب، ولذلك قلتُ مرة: إنَّ الأحسن في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾، لا يعني الزيادة باللفظ على من سلَّم عليك، بل يعني الأحسن في الأسلوب والأمثل، فمن سلَّم عليك وهو غير مُبْتسم فَرُدَّ عليه السَّلام وأنت مُتَبسِّم !

أنا أؤكِّد على قضية العدل والإحسان، لأنهما الأمران اللذان يقوم بهما الكونُ خيرَ قيام، ولأننا نفتقر إليهما بشدَّة.

---

[٦] الحجرات: ٣-٤.

[٧] متفق عليه. البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين. ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة. والآية بعده من سورة النساء: ٨٦.

نحن نريد عدلاً وإحساناً، فانْظُر نفسَك وأنت الآن محامٍ في مكتبك، أو طبيب في عيادتك، أو شيخٌ في مسجدك، أو وزير في مكتبك: هل تحقّقتَ بالعدل والإحسان، وقد عرفت الآن معنى العدل والإحسان ؟!

علينا من باب العدل ألا ننسب الحديث إلى النبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما لا نكون متأكدين من أن هذا الحديث صحيح، وألا نتزيَّن بادِّعاء أفعالٍ حَسَنَةٍ لم نعملها:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٨].

فالعدل أن تنسبَ القولَ لقائله والفعلَ لفاعله، ومشكلتنا أننا لا ننسب القول لقائله ولا ننسب الفعل لفاعله، فكم ظلم بعضُنا بعضاً في نسبة ما لم يقولوا إليهم، وفي نسبة ما لم يفعلوا إليهم، سواء أكانت هذه الأفعال جيِّدة أم سيئة، فكل هذا ظلم، والظلم يقابل العدل ؟!

لذلك كم قصَّرنا في العدل، وبالتالي كم قصرنا في الإحسان ! فالإحسان لا يقوم إلا على العدل، لأنَّ العدل والإحسان مقترنان مع بعضهما، **فإن لم يكن المضمون صحيحاً فلن يُتوِّجَ الإحسانُ مضموناً غير صحيح.**

أنا لا أتصوَّر محسناً في الرشوة، لأنَّ الرشوة حرام، والإحسان لا يقوم على أمر غير مشروع، فإذا صلحَ المضمون جاز أن يُبنى عليه الإحسان، وإذا فسدَ المضمون انتفَى الإحسان.

ليس هناك مشركٌ محسنٌ في شركه، لا...:

---

[٨] آل عمران: ١٨٨.

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [٩].

السؤال الثالث: ما المقصود بـ: إيتاء ذي القُربى ؟

والسؤال: لماذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ولم يقل: (وإعطاء ذي القربى) ؟ وهل هناك فرق بين الإيتاء والإعطاء ؟

قبل أن أذكر الفرق سأذكر بعض الآيات التي ورد فيها الإيتاء:

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [١٠].

ويقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [١١].

ويقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [١٢].

وأمَّا الإعطاء فقد ذكر في مثل قول الله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [١٣].

وأظنُّ أنَّ الفرق بين الإيتاء والإعطاء قد أضحى واضحاً من خلال هذه الآيات، وهو: أن الإيتاء والإعطاء، إذا تعلَّقا بأمر ماديٍّ، فإنَّ:

الإيتاء: هو أن **تعطي الآخر حقَّه** الذي وجب له عندك.

---

[٩] لقمان: ١٣.

[١٠] البقرة: ٤٣.

[١١] النساء: ٤.

[١٢] الأنعام: ١٤١.

[١٣] التوبة: ٥٨.

وأما الإعطاء: فهو أن تعطي الآخر لا لأنَّ له حقّاً عندك، وإنَّما تعطيه ابتداءً ومبادرة.

فمثال الإيتاء الزكاة، فأنت تعطي الفقير حقّه الذي وجب له عندك، ومثال الإعطاء: الصدقة والهدية، فأنت تعطيها الآخر من دون أن يكون له حقٌّ عندك.

يمكن أن يتبادر إلى الذهن سؤال: نحن ندعو الله عزَّ وجلَّ بقولنا:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [١٤].

فهل لنا حقٌّ على الله ؟! ... والجواب: نعم. ودليل ذلك قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [١٥].

فقد تفضَّل ربُّنا فوعدَ، وهو الذي لا يخلف الميعاد بمنِّه وكرمه، فأصبح للعباد حقٌّ على الله عزَّ وجلَّ، هو الذي أوجبه على نفسه.

وهنا يكمن الفرق، فحقُّ الفقير علينا لم نوجبه نحن على أنفسنا، بل أوجبه الله عزَّ وجلَّ، أمَّا حقُّنا على الله عزَّ وجلَّ فقد أوجبه الله تعالى على نفسه.

والسؤال الآن: ما علاقة العدل والإحسان بإيتاء ذي القربى ؟

العدل مضمون، والإحسان أسلوب، وإيتاء ذي القُربى مثال للعدل والإحسان، فيا أيُّها الإنسان، عليك أولاً أن تكون عادلاً فتؤدي للقريب الحقَّ الذي له عليك، وعليك ثانياً أن تتصف بالإحسان في أدائك القريبَ حقَّه

---

[١٤] البقرة: ٢٠١.

[١٥] آل عمران: ١٩٤.

الذي عندك، بأن تؤدِّي إليه الحقَّ على أنَّه حقٌّ له، لا على أنَّك تعطيه ابتداء، فهذا من الإحسان، ولذلك عبَّر القرآن الكريم بلفظ الإيتاء لا بالإعطاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: عليك أن تكون عادلاً في الأداء إلى القريب... هذا الأداء عدل؛ وعليك من أجل تحويله إلى الإحسان أن تستشعر وأنت تؤدِّي هذا الحقِّ أنَّك تعطيه على سبيل الإيتاء لا على سبيل الإعطاء، بأن تستشعر أنَّك تؤدي إليه حقَّه الذي له عندك، وكأنَّك مدينٌ له بهذا الذي تؤدِّي إليه، فإذا أعطيتَه على سبيل الإيتاء كان هذا الأمر متلبِّساً بلبوس الإحسان.

سؤال آخر: لماذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ولم يقل: إيتاء الفقراء ؟

لأنَّ أهمَّ حقٍّ عليك هو حقُّ القريب، أليسَ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [١٦].

ورسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: **(دينارٌ أنفقتَه في سبيل الله، ودينارٌ أنفقتَه في رقَبة، ودينارٌ تصدَّقتَ به على مسكين، ودينارٌ أنفقتَه على أهلك؛ أعظمُها أجراً الذي أنفقتَه على أهلك)** [١٧].

ويقول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: **(كفَى بالمرء إثماً أن يُضيِّع من يَقُوت)** [١٨].

---

[١٦] الأنفال: ٧٥.

[١٧] أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك.

[١٨] أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم. وأخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال، بلفظ: **(كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمَّن يملكُ قُوتَه)**.

السؤال الرابع: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾:

في هذه الآية كما قلنا "تقابل" بحسب اصطلاح البلاغيين [١٩]، إذ يأمر الله تعالى بثلاثة أمور وينهَى في مقابلها عن ثلاثة، وليست المقابلة في العدد فقط، وإنما لكل واحدة من المأمورات ما يقابلها من المنهيّات، فالعدل في مقابل الفحشاء، والإحسان في مقابل المنكر، وإيتاء ذي القربى في مقابل البغي.

١- ينهى الله عزَّ وجلَّ عن الفحشاء ويأمر في المقابل بالعدل؛ فما معنى الفحشاء؟

الفحشاء هي: التجاوز العشوائي، وهذا أبشع أنواع الظلم، فقولنا (فَحَشَ): أي تجاوز حدَّه عشوائياً [٢٠].

٢- والله عزَّ وجلَّ ينهَى عن المنكر، وفي المقابل هو يأمر بالإحسان، فإمَّا أن تستحسن هذا الأسلوب وإما أن تُنكره، والمنكَر هو المرفوض وغير المقبول [٢١].

٣- والله عزَّ وجلَّ ينهى عن البغي، وهو في المقابل يأمر بإيتاء ذي القربى،

---

[١٩] وقد يسمِّيه بعضهم الطباق أو المطابقة. قال ابن أبي الإصبع العدواني في "تحرير التحبير": ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي بصيغة تعريف الجنس ليستغرق كلَّ ما يجب أن يُنهى عنه، كما استغرق كلَّ ما يجب أن يُؤمر به، والمطابقة اللفظية في قوله تعالى: ﴿يأمر﴾ و ﴿ينهى﴾، والمعنوية في قوله سبحانه: ﴿بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ وقوله: ﴿الفحشاء والمنكر والبغي﴾، فإنَّ الثلاثة الأخر أضداد الثلاثة الأول، لأنَّ الأول من الفعل الحسن، والآخرُ من الفعل القبيح، فطابق بين الحسن والقبح مطابقة معنوية.

[٢٠] قال ابن منظور في "لسان العرب": وكلُّ شيء جاوز قدرَه وحدَّه، فهو فاحِشٌ. وقد فَحُشَ الأمر فُحْشاً وتفاحَشَ... وكلُّ أمر لا يكون موافقاً للحقِّ والقَدْر، فهو فاحشةٌ.

[٢١] قال ابن فارس في "مقاييس اللغة": النون والكاف والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف المعرفة التي يَسكُن إليها القَلب. ونَكِرَ الشّيءَ وأنكَره: لم يَقْبَلْه قلبُه و لم يعترِفْ به لسانُه.

فالبَغي: هو أن تعتدي على الحقوق [٢٢]، فإذا لم تُعطِ ذا القربى حقَّه فأنت باغٍ:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [٢٣].

وللأسف الشديد لقد أصبحنا اليوم بُغاة نعتدي على حقوق بعضنا، لأقلِّ قوَّة يستشعرها أحدنا أمام أخيه.

السؤال الخامس: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

ما الذي تعنيه الموعظة في اللغة وفي دلالات النسق القرآنيِّ؟

أنا أفهم أنَّ الوعظ هو: الإرشاد الكامل للحياة كلِّها، فعندما أرشدك في كلِّ شؤون الحياة فأنا أعِظُك [٢٤].

وهذا بخلاف مفهوم الوعظ عندنا اليوم، فقد أصبح الواعظ هو من يجلس ويحدِّث الناس أحاديث ضعيفة ويقصُّ عليهم قصصاً لا أصل لها،

---

[٢٢] قال الراغب في "مفردات القرآن": البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتحرَّى؛ تَجاوزَهُ أو لم يتجَاوزْه، فتارةً يُعتَبرُ في القدْر الذي هو الكميَّة، وتارةً يُعتَبر في الوصف الذي هو الكيفية. يقال: بغيت الشَّيء إذا طلبت أكثر ما يجب وابتغيتُ كذلك، قال عزّ وجلّ: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ التوبة:٤٨، وقال تعالى: ﴿يبغونكم الفتنة﴾ التوبة: ٤٧.

[٢٣] الحجرات: ٩.

[٢٤] ولأنَّ القرآن إرشادٌ وتوجيه لكل صُعُد الحياة فقد سمَّاه الله تعالى موعظة، فقال: ﴿هذا بيانٌ للناس وهدى وموعظةٌ للمتقين﴾ آل عمران: ١٣٨. كما سمَّى إرشاد لقمان عليه السلام لابنه، وهو إرشاد تعلّق بشؤون الحياة كلِّها، سمَّاه موعظة: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه﴾ لقمان: ١٣.

ويبكي ويستبكي، فهو يتخاشع ويريد أن يخشع الآخرون ولو بمادَّة غير صحيحة علمياً.

الوعظ هو: **توجيهٌ كامل للإنسان في كل ما يحتاجه هذا الإنسان، في** كلِّ الصُّعد والمسارات والمساحات والمجالات.

و إلا... لماذا قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ...﴾ ؟

لأنَّك إذا فعلتَ هذه الأمور الثلاثة: العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى؛ واجتنبتَ هذه الأمور الثلاثة: الفحشاء والمنكر والبَغي، فقد وجَّهتَ مسارات حياتك كلَّها في الاتجاه الإنساني الراشد.

ومن هنا ندرك سرَّ اختيار النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لهذه الآية، ليُجيب بها على سؤال أكثم بن صيفيّ، وهو من حكماء العرب، وكان قد سمع بمبعث النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فأرسل إليه رسولين يسألانه: من أنت ؟ وما أنت ؟ وما الذي جئت به ؟

فأتيا رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فسألاه، فقال لهما: **(أمَّا من أنا فأنا مُحمَّد بن عبد الله، وأمَّا ما أنا فأنا عَبْدُ الله ورسولُه)**. ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

فلما سمعَ أكثمُ بن صيفي ما تلا عليه رسولاه قال: أَيْ قوم؛ أراه يأمرُ بمكارم الأخلاق وينهَى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤساءَ ولا تكونوا

فيه أذناباً، وكونوا فيه أولاً ولا تكونوا فيه آخِراً [٢٥].

وتعلمون أنَّ (من) في اللغة للعاقل، وأنَّ (ما) لغير العاقل، ولذلك كان سؤال: (من أنت ؟) سؤالاً عن الشخصية، وسؤال: (ما أنت ؟) سؤالاً عن الهوية، وأتى جواب رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وافياً بالمقصود من كلِّ سؤال.

وموطن الشاهد في الحديث: أنَّ الرسولين لما سألا النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: وما الذي جئتَ به ؟ أعطاهم هذه الآية، لأنَّ هذه الآية شاملة، وقد تضمَّنت خير توجيهٌ للإنسان وأكمله في كلِّ ما يحتاجه هذا الإنسان، كما قلنا.

ولذلك اختار عمر بن عبد العزيز ﷺ هذه الآية ليجعلها خاتمةً لخطبة الجمعة، ولذلك تسمعون اليوم كثيراً من الخطباء يقرؤون هذه الآية في نهاية الخطبة.

اللهمَّ اجعلنا من أهل العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وجنِّبنا الفحشاء والمنكر والبَغي؛ اللهمَّ اجعلنا منَ المتَّعظين.

---

[٢٥] أخرجه أبو نُعيم الأصبهاني، في كتاب "معرفة الصحابة"، في ترجمة أكثم بن صيفي. وكان رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كثيراً ما يتلو هذه الآية على وفود القبائل الذين كان يلقاهم بمكة قبل الهجرة، ليعرض عليهم الإسلام، ومن ذلك ما أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" أنَّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم تلاها على وفد بني شيبان، فلما سمعوا ذلك قالوا: دعوتَ والله يا قرشيُّ إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، ولقد أفِكَ قومٌ كذبوك وظاهروا عليك.

من لطائف سورة الضحى

الإنسان والمعاناة

كثيراً ما يقرأ معظمنا سورة الضُّحى:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [1].

ولقد قرأتها اليوم وتوقَّفتُ عند فكرة تتصل بهذه الآيات الثلاث:

١- ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾.

٢- ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾.

٣- ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾.

فقد ذكَّرتني هذه الآيات ببحث قديم، فتَّشْتُ فيه عن الأزمات التي يعيشها الإنسان، أو عن الصعوبات التي يواجهها الإنسان، وعن النواحي التي يعاني منها أكثر من غيرها، فرأيتها كالتالي:

١- معاناة نفسيَّة وجدانية.

---

[1] سورة الضحى: مكيَّة، وترتيبها في المصحف /٩٣/.

٢- معاناة فكريَّة عقليَّة.

٣- معاناة اقتصادية.

أنت تعاني ضمن هذه الأمور، فإمَّا أن تكون معاناتك في الأمور النفسية "الوجدانية"، وإمَّا أن تكون في الأمور الفكرية "العقلية"، وإمَّا أن تكون في الأمور المعاشيَّة "الاقتصادية".

ولقد أرسل الله عزَّ وجلَّ رسوله الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يحمل القرآن الكريم شفاءً للناس، كما بيَّنا في لطيفة أخرى، أي ليخرجنا من المعاناة، وليقدم لنا تغطيةً عظيمة لقضايا النفس والوجدان، وقضايا العقل والفكر، وقضايا الاقتصاد والمال.

ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل من هذا النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - وهو يزوِّده بالقرآن الكريم الذي فيه الحلول والقواعد الناظمة للميادين النفسية والفكرية والاقتصادية - جعل منه إنساناً ذا معاناة في هذه الأمور؛ فالإنسان الذي يحمل للناس حلولاً لمشكلات يعانونها ويعانيها معهم، وقواعد ناظمةً لقضايا النفس والفكر والمال التي يعيشونها ويعيشها معهم أيضاً، سيكون تأثير مثل هذا الإنسان أقوى.

ولذلك أتت هذه السورة لتخاطب الرَّسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قائلةً له: إذا كان الله تعالى قد اختارك يا مُحمَّد من أجل أن تحمل للإنسان رسالةً فيها حلٌّ لمعاناته في الميدان النفسيِّ "الوجدانيّ"، وفي الميدان الفكريِّ "العقليّ"، وفي الميدان الاقتصاديِّ "الماليّ"، فها أنت قد عانيت من كل ذلك؛ فمن كان صاحبَ الفضل في إخراجك من هذه المعاناة، ومن الذي تفضَّل عليك فلبَّى حاجاتك في مواجهة هذه الصعوبات ؟

إنَّه الله عزَّ وجلَّ.

إذن، ما عليك يا مُحمَّد إلا أن تكون الآن داعيةً إلى الله عزَّ وجلَّ تحمل للناس المنهاج ومع المنهاج تحمل التجربة.

ولا شكَّ في أنَّ الإنسان الذي يحمل المنهاج والتجربة معاً سيكون أقوى تأثيراً في الناس، لأنَّه لا يقدِّم لهم نظريةً لم يَعِشْ أبعادها العمليَّة، ولا يطرح منهاجاً مفارقاً للواقع الذي ينطوي فيه الناس، بل إنَّه كأشدِّهم معاناة في ذلك كلِّه، لذا سيكون تأثيره أقوى، وستكون دعوته أعظمَ فاعليَّة وأكثر نجاعةً.

فَيَا مُحمَّد، صلَّى الله عليه وآله وسلَّم:

١- ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾: واليُتم نموذجٌ معبِّر وصادق للمعاناة النفسية الوجدانية، وقد سُئِل الإمامُ عليٌّ ﷺ عن المنظر الذي يؤثر فيه وجدانياً ونفسيَّاً أكثر من كلِّ شيء ﷺ فقيل له: ما أقسَى ما ترى على نفسك ؟ فقال: ولدٌ فَقَدَ أباه وهو في أشدِّ الحاجة إليه، ووالدٌ فَقَدَ ولده وهو في أشدِّ الحبِّ له.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾: فرسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كان يتيماً، وعاش المعاناة النفسية والوجدانية ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ آواه إليه.

هناك تفاسير تقول: آواه إلى جدِّه عبد المطلب وإلى عمِّه أبي طالب.

وأنا أقول: آواه إليه تعالى، فالله عزَّ وجلَّ هو الذي آواك وتكفَّلك يا مُحمَّد.

٢- ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾: أي باحثاً عن نظام عقلي وفكري؛ باحثاً عن قواعد تنظِّم تفكيرك وتهدي عقلك إلى الحقائق المتناثرة والمبثوثة في هذا الكون، فهداك إليه جلَّ وعلا أيضاً.

٣- ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾: العائل الفقير، يقال: عالَ الرّجلُ يَعِيلُ عَيْلَةً فهو عائلٌ، إذا افتَقَر[٢]. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم عائلاً فأغناه به الله عزَّ وجلَّ.

أنت الآن يا مُحمَّد صاحبُ معاناة وتجربة وتحمل المنهاج، فما هو مضمون هذا المنهاج ؟ وما هي نماذجُه ؟

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾:

هذه ثلاث قواعد تبلِّغها للناس من خلال تجربتك ومن خلال منهاجك الذي أنزلتُه عليك يا مُحمَّد.

إحداها في الميدان الاجتماعي والنفسي، وهي: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

والأخرى في الميدان الاقتصادي، وهي: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

والثالثة في الميدان الفكريِّ والمعرفي، وهي: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

---

[٢] فعين الفعل ياء، ومنه قوله تعالى: ﴿وإنْ خِفتُمْ عَيْلَةً فسوف يُغنيكُمُ اللهُ مِنْ فضله﴾ التوبة:٢٨، وأما عالَ يعول بالواو فهو بمعنى جار ومال عن الحق، وبه فسَّروا قول الله تعالى: ﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ النساء:٣؛ ونقل الكسائي عن بعض فصحاء العرب أنهم يقولون: عال الرجلُ يعول إذا كثر عياله. وإلى هذا القول ذهب الإمام الشافعي في تفسير: ﴿ألا تعولوا﴾، واحتجَّ آخرون من علماء اللغة على الشافعي في هذا القول، وقالوا: يقال فيمن كثرت عياله أعال يُعيل، وأمَّا عال يعول فهو من الجور، كما في قول عبد الله بن الحارث السهمي من مهاجرة الحبشة:

إنَّا تبعنا رسولَ الله واطَّرحوا قولَ النبيِّ وعالوا في الموازين

ما علاقة النعمة والتحدُّث بها بالميدان الفكريّ والعقليّ والمعرفي ؟!

بعض المفسرين يقولون: إنَّ النعمة هي المال، وأنا أفهم أنَّ (النعمة) حيثما جاءت في القرآن الكريم هي الإسلام [٣]؛ فقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، يعني عندي: حدِّث بالإسلام وادعُ إليه.

فما دمتَ تبحث في ميدان الفكر عن قواعد تنظم فكرك وعقلك، فها نحن قد هدَيناك إلينا، إلى إسلامنا، إذن: وأمَّا بنعمة ربِّك - التي هُديت إليها - فحدِّث الناس.

ثلاثة نماذج لثلاث قواعد: فاليتيم في الميدان النفسيِّ والوجدانيِّ، والسائل في الميدان الاقتصاديِّ، ونعمةُ الإسلام في ميدان البحث عن الحقيقة.

فاللهمَّ صلِّ على مُحمَّد الذي كان يتيماً فآوَيتَه إليك، ومن كان لا يدري ما الكتاب فهدَيتَه إلى إسلامك، وكان عائلاً فأغنيتَه بك.

واجعلنا ممَّن يكفل اليتيم ويعطي السائل، وممَّن يحدث بنعمة الإسلام، يا ربَّ العالمين.

---

[٣] يرى أستاذنا المؤلف أنَّ لمصطلح النعمة في القرآن الكريم - حيثما ورد، وبأي اشتقاق كان - مستويان من المعنى، أحدهما ثابت وهو يدلُّ على الإسلام، والآخر متغيِّر بحسب السياق، فقوله تعالى: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ الفاتحة:٧ يعني صراط الذين أنعمت عليهم بالإسلام، وقوله تعالى: ﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ آل عمران:١٠٣ أي: أصبحتم بالإسلام إخواناً. وقوله تعالى: ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ المائدة:٣ أي الإسلام.

من مؤلفات المفكر الإسلامي الدكتور الشيخ

١- أسرتي وإسلامي.

ط ٢، ٢٠٠٤. القياس: ١٧ × ٢٤ فني. الصفحات: ١٧٦.

دراسة عن الأسرة في الإسلام تكويناً وتنظيماً وأفراداً: عن الكبير المسنِّ براً وتقديراً، والمرأة دوراً ومكانةً، والطفل رعايةً وعناية، ودستورٌ للعلاقات الأسرية من القرآن والسنة، فالأسرة هي الدرع الحصينة، وهي مطلب إنساني فطري لا بديل عنه، وهي من غير الإسلام تعبٌ وفوضى، كما إن الإسلام من غيرها تجريد وفتوى، فإن كانا معاً - الأسرة والإسلام - بانسجام سعدت الأسرة وانتشر الإسلام ؛ وإن تنافرا فالويل عندها للإنسان.

٢- الإسلام والإنسان.

ط٣، ٢٠٠٦. القياس: ١٥ × ٢١. الصفحات: ١٢٨.

يعد هذا الكتاب إضافة جد هامة نحو تأسيس علم كلام جديد، يلاحظ تطور الفكر الإنساني وارتقاءه، ويسهم في تجلية أبعاد مناسبة هذا الدين للإنسان. وهو يقدم وجهة نظر عن الإسلام والإنسان، فيها - بعد تعريف كلٍّ منهما - حديثٌ مفصل عن الإنسان كما يصفه الإسلام، أو إن شئت قل: ملامح الإنسان في الإسلام، ثم عن الإنسان كما يريده الإسلام ؛ غايةً وهدفاً، ثم عن التكليف طريقاً لتحقيق المطلوب من غاية وهدف.

الإسلام والإنسان - كما تقول مقدمة الكتاب - عنوان حياة آمنة تعقبها آخرة فالحة، وسنبقى نردد: لا غنى للإسلام عن الإنسان لأنه محلُّه ؛ ولا غنى للإنسان عن الإسلام لأنه سبيله.

٣- التربية الإسلامية: أبحاث علمية. أسس تربوية. طرائق تعليمية.

ط١، ٢٠٠٥. القياس: ١٧ × ٢٤. الصفحات: ١٤٤.

يتوجه هذا الكتاب إلى إعداد مدرسي التربية الإسلامية الإعداد العلمي المناسب، وقد قسمه المؤلف إلى ثلاثة أقسام، أولها أبحاث علمية تهدف إلى تزويد مدرس التربية الإسلامية بتصور شامل

عن الإسلام. أما القسم الثاني "أسس تربوية: فيضم ثلاثة فصول: قواعد إسلامية عامة في تربية الطفل. مقومات مدرس التربية الإسلامية. الوسائل التعليمية ودفتر التحضير. ويشرح القسم الثالث "طرائق تعليمية" - في ثمانية فصول - طرق تدريس أقسام التربية الإسلامية، كتدريس القرآن الكريم تلاوة وتفسيراً، وتدريس الحديث الشريف والسيرة النبوية والنظم الإسلامية وغيرها.

٤- التطرف والاعتدال وقضايا مقاربة: السلام والحرب، المقاومة والإرهاب، الأصولية والوسطية.

ط١، ٢٠٠٧. القياس: ١٥ × ٢١. الصفحات: ١٢٨.

لماذا أضحى الإرهاب قرين المسلمين، بل وبات يغطي بقَتاره سيماء الإسلام الناصعة ؟ وهل للمسلمين دور في ذلك ؟ إنها مصارحات يفضي بها المؤلف إلى أبناء أمته، وصرخات منذرة، ودعوة إلى التفكر في واقع الإسلام والمسلمين اليوم. يقدم الدكتور الشيخ محمود عكام في هذا الكتاب شهادة عن وجودنا في عالم اليوم، الذي غدا المسلمون والعرب فيه مادة لأهم أحداثه، غير أن ذلك لا يعني بالضرورة أنهم يشاركون في صناعة هذه الأحداث وصياغتها. الذي علينا في هذه الشهادة أكبر مما لنا، والخطاب الموجه إلى الذات أعظم من ذاك الموجه إلى الآخر. والدعوة فيها صريحة إلى مواجهة الحقيقة، فإن كانت إسرائيل وأمريكا مشكلة كبيرة لنا، فإنهما ليستا المشكلة الأكبر: فدواؤك فيك وما تبصر، وداؤك منك وما تشعر.

٥- حوار مع الصحافة: أسئلة من الواقع وإجابات من الإسلام.

ط٢، ١٩٩٩. القياس: ١٧ × ٢٤. الصفحات: ١٦٨.

حوارات حرَّة عن الإسلام وقضايا الإنسان اليوم، في الدين والاجتماع والسياسة والاقتصاد والفكر والعلم، وكل ما يشغل بال الصحافة، يقدِّم فيها الدكتور محمود عكام فكره المتنور، وأهمُّ ملامح هذا الفكر، بعد الارتباط بنور القرآن الكريم:

أ - ملامسته للإنسان عن معرفة، ومخاطبته عن تقدير.

ب - أنَّه لا يحرص على إصدار الأحكام، بل يبغي البرهان والدليل.

ج - أنَّه يسعى إلى رسم معالم صيغة للتعايش بين الناس كافة.

ويتخذ من أجل ذلك كله أرقى سُبل الحوار وآنقها، مترسماً خطى سيد المصلحين ﷺ.

٦- سبيل المعروف: دراسةٌ علمية وعملية يحتاجها كلُّ مسلم.

ط٥، ٢٠٠٦. القياس: ١٧ × ٢٤. فني. الصفحات: ٣٠٤.

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعني أن يكون الإنسان مسؤولاً عن صيانة مجتمعه

ورعاية أمته، وهذا الكتاب أول "تقنين" وصياغة معاصرة لهذه الفريضة، في موادَّ مرتبة وموزعة على جوانب الحياة كافة، مدعَّمة بالنصوص القرآنية وشواهد الحديث الشريف، لتشكل نواةً لمشروع نظام إنساني عام. وصل عدد هذه المواد - مواد منهاج فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- إلى مئة مادة وست، توزعت على ستة فصول رئيسة.

٧- الشريعة الإسلامية: رسم أبعاد وتبيان مقاصد.

ط١، ٢٠٠٠. القياس: ١٧ × ٢٤. الصفحات: ١٢٠.

محاضرات في الشريعة الإسلامية، ومدخل إلى دراستها، يبين مصادر هذه الشريعة التي جاءت لرعاية سلوك الإنسان قولاً وفعلاً، من خلال التكليف الذي يبنى على أساس من "المقاصد" التي ينبغي حفظها ورعايتها، كما يبين الكتاب الأطوار التي مرت بها دراسة الشريعة الإسلامية، وأهم سماتها.

٨- عُصَارات: كلمات في المنهج والنقد والحبِّ.

ط٢، ١٩٩٦. القياس: ١٧ × ٢٤. الصفحات: ١٣٦.

كلمات مستخلصة من تجارب، وعبارات صاغتها معاناة، "عشتُ بعضها بنفسي، وتلقيت بعضها الآخر عن تجارب غيري، وأنا في كلا الحالين راصدٌ، أبتغي في النهاية خدمة، وخدمة الإنسان دأبي، وأجمل الخدمة اختصار مسافات الحياة بمستوياتها، في ثوب كلمة ناصحة منصوحة".

٩- فكر ومنبر: مفاهيم وقضايا تُقدمها خطبة الجُمعة.

سلسلة فكر ومنبر / ١. ط ٢، ١٩٩٧. القياس: ١٧ × ٢٤. الصفحات: ٥٢٠.

إعداد وتقديم: محمد أديب ياسرجي ومحمد أمير ناشر النعم.

نالت خطبة الجمعة - على يد الدكتور محمود عكام - نصيباً وافراً من عملية تجديد الفكر الإسلامي، في أسلوبها ومضمونها، ويضم هذا الكتاب مجموعة من الخطب الرائدة التي ألقاها الدكتور محمود من على منبر جامع التوحيد الكبير في حلب، والتي غطّت مواضيعها مساحةَ الحياة الإنسانية، أملاً في إقناع الناس بجدارة الإسلام للحياة، وأحقيَّته باستلام زمامها، وأسبقيَّته من أجل أن يكون ملاذاً ومرجعاً للإنسان الباحث عن وجود.

وقد قدَّم مُعدًّا الكتاب لكل واحدة من الخطب بمقدمة خاصة تضعها في إطارها العلمي والفكري والاجتماعي، بالإضافة إلى مقدمة عامة مطولة للكتاب، درسا فيها عبر ثلاثة فصول خطبةَ الجمعة: أصلَ مشروعيتها، والحكمةَ منها، وأسبابَ تخلفها اليوم عن القيام بمهمتها الموكلة

إليها، ثم درسا ملامح التجديد في خطبة الجمعة عند الدكتور الشيخ محمود عكام، وهموم وقضايا الخطبة عنده.

١٠- فكر ومنبر: قضايا الإنسان ومفهومات الرسالة في خطبة الجمعة.

سلسلة فكر ومنبر / ٢. ط ١، ٢٠٠٢. القياس: ١٧ × ٢٤. الصفحات: ٤٨٠.

إعداد ودراسة: محمد أديب ياسرجي.

الحلقة الثانية في سلسلة "فكر ومنبر"، وهي تضم خمساً وثلاثين خطبة من الخطب الرائدة للدكتور محمود عكام. من عناوين خطب هذا الجزء: سلسلة خطب "نحن والغرب"، وسلسلة خطب "إعداد الفرد" سلوكياً ونفسياً وفكرياً، وسلسلة خطب "مقومات الهجرة"، وسلسلة خطب "مقومات الوعي الإنساني". قدَّم مُعدُّ الكتاب لهذا الجزء بدراسة نقدية تحليلية لخطبة الجمعة في أربعة فصول، أولها عن قواعد إعداد خطبة الجمعة، والثاني عن أسس إلقائها، والثالث يبحث في أهم ملامح شخصية الخطيب الناجح وتأهيله وكيفية إعداده، أما الفصل الرابع فيدرس الأهداف التي ينبغي على خطبة الجمعة أن تسعى لتحقيقها.

١١- اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي: قبساتٌ من ضياء أهل العباء عليهم السلام.

ط٢٠٠٢، ١. القياس: ١٧ × ٢٤. الصفحات: ١١٢.

جولة في رياض الحب والفكر والأدب، فيها تأطير للموقف المطلوب تجاه أهل البيت عليهم السَّلام في دائرة مصطلحين هما الثناء والولاء، فأهل البيت أمنٌ من الزيغ وأمان من الضلال، وقد كتبه الدكتور محمود عكام أملاً في إظهار نقطة اتفاق ثابتة أكيدة، تكفي مع مثيلاتها في الحكم والوضوح، لتذكرة المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم بأن الأوان آن لوحدة مطلوبة واجتماع منشود، بتوضيح سبل، وإزالة سدود، فأهل البيت عامل وحدة ولقاء، ليس الوحيد في عالمه، ولكنه واحد من جملة، فهل نجعله سبيلَ وحدة منشودة، ولقاءٍ أخويّ مؤكد ؟

١٢- مسيرة حاجّ: أحكام. أدعية. نفحات.

ط ٢٠٠٥، ١٠. القياس: ١٠ × ١٤. الصفحات: ١٢٨.

العدد الأول من سلسلة أركان الإسلام، وهو دليلٌ للحاجّ والمعتمر، يُمضيان فيه مع المؤلف زيارتهما. فإذا كان لكل إنسان مرابع ومغان، فما أروعها حينما تكون داعمةً للمبدأ، وما أنبلها حين يوجدها المبدأ نفسُه، وما الحج إلا زيارة واعية لمرابعنا ومغانينا، يستجمع فيها المسلم نفسه ليؤكد مع الله عهده، ويدعّم مع ربه ولاءَه وعبوديته.

١٣- مسيرة صائم: حكم وأحكام ودروس وأحداث.

ط ٨، ٢٠٠٧. القياس: ١٥ × ٢٢. الصفحات: ١٢٨.

العدد الثاني من سلسلة أركان الإسلام، وهو يضم أحكام صومٍ موجزة، وحكماً ودروساً بالأدلة مؤكّدة ومعزَّزة. فكل حكم في ديننا وراءه حكم كثيرة، وإن كان لكل فريضة فضيلة تخيِّم عليها وتسودها فأهم فضائل الصوم حرية؛ وإذا كانت الحرية تخليصاً من قيد هوىً فيه هوان، ومضاء في مسارِ رفعةٍ وأمان في بناء الإنسان، فرمضان لهذه الفضيلة عنوان، إذ فيه الصبر، والصبر طريق الحرية، وفيه الضبط الذاتي، والضبط الذاتي أُسُّ الإنسان الحر.

١٤- من ذاكرة التمرد: صفحات من التفكير في الممنوع والمرغوب.

ط٢، ٢٠٠٣. القياس: ١٧ × ٢٤. الصفحات: ٢٠٨.

مقالات ناقدة جريئة، ومحطات للسؤال صريحة، ومواقف للاعتبار يقظة، يقف فيها الدكتور محمود عكام موقف الشاهد البصير، حتى لا نندم ونقول: قد فات الأوان.

من عناوين هذه المقالات: معيار الفطرة عبر الطفولة - لا تحكم على الظاهر - لا يا عرب - لنلتقِ دون ألقاب - لعبة السياسة في العالم الثالث - رؤى في زنزانة الحرية - فلسطين الدرس والعبرة - ربعك الناقص. صدرت الطبعة الأولى من الكتاب بعنوان: لوحات. صفحات من الإيمان والتجربة والوجدان.

١٥- من مقولات الفكر الإسلامي: رؤيةٌ جادَّة لموضوعات هامَّة.

ط ٢٠٠٢، ١. القياس: ١٧ × ٢٤ فني. الصفحات: ٤٩٦.

رؤية إسلامية جادَّة، تنهل من معين النصِّ الإلهي الثابت، لتعيد التفكير في قضايا هامة تمسُّ الإنسان أنَّى وكيف كان، مبرزةً معالم الخير الذي ينشده الإنسان، والذي يحمله الإسلام له. من عناوين فصول هذا الكتاب: الحضارة مفهوماً إسلامياً - الحوار من الإنسان إلى الإسلام - دور الدين في التحرر القومي - جدلية الفقه والحياة - قواعد قراءة النص الإسلامي - سبل النهوض الإنساني.

يؤكد الخطاب الذي يقدمه الدكتور عكام في هذا الكتاب للقارئ الجادِّ حيويةَ الفكر الإسلامي، وقدرته - إذ يستند إلى النص الثابت، ويتفاعل معه بالمعطيات العلمية قديمها وحديثها - على ملامسة الأوتار الإنسانية الحساسة، عازفاً لحناً منسجماً في ذاته، وقابلاً للطرح الإنساني العامّ، في قالب من اللغة المستوعبة لمفاهيم العصر، والمثيرة لحوار جادٍّ مع الآخر.

١٦- نزهة المحبين في روض الصلوات على سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم.

الإعادة الثالثة للطبعة ١ التي صدرت عام ٢٠٠٤. القياس: ١٢ × ١٧. الصفحات: ١٤٤.

يضم هذا الكتاب ٢٥٦ صيغة للصلاة على النبيِّ محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، اختارها

المؤلف من آلاف الصيغ الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن أهل بيته وأصحابه، وعن العلماء والعارفين منذ فجر الإسلام وإلى يومنا هذا. أرادها المؤلف رسالة لشباب الأمة في زمن تستغيث فيه الأرواح عطشاً للتعرف إلى محبوب كامل، يَقنع به العقل ويتعلّق به القلب.

١٧- فقه وحياة: أسئلة وإجابات.

ط١، ٢٠٠٧. القياس: ١٧×٢٤. الصفحات: ٢٨٠. إعداد: أحمد خطيب وعبد القادر كلزية.

الفتوى رأي إنساني ولّدته حركة التفكير الجادّ في النصوص الشرعية الأصلية، وهي اجتهاد في التعرف على مرادات الشرع في الوقائع الإنسانية الحاصلة؛ والأصل في الفتوى أنها تقبل الخطأ والصواب. يضم هذا الكتاب مختارات من الأسئلة والفتاوى التي قدِّمت إلى المؤلف عبر موقعه على الانترنت خلال أول سنتين من عمر الموقع.

١٨- وإنّك لعلى خلق عظيم: رسائل مرفوعة إلى جناب الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ط٤، ٢٠٠٨. القياس: ١٥×٢١. الصفحات: ١٩٢.

إذا كانت الأخلاق ميدان تنافس الإنسانية، فإنَّ أسَّ الأخلاق رحمة، والرحمة عطاء نافع برفق، فهي مضمون وأسلوب، ومحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي نؤمن به رسولاً لله تعالى هو رحمة عامة للموجودات كافة، وهذا الكتاب رسائل مرفوعة إليه، تجلّي للناس بعض معالم هذه الرحمة، نُسجت كلمات الرسائل من سدى الحبِّ بلحمة الأدب، وتعطرت من عبق تجليات السيرة النبوية الشريفة، فأتى الكتاب فريداً في نوعه، يأنس المحبُّ إلى صدق ما فيه، وينتشي الأديب بسحر بيانه، ويجد فيه المفكر صفحات من سيرة النموذج الإنساني الأنقى، الذي كان الشخصية الكاملة التامة، فغدا المعيار المعصوم، وأضحى مطمحاً لسعي الإنسان في تكامله.

نشرت الطبعتان الأوليان من هذا الكتاب بعنوان: وقبّلي بخشية أعتابهم.

١٩- فتاوى الجماهير.

ط١، ٢٠٠٨. القياس: ١٧×٢٤. الصفحات: ٢٤٠. إعداد: محمد أديب ياسرجي.

مساهمة إنسانيَّة جاءت ثمرة لأسئلة واستفتاءات طرحها قراء جريدة الجماهير على الدكتور محمود عكام، أرادها المؤلف بمجموعها دعوةً للناس جميعاً من أجل توافق على حماية الإنسان من الفساد والشرِّ والظلم، ورعايته ضمن مسيرة العدل والخير والإسعاد، وما كان الفقه الإسلامي في غاياته وآماله ليهدف إلى غير ذلك سابقاً ولاحقاً.

www.akkam.org

موقع لقضايا الإنسان ومسائل الفكر الإنساني

يراد منه التواصل مع الإنسان كافّة، نتعرف عليه ويتعرف علينا،

نحاوره ويحاورنا، ونسالمه ويسالمنا؛

ونبحث معه عن صيغة أرقى لتعايش الإنسان مع الإنسان

حاملين إليه تصوراً عنها قبسناه من الإسلام في قرآنه العظيم وتطبيق نبيّه الأمثل

وتجربته التاريخية الرائدة.

يمكّنكم الموقع من الاطلاع على مؤلفات الدكتور محمود عكام وخُطبه ونشاطاته

واستفتائه في القضايا التي تهمكم، وتقديم آرائكم الخاصّة

وإسهاماتكم الفكرية التي تخدم الأهداف السالفة.

فهرس

تقديم معدّ الكتاب — دعوة إلى إعادة اكتشاف القرآن الكريم ٧

مقدّمة المؤلف ١٣

١ من لطائف سورة النصر: ثنائية النصر والفتح ١٥

٢ من لطائف سورة العصر: الزمن والعصر والوقت والعمر ١٩

٣ من لطائف سورة المسد: دعوة الحقّ أمام يَد الباطل ٢٥

٤ من لطائف سورة النبأ: جزاءً وِفاقاً وعطاءً حساباً ٣١

٥ من لطائف سورة الطارق: إنْ كلُّ نفسٍ لمّا عليها حافظ ٣٩

٦ من لطائف سورة الزُّمر: وسِيقَ الذين اتَّقوا ربهم إلى الجنَّة زُمراً ٤٩

٧ من لطائف سورة المائدة: يا أيها الرَّسول بلِّغ ما أنزل إليك ٥٥

٨ من لطائف سورة البقرة: يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام.. ٦١

٩ من لطائف سورة البقرة: أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفَر ٧١

١٠ من لطائف سورة البقرة: وعلى الذين يطيقونه فديةٌ ٧٩

١١ من لطائف سورة البقرة: يريد الله بكم اليُسر ولا يريد بكم العُسر.. ٨٩

١٢ من لطائف سورة البقرة: وإذا سألك عبادي عنِّي فإنِّي قريب ٩٣

١٣ من لطائف سورة السجدة: وجعلنا منهم أئمةً يهْدون بأمرنا ١٠٥

١٤ من لطائف كلمات القرآن: كلمتا الرؤيا والحُلْم ١١٣

١٥ من لطائف كلمات القرآن: الشَّرْح والضيق والحرج ١٢١

١٦ من لطائف كلمات القرآن: حول كلمتي السَّنَة والعام ١٣١

١٧ من لطائف سورة الإنسان: ويطعمون الطَّعام على حبِّه ١٣٩

١٨	من لطائف سورة الإسراء:	ومن الليل فتهجَّد به نافلة لك.....	١٤٥
١٩	من لطائف سورة الإسراء:	وقُلْ ربِّ أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق.....	١٥١
٢٠	من لطائف سورة الإسراء:	وقل جاء الحقُّ وزهَق الباطل.....	١٥٥
٢١	من لطائف سورة الإسراء:	وننزِّل منَ القرآن ما هو شفَاء.....	١٦١
٢٢	من لطائف سورة يوسف:	ولقد همَّتْ به وهمَّ بها لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه.....	١٦٧
٢٣	من لطائف سورة آل عمران:	واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا.....	١٧٧
٢٤	من لطائف سورة العلق:	اقرأ باسم ربِّك الذي خلَق.....	١٨٥
٢٥	من لطائف سورة الطارق:	إنَّه لقولٌ فصلٌ وما هو بالهَزل.....	١٩١
٢٦	من لطائف كلمات القرآن:	المحص والتمحيص والفحص.....	١٩٥
٢٧	من لطائف سورة البقرة:	يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة...	٢٠١
٢٨	من لطائف كلمات القرآن:	حول الفرق بين الخَلْق والفَطْر.....	٢٠٧
٢٩	من لطائف سورة النحل:	إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى.....	٢١١
٣٠	من لطائف سورة الضحى:	الإنسان والمعاناة	٢٢٥
	تعريف موجز بكتب المؤلف	.....	٢٣١